نيكول ليوبيتش

إنسان يُحترق

رواية

ترجمة: د. صلاح هلال

إنسان يحترق
رواية
نيكول ليوبيتش
ترجمة: د. صلاح هلال

عن الكتاب

إنسان يحترق *رواية*

لا يمكنك خداع هانو كيلستربيرج البالغ من العمر عشر سنوات عندما يتعلق الأمر بكرة القدم، ولا عندما يتعلق الأمر بالاحتجاج أيضًا. قبل عامين، منذ انتقل الزاهد هارتموت جروندلر إلى قبو الأسرة وتبين أنّه سياسي لا يلين، انقلب عالم هانو -الذي كان في يوم من الأيام مثاليًّا- رأسًا على عقب، حيث أصبح الآن يذهب إلى المظاهرات ويوزع المنشورات، بدلًا من أن يلعب كرة القدم. وفي حين كان الأب يبتسم في البداية في وجه الرجل الساكن في القبو، كانت الأم تقع في شباك ذلك المثالي الذي لا يعرف الحلول الوسطى، وهكذا فسدت الزيجة. رواية مستفزة ومؤثرة عن أسرة وقعت فجأة في مرمى نيران التاريخ المعاصر.

أسرة في مرمى نيران التاريخ المعاصر.

رواية مذهلة ومستفزة، ولكن في الوقت نفسه دافئة وذكية.

*كان هارتموت يعيش معنا، ولكنه أضرم النار في نفسه بالأمس *.

كان هانو كيلستربيرج يعرف كل شيء يجب معرفته عن كرة القدم، وعن تنظيم المظاهرات أيضًا. على مدى العامين الماضيين كان المتظاهر الزاهد هارتموت جروندلر يعيش في شقة عائلته. كان جروندلر معارضًا للنظام السياسي آنذاك، وقد قلب حياة هانو -التي كانت مريحة في ما مضى- رأسًا على عقب. في حين كان والد هانو يرفض ذلك الرجل القابع في الطابق السفلي ويعبر عن ذلك بابتسامة عنيدة، كانت أمه تنجذب بشكل متزايد إلى صراع المناضل الزاهد من أجل عالم أفضل وإلى التزامه الصارم بالحقيقة، وما ينظمه من مظاهرات سلمية ضد الطاقة النووية. ومن تلك اللحظة ارتبطت حياة هانو ارتباطًا وثيقًا بحركة المقاومة ضد الطاقة النووية؛ وأصبح ينفق المال لمساعدة هارتموت على مواصلة كفاحه ويوزع المنشورات جنبًا إلى جنب مع والدته، وكان متواجدًا عندما قام جروندلر بتقييد نفسه بالسلاسل في *كاتدرائية كولونيا* ليعبر بذلك عن موقفه السياسي، كما كان معه أيضًا عندما بدأ إضرابًا آخر عن الطعام. وازدادت الهوة بين والديّ هانو، كما زاد من سرعة انفصالهما التام قرار جروندلر النهائي واليائس بإضرام النار في نفسه في مدينة *هامبورج*. وفي خضم الأحداث انتقل هانو ووالدته إلى *برلين*، حيث واصلت الأم كفاح جروندلر باعتبارها الوصي على تركته. وبعد سنوات قليلة من موت والدته وفي أثناء تنظيف شقتها أدرك هانو مدى طغيان تطرف هارتموت جروندلر المتشدد على حياته الخاصة.

- رواية مؤثرة عن عائلة تأثرت بشكل غير متوقع بالأحداث العالمية.
- رواية كاشفة ومستفزة، ولكنها دافئة ومرحة.

عن المؤلف:

نيكول ليوبيتش، من مواليد ١٩٧١ في زغرب / كرواتيا، نشأ في السويد

واليونان وروسيا وألمانيا. درس العلوم السياسية في بريمن وحصل على ً
تدريب في مدرسة هامري نانن للصحافة في هامبورج. يعمل صحفيًّا مستقلًّا
وكاتبًا.
2011 جائزة أدلبرت فون- شاميسو، جائزة تشجيعية.
2010 جائزة فير. دي للأدب برلين براندنبورج.
2005 جائزة تيودور فولف.
1999 جائزة هانزيل ميت.

إنسان يحترق

***

في الأسابيع التي أعقبت فوكوشيما كان لدى أمي رغبة قوية في التحدث معي عن هارتموت. أدركتُ اليوم أنها كانت ترغب بذلك في قول كلمة الوداع، ولكن بطريقة تختلف عما أظهرت. لم تقل وداعًا لهارتموت، كما كنت أتمنى، ولكن للحياة. ولم أدرك ذلك إلا لاحقًا. كانت تعرف: أن الطريقة الوحيدة لتقريب هارتموت إلى نفسي هي إعطائي أملًا في أنّها بذلك ستتخلص منه دفعة واحدة وإلى الأبد.
ظننت أنه بعد أن جاء ذكره في العديد من الصحف فإنَّ والدتي ستكون قد وصلت بذلك إلى هدفها، أو أنها ستصبح على الأقل قادرة على إقناع نفسها بأنها قد وصلت إلى هدفها. اعتقدتُ في أنها تريد محادثتي عن هارتموت كي تُخرج كل ما بداخلها، وتتحرر منه وتكرس نفسها لحياة جديدة بعيدًا عن هارتموت. كان ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعني للموافقة. ولكن في نهاية الأمر -وقد أدهشني أنني لم أفهم ذلك على الفور- أرادت فقط أن تتأكد من أنني على استعداد جيد لتحمُّل الإرث الذي ستتركه لي.
الآن أصبحتُ أجلس هناك مع كل الملفات والذكريات، كان بإمكاني محاولة تحرير نفسي منها، لكنني لم أتمكن حتى من التخلص من الوثائق. لا أعرف كيف يمكن التخلص من الذكريات، وبالتأكيد ليس بعد أن جعلتني أمي الوريث الوحيد لـذكريات هارتموت. محاولة كتابة كل شيء هي محاولة لترك كل شيء ورائي وفي الوقت نفسه الوفاء بالالتزام الذي فرضته أمي عليَّ دون أن تسألني؛ حتى لو تبين أن القصة مختلفة عما كانت تعتقد أمي وأنها ستصاب بخيبة أمل لأن قصتي عن هارتموت لن تُصبح قصة بطولية.
وحقيقة أن أمي لم تعد على قيد الحياة تجعلني أكتب بحرية أكبر، لأنني لست مضطرًّا إلى القلق بشأن وجهة نظرها وإيمانها غير المشروط بالحقيقة، وكأن هناك حقيقة واحدة فقط في ما يتعلق بهارتموت، في حين أني أثق أكثر في ذكرياتي وخيالي؛ فإمكانية أن يكون ما قيل مُطابقًا لما أتذكره كانت تكفيني لاعتبارها حقيقة.
هارتموت كان محقًّا، يجب أن نقر بذلك؛ فقد توقع الكارثة. فبعد ثلاث وثلاثين سنة من قيامه بإضرام النار في نفسه، بل ثلاث وثلاثين سنة وثلث السنة تحديدًا -بحسب ما نبهتني أمي- اهتزت الأرض في اليابان وتسببت في كارثة. ثلاث وثلاثون سنة وثلث السنة؛ كان هذا أكثر من مجرد توقع، إذ كان العدد ثلاثة ذا مدلول إلهي. لا يسع المرء إلا أن يفكر في الثالوث المقدس! لا يمكن أن يكون ذلك مجرد مصادفة. فقد كان لدى هارتموت، إن لم يكن موهبة إلهية، فعلى الأقل هبة نبوية. فقد كانت والدتي تعتقد ذلك طوال حياتها، وربما كانت الوحيدة صاحبة ذلك الاعتقاد، لكن كارثة فوكوشيما في مارس ٢٠١١ أكدت رأيها.
من يظن أن أمي عندما علمت بما حدث في اليابان أسندت ظهرها إلى

كرسيها زاهية بانتصارها ومستمتعة به في صمت، وربما زينت شعورها بالانتصار بابتسامة متواضعة، أستطيع أن أقول بكل ثقة عمن يظن مثل ذلك في أمي: *إنه لم يقابل أمي أبدًا*.
فعندما زرتها بعد بضعة أيام من وقوع الكارثة النووية الكبيرة كانت تنتظرني على عتبة باب شقتها. ولأنها كانت في السابعة والسبعين من عمرها، ولم تكن تقوى على الوقوف على قدميها، كانت مستندة إلى إطار الباب بيد واحدة، وقبل أن أحتضنها عند التحية قالت وهي تبدو منتصرة وكأنها قد ربحت: *كان يعرف ذلك! هارتموت عرف ذلك!* وبطبيعة الحال، لم يكن عليها أن تذكر ذلك فقد كانت هي الوحيدة التي صدقت في هارتموت ورأت فيه أكثر من شخص مُتسكع.
ربما كانت محقة في تقييمها ولكن لا يمكنني فقط أن أنسى ما مررنا به طيلة تلك السنوات التي قضيناها في العيش من أجل هارتموت، حيث كان هارتموت مقياسًا لكل الأشياء. وحقيقة أنني الآن الشخص الذي عليه الكتابة عن حياته وتفسيرها يُعد شيئًا مثل سخرية القدر أو ببساطة ميزة الميلاد المتأخر.
في ذلك اليوم سلمت على أمي كما كنت أفعل في كل مرة. ربتُّ على كتفيها بخفة، ووضعت خدي على خدها وقلت: *لقد أحضرت الكعك، دون بيض ولا زبد ولا حليب، بالطريقة التي تحبينها*. هذه الكعكة كانت تسمى كعكة *زيبرا* أو *الحمار الوحشي*، وكانت مئة في المئة نباتية -حسب ما أكدت لي البائعة- التي كانت شابة ذات ضفائر مجدولة. كنت أقاوم دافعًا بداخلي لأشرح لها أن الكعكة لم تكن لي، وإنما لأمي التي تبلغ من العمر ٧١ عامًا، والتي أرادت أن تحتفل بمناسبة يوم الكارثة العالمي، وطلبت مني أن أحضر كعكة.
القصة التي سأحكيها عن هارتموت مختلفة عن التي كانت أمي لتحكيها. فقد كانت قصتانا ستتشابهان في البداية فقط، فكلتاهما كانت ستبدأ بالموت، كما لو كان الموت قبل كل شيء هو الذي أعطى لحياة هارتموت معنى. كما أنها كانت ستحكي عن هيلموت شميدت الذي كان آنذاك مستشارًا اتحاديًّا لألمانيا، والذي كان يرى أن أشخاصًا مثل هارتموت *صعاليك خُضرًا*، وقد هددهم بالفعل قبل انعقاد المؤتمر الحاسم للحزب في نوفمبر ١٩٧٧ من معارضة قرار الأغلبية ومن الوقوف ضد الطاقة النووية. لكننا لم نتفق حول الدور الذي لعبه هيلموت شميدت في هذه القصة. فقد كانت والدتي مقتنعة بأن عناده هو الذي دفع هارتموت إلى الموت، وأنه كان مسؤولًا جزئيًّا عن ذلك.
أما أنا فكنت أرى فيه رجلًا رجعيًّا لا يتناسب عمله مع تصوراته العامة، وهو سياسي شعر هارتموت تجاهه -ببساطة- باليأس. وقد قاومت والدتي هذا الرأي بشدة. فبالنسبة لها لم يكن ما قام به هارتموت عملًا يائسًا. وأصرت على أن هارتموت التزم بمبادئ رودولف باهرو المنشق عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية، واعتمد على التأثيرات طويلة المدى لأي فكرة متوغلة في صميم المشكلة. وأنه كان يتعامل مع الأمور بإخلاص مطلق وبكل شرف

وإصرار. لقد ألقى ليس فقط عقله ولكن أيضًا وجوده كمواطن في كفة الميزان. من يظن فيه اليأس لا يعرف كيف كان هارتموت حقًّا، ويحوِّل فعله إلى النقيض: ويعده ضعفًا بشريًّا. من الصعب تقييم حجم تصرفه.

لقد كان عملًا شجاعًا ونتاج الإصرار والحب. وهكذا جعلت من هارتموت يسوع الثاني؛ لأنه حسب قول يسوع: *لا أحد لديه حب أعظم من الذي قدم حياته للأصدقاء*. وهكذا كان هارتموت: *لقد بذل حياته من أجلنا جميعًا.* حتى ذلك أيضًا أصبحت أراه بصورة مختلفة بعد فترة زمنية تقارب الـ٣٤ عامًا. ففي قصتي نحن الذين قدمنا حياتنا من أجل هارتموت. لقد ضحى بنفسه أقل مما ضحى بنا، فنحن كنا قريبين منه، سواء شئنا أم أبينا.

لطالما كان الأمر كذلك؛ فكل من أحكي له قصتي لا بدّ أن يتكون لديه الانطباع بأن أمي لم تكن كاملة العقل. استنتاج يكاد يكون لا مفر منه، لكن لم يجرؤ أحد على التعبير عن هذا بوضوح، على الأقل ليس في وجودي. فبدلًا عن ذلك كان الناس يبحثون عن الكلمات التي تصف استنتاجهم بأفضل طريقة غير جارحة مثل: *هذا يبدو مأساويًّا*؛ وهذه عبارة غالبًا ما كنت أسمعها. أو كانوا يسألون: كيف كان الأمر بالنسبة لي وأنا أعيش مع مثل هذه الأم. أو يسألون عن والدي. حتى إن أحدهم اندفع ذات مرة وسأل ما إذا كانت والدتي قد خضعت للعلاج من قبل، وحتى لا أسيئ فهم ما قاله أضاف: *ليس من قِبل أي طبيب، ولكن مع... كما تعلم*. إحدى معارفي كانت مقتنعة بأن والدتي قد فعلت كل ذلك بدافع الحب، بدافع الحب لهارتموت، حب لم تكن تعيشه علنًا وربما لم تجرؤ على الاعتراف به حتى أمام نفسها. فقلت: يمكن في الأساس تفسير سلوكها كنوع من إجراءات التخطي. وعندها نظرت إليّ تلك السيدة واستوعبت معنى ما قالته لي للتو، وكانت متعاطفة بما فيه الكفاية حتى إنها تخلت عن استكمال شرح نظريتها.

ماذا عليَّ أن أقول عن كل ذلك؟ لم يفاجئني أي من ردود الفعل تلك، لأن كل هذه الأفكار قد شغلتني بالفعل. أنا الآن في الرابعة والأربعين من عمري -يمكن القول- رجل ناضج. وقد خضعت بضرورة الحال للعلاج، كان في البداية في صورة جلسات أسبوعية.

وبالفعل في أثناء اللقاء الأول قالت الطبيبة النفسية إن والدتي هي الموضوع الذي يجب أن أعمل عليه. ولتوضيح حالتي النفسية شبهتني بأوبليكس ووالدتي بهينكلشتاين، الذي كنت مضطرًّا لحمله على كتفي يومًا بعد يوم. ولكن لسوء الحظ، على عكس أوبليكس، لم أقع وأنا طفل في برميل من الشراب السحري.

وبالتالي كان أمامي خياران: إما أن أكون قويًّا لدرجة أن هينكلشتاين لا يمثل عبئًا بالنسبة لي؛ أو أن أضطر إلى تحطيم هينكلشتاين بحيث يفقد حجمه ووزنه. ولكنها أوضحت لي بسرعة أن عليَّ أن أقوم بكلا الأمرين، لذلك فقد كنا نحتاج إلى موعدين في الأسبوع على الأقل. لا أعرف عدد الساعات التي قضيتها على الأريكة لديها، فقد مرت سنوات على ذلك، لكن من وجهة نظري

اليوم أعتقد أن هذا الشكل من العلاج كان خطأ.
فكان الأمر يمثل انتكاسة. حيث إن حديث رجل ناضج عن أمه يبدو مثل جلوس المرء على الأريكة وهو يرتدي *بيجامة نيكي* صغيرة جدًّا عليها زخارف *ويني – كاو* على الصدر، وهو يأكل قطع التفاح المقشر والمقطع ويلتحف غطاءً وثيرًا. لذا بدأتُ الملاكمة كعلاج بديل. حتى أحضرني ذات مرة المدرب العجوز -القادم من ألمانيا الديمقراطية- إلى التدريب الأول في الحلبة وشرح لي مدى أهمية *التغطية*، أمسك بمعصمي ورفع قبضتيّ أمام وجهي، ثم لكم بيده اليسرى قفازي، ولأني لم أكن مستعدًّا لقوة الضربة، ضربت أنفي بقفازي فأدميته. بعد ذلك أصبحت عضوًا في صالة للألعاب الرياضية وأصبحت أتدرب بالثقالات الحديدية *الدمبل* بشكل مفرط، ولعل ذلك كان سيعطي المعالجة نموذجًا رائعًا يؤكد نظريتها. فقد كانت الكلمة الرئيسة: هينكلشتاين.

***

وضعت أمي الطاولة، وأخذت أطباق الطعام الجيدة من الخزانة، أطباق من طراز روزنتال بيضاء وبسيطة ولها حافة ذهبية، والأكواب المناسبة لها والشوك الفضية المؤكسدة التي فقدت بالفعل تألقها منذ طفولتي. وكانت قد أعدت القهوة منزوعة الكافيين التي اكتشفتها قبل بضع سنوات.
لم تستطع تقبل حقيقة شربي للحليب، والحليب يأتي من الأبقار كما هو معروف، وأن القهوة من دون حليب كانت قوية جدًّا بالنسبة لي وتتسبب في تسارع خفقان قلبي. ولكن على أي حال كانت قد سمحت لي بحفظ الحليب المُعلب في ثلاجتها، في أدنى رف، حيث كان يتعين عليّ إخراجه في كل مرة من تحت الكرنب والبطاطا والكراث. أصبحت أمي أكثر تسامحًا على مر السنين، على الأقل في ما يتعلق بالتغذية. ما زلت أتذكر الوقت الذي اكتشف فيه هارتموت *نظام فيرلاند الغذائي* النباتي لنفسه، وبالتالي –للأسف- لنا أيضًا.
أصبحت والدتي من أكبر أتباع *فيرلاند*، على الأقل لفترة من الوقت. لقد أوضحت لي وقتها أن معظم الأمراض كانت نتيجة لسوء التغذية. الإنسان ليس مجهزًا لأكل كل شيء. اللحوم والأسماك والبيض تزيد حموضة الجسم وتتسبب في وجود البكتيريا المتعفنة التي تستقر في الأمعاء الغليظة، مما يجعل الناس يمرضون. يجب أن نأخذ مثالًا من حيوانات القردة العليا، لقد كانت نباتية وكانت تقوم عدة مرات في اليوم بإخراج البراز اللين. قد يظن معظم الناس أنها كانت مصابة بالإسهال، ولكن ليس آر فيرلاند، فبالنسبة له كان هذا الإسهال هو أفضل شيء يمكن أن يحدث للشخص لأنه كان علامة على التغذية المثالية. ونتيجة لذلك بدأت أمي في تقديم مرق الخضار في الصباح لأبي ولي، حيث كانت تنقع بذور الكتان والنخالة في الليلة السابقة لإعدادها. بالإضافة إلى ذلك، وكانت تقدم معها فواكه وحليبًا مكثفًا؛ وفي وقت الظهيرة تعد لنا البطاطس واللبن الرائب مع الأعشاب، وفي المساء ما

يسمى بالكروسكا، وهي عبارة عن عصيدة الحبوب الكاملة مع نخالة القمح والزبيب. والكثير من الطعام النيئ بشرط أن يُمضغ لمدة شبه أبدية، وهو ما لم أكن أفعله أبدًا، لأنه بعد بضع دقائق كانت عضلات الفك تؤلمني بشدة، وكنت أشرح لأمي أنني أُصاب بألم عضلي بسبب هذا الطعام.
وعلى خلافي كانت والدتي تستبقي أحيانًا عصيدة الجزرة في فمها لساعات، مما دفع أبي إلى تسميتها بالمُجترّة. كان ذلك أيضًا هو الوقت الذي أصبحت فيه والدتي مهتمة بعملية الإخراج لديها، وفي وقتٍ لاحق بحركات الأمعاء لديَّ أنا أيضًا -لم تكن مهتمة بهذا الأمر لدى أبي- وكانت تسأل بانتظام عن قوام البراز لديَّ. بعد قضاء الحاجة كنت أضطر إلى الانتظار قبل تنظيف نفسي حتى تلقي أمي نظرة إلى الوعاء. في بعض الأحيان كانت تومئ برأسها راضيةً، وفي أحيان أخرى كانت تصف لي جزرتين أخريين في اليوم وكوبًا من اللبن الرائب على الفطور، ثم تُدخل سيخ شيش الكباب في إفراغاتي ويبدو عليها القلق الشديد. لقد كنت أشعر بالحرج المتزايد من زيارتها لتفقد حالتي الهضمية، ولحسن الحظ تخلت أمي عن عملية الفحص الشخصي التي كانت تقوم بها.
بدلًا عن ذلك اكتفت بأن تسأل، وكنت أقتصر في إجاباتي على *جامد*، *طري* *داكن*، و*فاتح*. في مرحلة ما بعد ذلك رفضت تقديم أي معلومات. كنت أصمت عندما تسألني أمي، وكنت أصمت حتى عندما كانت تصر.
مرة أخرى -وقبل أن يفعل هارتموت فعلته مباشرة- عندما كنت في العاشرة من عمري، حاولت أمي إقناعي بأهمية تناول الطعام الصحي. فقالت: *إذا أكلت بطريقة خاطئة، فستجعل جسمك حمضيًّا وسيتحول ذلك إلى سرطان، وربما تفهم ماذا يعني السرطان، فكر في جدتك*. توفيت جدتي لأمي بسبب السرطان. عندما كنت في السادسة من عمري، وبالطبع مثل كل طفل يسمع بالموت بالسرطان للمرة الأولى في حياته، اعتقدت أنها قد قتلت في الحمام في أثناء عطلتها في بحر الشمال بسبب سرطان عملاق. لم يتم حل سوء التفاهم إلا عندما أمضيت أسبوعًا مع والدي في *بحيرة كونستانس* في الصيف نفسه ورفضت حتى أن أضع قدمًا في الماء.
أراد أبي أن يعرف ما هي مشكلتي، ثم أخبرني بأن السرطان الذي عانت منه جدتي لم يكن سرطانًا يعيش في الماء ولم تكن له مخالب. وهكذا عرفت ماذا يعني السرطان عندما كانت أمي تحاول أن تشرح لي أنه إذا لم أتناول طعامًا صحيًّا فسأصاب بهذا السرطان، وكان هذا يعني: *الحليب والبطاطس ونخالة القمح والزبيب* بدلًا عن *المعكرونة مع الكاتشب والفطائر مع القرفة والسكر وأصابع السمك المقلي*. كان الأمر متروكًا لي: إما أن آكل ما أحب أكله وأصاب بالسرطان، أو أتناول الحليب والبطاطس وأعيش حتى أبلغ من العمر ١٢٠ عامًا. لم يكن قرارًا سهلًا بالنسبة لي في ذلك الوقت. أتذكر أنني كنت أكتب على أوراق صغيرة *الحليب* و*الفطائر*، وأطويها وأضعها مبعثرة في وعاء. وكلما قمت بسحب *الحليب*، كنت أعتبر الاختيار غير صالح

وأسحب ورقة أخرى. كنت سعيدًا في صباح اليوم التالي عندما خطر ببالي السؤال الحاسم، في أثناء تناول وجبة الإفطار سألت أمي عن عمر ذلك الرجل *فيرلاند*. وأمي التي كانت تقطع تفاحة في تلك اللحظة، توقفت وبدأت تحكي لي قصة عن ولد صغير جاء إلى الدنيا مريضًا، أنحف كثيرًا من الأطفال الآخرين. كان ضعيفًا منذ البداية دون أن يستطيع فعل شيء حيال ذلك. كان الصبي يعاني كثيرًا من صداع وآلام في المعدة، وكان هذا بالطبع يعذبه. كان الأمر يشبه حال الأطفال في إفريقيا الذين وُلدوا أيضًا نحفاء جدًّا ولم يتمتعوا بالصحة والقوة أبدًا.
ونظرت إليّ وقالت: *مثلك على سبيل المثال*.
فقلت لها: *لكن شرب الحليب وأكل نخالة القمح، أليس كذلك؟*.
فقالت والدتي: *هذا صحيح*.
سألتها: *وكم بلغ عمره؟*.
أجابت والدتي: *تسعة وسبعين*.
فقلت: *الجدة أكبر من ذلك*. الجدة الأخرى، والدة أبي تعيش معنا في نفس المنزل في الطابق الأرضي، وكانت تدخن، ليس فقط بين الحين والآخر، ولكن كما كانت أمي تقول: *كانت تُدخن مثل المداخن* وليس أي نوع سجائر وإنما *روت هِندله*، التي كانت تُعرف بالفعل باسم *موت هِندله* في ذلك الوقت. كنت أعرف من كلام أمي أن التدخين ضار جدًّا بالصحة، ويبدو أنني وضعتها في موقف محرج يتطلب الشرح عندما قلت لها إن جدتي التي كانت تدخن *موت هِندله*، عاشت حتى أصبحت أكبر سنًّا من*فيرلاند* آكل الطعام النيئ. ومنذ ذلك الحين لم تجبرني أمي على تناول مرق الخضار ونخالة القمح.
لفترة من الوقت كانت أمي تعطيني بعض التفاح والجزر عندما تودعني، حتى أوضحت لها أنهم يرسلون لي صندوق الطعام العضوي الخاص بي إلى منزلي، ولم يكن ذلك صحيحًا.
وضعت أمي نظارة القراءة الخاصة بها، والتي كانت موضوعة فوق بضع صفحات مطوية من الصحف بجانب صحن الطعام الخاص بها.
لقد انتظرت ذلك اليوم طويلًا. وما فشلت في تحقيقه طيلة تلك السنوات جعله أسوأ سيناريوهات *فوكوشيما* ممكنًا: انتزاع هارتموت من بين براثن النسيان وإخراجه من تلك الحفرة العميقة من الإهمال الذي سقط فيه بعد وقت قصير من وفاته. دفعت أمي إليّ مقالتين عبر الطاولة، واحدة من صحيفة *فرانكفورتر الجماينه تسايتونج*، والتي أشار فيها فرانك شيرماخر إلى *الشعارات الجوفاء التسعة للصديق النووي*، ثم دفعت إليّ بالمقال الثالث حتى تتكلم عن هارتموت. أشارت أمي بإصبعها السبابة إلى السطر المناسب في المقال، وقالت *عليك أن تقرأ هذا*. فقرأتُ: *أشار هارتموت جروندلر، الذي أصبح لسوء الحظ منسيًّا اليوم، قبل عقود إلى التلاعب بالناس من خلال اللغة في العصر النووي*. ثم دفعت إليّ مقالًا آخر من فرانكفورتر

الجماينه تسايتونج، وضعت خطًا تحت جملة فيه: *هارتموت جروندلر، واحد من أكثر الناس الصالحين في عصره*. ولكنها حين وضعت الخط أغفلت عمدًا نصف الجملة.
فقد قال النص الكامل: *هارتموت جروندلر، واحد من أكثر الصالحين، ولكن إذا نظرت إلى العنف الذي ارتكبه ضد نفسه في الوقت نفسه تجد أنه الشخص الأكثر فظاعة في عصره*.
ثم قالت والدتي: *هنا واحدة أخرى*، وهي تسحب مقالة أخرى من تحت الطاولة كما لو أنها كانت تنتظر لحظة المفاجأة هذه. لقد دُهشت وتساءلت عن المكان الذي استحضرت منه المقال. حملت صفحة من الجريدة بيد واحدة وأشارت بإصبع السبابة في يدها الأخرى إلى العنوان، ولم تستطع إخفاء فخرها. *عليك أن ترى هذا! صفحة كاملة!* لقد كانت مقالة مفصلة من جريدة *تسايت* بعنوان: *الحقيقة المتوهجة. قصة هارتموت جوندلر الذي أحرق نفسه عام ١٩٧٧ احتجاجًا على أكاذيب الصناعة النووية*. ثم قالت والدتي: *بفضل فوكوشيما* وبدت السعادة على وجهها.

***

بعد مرور ثمانية أشهر يمكن أن أقول إني لم أر والدتي مرتاحة وراضية هكذا منذ سنوات. لم يكن ذلك مفاجأة، فمن ناحية قد عاشت أمي من أجل تلك اللحظة؛ اللحظة التي يتذكر فيها العالم هارتموت. قضت والدتي كل يوم في غرفة المكتب، تجمع مجلدًا تلو الآخر، جمعت كل مقالة في جريدة، وكل قطعة من الورق كتبها هارتموت، وسجلت كل ذاكرة كانت لديها هي وغيرها عن هارتموت، وفتشت في الأرشيفات وفي ذاكرتها. لقد اعتبرت أن وظيفتها هي الحفاظ على ذكراه حية، وإعطاء هارتموت المكان الذي يستحقه في الذاكرة الجماعية.
أرادت عمل نصب تذكاري له -ليس مجازًا-. لقد فكرت بالفعل في عمل نصب تذكاري مصنوع من الرخام، لكنها عدلت عن الفكرة عندما أدركت ما سيكلفه مثل هذا النصب التذكاري، خاصة إذ لم يكن من المفترض أن يكون في حجم تماثيل أقزام الحديقة، وأنه لا يمكنك بناء نصب تذكاري في المدينة دون أن تحصل على تصريح، ثم كان هناك الحمام كأعداء طبيعيين لكل نصب تذكاري، وهذا لا يمكن أن يكون هدفها أن يهاجم الحمام هارتموت. كانت تحلم بشارع يُطلق عليه اسم هارتموت *وأن يكون شارعًا رئيسًا، إن أمكن، وليس أبدًا طريقًا مسدودًا في منطقة بناء حديثة* كانت تحلم بأن يقف نصب تذكاري له في متحف أو على الأقل في معرض دائم في بيت تاريخ جمهورية ألمانيا الاتحادية.
جربت كتابة سيرة هارتموت، لكنها لم تتمكن من تجاوز المقدمة. قبل وفاتها بفترة وجيزة تواصلت مع صحفي وطلبت مني متابعة الموضوع لأنها أحست بأنها لن تعش حتى ترى تلك السيرة. قالت إنه ينبغي عليَّ الاعتناء بأن يتحدث الصحفي إلى هانز بيهلينج وولفجانج سيديمان، ومع بيتر وأنكه من فريق

العمل المعني بـ *حماة الحياة*. ومع أنيماري لوش. وأودو سيندهاجين. وألا ننسى إليزابيث يسكه. البروفيسور بيرترام وإيجون شتومبف لديهما الكثير أيضًا. وماري جراف. كما يُعد فيرنر كولر مصدرًا جيدًا أيضًا. يجب عليَّ التفكير مليًّا في ما يجب البدء به. ربما مع ولادة هارتموت. أو الأفضل مع النهاية.
يجب أن يحكي عن حياته من الخلف إلى الأمام. ربما مقدمة في البداية، لتوضيح المعنى التاريخي لهارتموت. على شاهد قبر هارتموت مكتوب: *حياة من أجل الحقيقة، موت ضد الكذب*. يجب أن تكون تلك الرسالة الرئيسة للكتاب.
يجب أن يعرف الناس أخيرًا من كان هارتموت حقًّا. وما هي الأكاذيب التي كافح ضدها على مر السنين. قالت أيضًا: *يجب أن يبدأ بالموت، حتى يفهم القراء أهمية هذه القصة. واليأس الذي عانى منه*. من أجل والدتي اتصلت بالصحفي، لكن عبر الهاتف أصبح من الواضح لي أن سيرة حياة هارتموت لم تكن على رأس قائمة أولوياته. يبدو أن اهتمامه كان منصبًّا أقل على هارتموت وأكثر على هوس أمي به. قال عندما أخبرته عن وفاتها *يا للأسف*. سألني عن ظروف وفاتها و*كيف كانت الحال* مع والدتي، وهو ما لم أجد له إجابة تلقائية عندي، وبدلًا عن ذلك حولت الحديث لموضوع الكتاب، ولكن بدا لي أنه لم يُعر الأمر اهتمامًا كبيًرا.
ثم قال، ليختتم المحادثة: *أتعرف أن مشكلة هارتموت هذه هي مشكلة شائعة للغاية: لا أحد يعرفه. في نهاية الأمر كان هو أيضًا واحدًا من هؤلاء المتعصبين الذين يجب عدم منحهم اهتمامًا. في الواقع إنه مثل هؤلاء المحاربين الإسلاميين الذين يحاربون باسم الرب. هم أيضًا يضحون بأنفسهم لإيمانهم بعالم أفضل*. إنّ مقارنة هارتموت مع هؤلاء القتلة المغيبين كانت مسألة وقحة، مما جعلني أشعر بأنني مضطر للدفاع عن هارتموت، وهو أمر كان نادرًا جدًّا في حياتي.
كان هارتموت من دعاة اللاعنف، ولم يأخذ أحدًا معه إلى الموت. حيث كان العالم الذي يؤمن بأنه أفضل هو عالم بلا محطات طاقة نووية، ولم يكن عالمًا يُقتل فيه أصحاب القناعات الدينية الأخرى. ومع ذلك كان ذلك الصحفي محقًّا بشأن شيء واحد: بصرف النظر عنا -الذين كنا نتعامل معه- لم يتذكره أي شخص آخر. ففي النهاية السبب في أن والدتي لم تشعر بالملل في حياتها هو شعورها بأن لديها مهمة. وكان كل شخص إضافي يمكن أن تخبره عن هارتموت يصبح شخصًا آخر قد سمع عنه، واحد آخر ضد النسيان، وبالتالي كان شخصًا جديدًا يعطي لموت هارتموت أهمية ومعنى. لم أخبر والدتي ولا الصحفي أنني لم أقابل شخصًا سمع عنه من قبل. على الأقل كان الجميع يصبح دائمًا متأثرًا بفعل هارتموت ويفاجأ أنه لم يسمع الاسم من قبل. حقيقة أن والدتي بدت مسترخية وسعيدة للغاية في اليوم الذي أرتني فيه المقالات جعلتني أشعر بالحزن بعد ذلك أكثر مما كنت عليه عندما كنت أجلس معها إلى طاولة المطبخ. لأن وفاتها أظهرت لي كم كانت توقعاتها متواضعة. ثلاثة

مقالات لم تفعل أي شيء في الواقع. وكنت مقتنعًا بأنه لم يكن من قبيل المصادفة أن والدتي توفيت بعد بضعة أشهر. لقد استطاعت أخيرًا أن تترك ما عاشت متشبثة به.

***

قالت: *ممتازة! جريدة دي تسايت، هل تتذكر المقال الذي نُشر بعد وفاة هارتموت؟ كان بعنوان: جروندلر؟ - أنا لا أعرفه! بعد أسبوعين من وفاته تم نسيانه بالفعل*. ولكني لم أكن أتذكر ذلك المقال. لكني لم أستغرب أن تتذكر أمي ذلك بوضوح. لقد كانت تتذكر كل ما يتعلق بهارتموت.

والآن تكرّس نفس الصحيفة صفحة كاملة لهارتموت. لا يمكن أن يكون قد نُسي تمامًا. أتساءل عما إذا كانت جريدة *زود دويتشه تسايتونج* أيضًا ستتذكره. فقد رفضت الصحيفة في ذلك الوقت حتى أن تطبع نعيًا. حيث كان ذلك سببا كافيًا أن تقاطع أمي زود دويتشه تسايتونج طوال حياتها. قالت: *كما ترى، لا يمكن محو أشخاص مثل هارتموت من التاريخ، ولا يمكن إنكار عظمة ما قام به بشكل دائم؛ وكذلك الخطر من الطاقة النووية لا يمكن إنكاره*

نظرت أمي إليَّ، وظننت أنني رأيت الدموع في عينيها.

قالت: *كان هارتموت محقًّا، فوفاته لم تكن حادثة مروعة، بل كانت ضرورة. لقد وضع نفسه في خدمة الضرورة*.

***

لكي تفهم لماذا جلست إلى طاولة مطبخ والدتي بعد مرور ٣٣ عامًا على وفاة هارتموت وتناولت كعكة *الحمار الوحشي* للاحتفال بكارثة *فوكوشيما* النووية، وشربت معها في ما بعد النبيذ الفوار واستمعت إليها وهي تحكي ما سمعته منها كثيرًا بالفعل، كي تفهم ذلك كله عليك معرفة القصة –قصتي- أو كما وصفتها معالجة هينكلشتاين، قصة سوء المعاملة. لكنني ما زلت أرفض هذا؛ لأن هذا المصطلح كان يستخدم باستخفاف شديد، وكان يشوه ذكرى طفولتي. فطفولتي كانت سعيدة. على الأقل حتى جاء هارتموت في حياتنا.

في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن كل شيء في الحياة يتبع السببية، لقد فهمت ذلك لاحقًا. ولأن كل شيء يقبل التفسير، فإن الأمر يتطلب فقط الخيال الكافي. لا يوجد حاضر دون ماض، ويمكن ربط كل قرار وفعل لي بتجارب في طفولتي. يمكن أن يكون ذلك أيضًا لعبة جميلة. كان ذلك يذكرني برسومات الأطفال، حيث يجب عليك توصيل النقاط التي تحمل أرقامًا، وفي النهاية تتكون صورة.

ولأن كل لوحة برقم يجب أن يكون لها نقطة انطلاق، رقم ١، لذلك يمكن جعل الأمر سهلًا في الحياة عن طريق البدء بالولادة، لكنني أعتقد -ولا ينبغي أن يبدو ذلك كنوع من الشفقة على الذات- أن ولادتي ليست الحدث الأساسي في تلك القصة، وإنما الموت، موت هارتموت. يمكن للناس المتمسكين بالمنطق الاعتراض وطرح السؤال: لماذا يجب أن تؤثر علينا وفاة هارتموت؟ نحن لم نكن نعرفه حتى. بالطبع لا يمكنني معارضة رأيهم، وأفكر للحظة -أو اثنتين- فيما إذا كان من المنطقي أن أبدأ باليوم الذي وقف فيه

هارتموت عند بابنا، في صيف عام ١٩٧٥، قبل عامين من وفاته.
نعم، ربما يكون من المنطقي أكثر لفهم النطاق الكامل لهذه القصة، التي ليست قصة عن هارتموت أكثر منها قصة عنا وعن كيلستربرج والأب والأم والابن *والجدة، ولكنها ستظل ظاهرة هامشية فقط*، عائلة طبيعية تمامًا، ولكنها، كما أدرك والداي فقط على مدار الأشهر والسنوات، استقبلت واحدًا من أكثر الناشطين البيئيين ثباتًا في عصره. على عكس عديد من الآخرين -الذين تأثروا بأحداث أخرى حيث سادت سنوات جماعة الجيش الأحمر، وعديد من الاحتجاجات العنيفة، كما انتشرت أيضًا شائعات عن وجود حرب عصابات في المدينة كانت ستسير وفقًا لنموذج أمريكا اللاتينيةـ اتخذ هو غاندي مثلًا أعلى وكان ملتزمًا باللاعنف. من وجهة النظر هذه كنا محظوظين بهارتموت اللاعنفي، وظلت العناوين الرئيسة، مثل *حملة في شارع كيبلر*، و*الشرطة تفكك خلية متطرفة*، و*يدعي أنه منقذ حياة وهو في الحقيقة عضو عصابة* في *صحيفة شفابن*، بعيدة عن والداي.
كانت وفاة هارتموت نقطة تحول بالنسبة لنا جميعًا. ثم تفكك بعد ذلك ما كان وحدة واحدة مِن قبل. أو ربما بعد وفاته لم يعد من الممكن الحفاظ على وهم السعادة العائلية. كانت حقيقة أن الأمر كان من الممكن أن يتطور هكذا أمرًا لا يمكن تجنبه، ولكن على ما يبدو لم يكن من المتاح، ذلك التطور الذي بدأ في أحد أيام شهر أغسطس من عام ١٩٧٥ عندما وقف هارتموت على بابنا.
بالطبع لم يكن متوقعًا أن تتغير حياتنا مع هذا الرجل الغريب. كنت في الثامنة من عمري تقريبًا في ذلك الوقت، وكنت سأجيب أي شخص يسألني وأقول إننا أسرة سعيدة. الأمر الذي سيكون فيه كثير من المبالغة، لأن لا أحد يسأل طفلًا عمره سبع سنوات عما إذا كان يعتقد أنه يعيش في أسرة سعيدة، وذلك لسبب وجيه. طفل في السابعة من عمره لا يهتم بما يشتاق إليه والداه ولا بأفكارهما وما يواجهان من صعوبات. في وقت لاحق فقط أصبح من الواضح لي أننا لم نكن سعداء كما كنت أشعر في ذلك الوقت، وكان ذلك لا يتعلق بي قدر تعلقه بوالدي، وربما بوالدتي أكثر.
في السنة التي انتقل فيها هارتموت للعيش معنا، كانت أمي في الرابعة والثلاثين. كانت قد تزوجت والدي قبل ثماني سنوات. وكنا نعيش في منزل واسع للغاية يتكون من ثلاثة طوابق؛ أربع غرف في الطابق العلوي ومطبخ وغرفة معيشة وغرفة ضيوف في الطابق الأوسط. كانت جدتي قد انتقلت إلى الطابق الأرضي بعد وفاة جدي. نشأت والدتي في منطقة الـ*رور*، وكانت جدتي لأمي -تلك المصابة بالسرطان- كاتبة اختزال *ستينوغرافي*، وكان جدها قد بقي في *روسيا*، كما كانوا يقولون آنذاك. كانت والدتي هي الطفل الوحيد للأسرة، وتخرجت من المدرسة الثانوية وبدأت الدراسة الجامعية.
ولم يتضح إلا لاحقًا أنها وهارتموت قد أمضيا أربعة فصول دراسية معًا في نفس كلية تدريب المعلمين في *يوجينهايم* في شارع *بيرج*، حيث -بحسب

ما كانت تتذكر- لم يلتقيا قط. لأنه حتى ذلك الحين كان يبدو أنه يفضل قضاء وقته في المكتبة ولم يكن في *الجوقة* مثل والدتي ولم يذهب للرقص في عطلة نهاية الأسبوع. التقت والدي في إحدى الحفلات، عندما كان في *فرانكفورت* لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وزيارة صديق، ثم أوصلها إلى مسكنها في سيارته سيتروين دي إس. كان والدي يعلق دائمًا قيمة كبيرة على السيارات الاستثنائية. عندما انتقل هارتموت للعيش لدينا كان والدي لا يزال يقود سيارة دي إس، ولكنه يملك الآن سيارة دي إس ٢١ المزودة بمحرك رباعي الأسطوانات ونظام التعليق الهوائي المائي.
بدا لي في ذلك الوقت وكأنه سحر: بمجرد أن كنا نجلس في السيارة كانت تنطلق كما لو كانت مسحورة، وكان ذلك دائمًا مثيرًا. كان يُسميها La déesse *الإلهة*، وكانت تلك هي السيارة التي قادها الرئيس ديجول في جميع المناسبات الرسمية. عندما التقى والدتي كان والدي قد أنهى دراسته في إدارة الأعمال والتحق بشركة جدي للهندسة المدنية، والتي تولى مهامها قبل ولادتي بفترة قصيرة، وفيها 50 موظفًا، بالإضافة إلى بعض الحفارات والجرافات. وفي العام الذي انتقل فيه هارتموت إلينا أتم والدي عامه الحادي والأربعين وكانت الشركة في حالة جيدة جدًّا. لذلك لم يكن هناك حاجة مالية لتأجير الشقة في الطابق السفلي. لكن أجدادي رأوا بالفعل عملًا جيدًا في منح الطلاب فرصة للحصول على سكن رخيص. كما أظهر ذلك بعض التفتح أن تسمح لشخص لم يكن جزءًا من الأسرة بالعيش معنا. يبدو أن والدي كان ملتزمًا بهذا التقليد. وأعتقد أنه كان يحب دور الراعي الكريم. *بالمناسبة كان طالب يدعى إرهارد إبلر قد عاش في الشقة قبل عدة سنوات. وكما عرفت في ذلك الوقت كان يكتب أطروحة الدكتوراة حول موضوع: *المتمرد واليائس بوصفه بطلًا في المسرح الإليزابيثي*. ويا لسخرية القدر! نفس ذلك الشخص، إبلر، نفسه ذكّر في ما بعد بهارتموت، الذي استأجر الشقة بعده، في مؤتمر الحزب وتحدث عنه كرجل كان قدوة*.

***

كانت الغرفة صغيرة، أصغر من غرفة الأطفال الخاصة بي في الطابق الثاني، لم يكن بها سوى نافذة طولية ضيقة تطل على جانب الشارع، وكانت عالية لدرجة لم تمكني من النظر خلالها. كان هارتموت قد أتم عامه الرابع والأربعين حينما انتقل للسكن عندنا. وكان قبلها بقليل قد بدأ مجددًا في الدراسة وقد سجل نفسه في مجالي علم النفس التربوي وعلم اللغة العام في جامعة *توبنجن*.
كنت واقفًا بجانب أمي حينما قامت بفتح الباب لهذا الرجل الغريب. قال إنه عَلم أن لدينا غرفة قمنا بتأجيرها من قبل، وسأل إذا ما كانت لا تزال متاحة. عندما أحاول اليوم -بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا- استحضار انطباعي الأول عن هارتموت يكون أول ما يخطر ببالي هو صوته، حيث كان عاليًا بشكل غير معتاد بالنسبة لرجل. كان وقعه يشبه إلى حد ما مطربي الفرقة الغنائية والتي

كثيرًا ما كانت تذاع أغانيهم في ذاك الوقت في الراديو وهم: البي جيز.
سألته أمي إذا ما كان بمفرده، وهو ما لم أفهمه على الفور حيث كان جليًّا أنه بمفرده، على الأقل لم أر أحدًا غيره. في وقت لاحق، بعد مغادرته بوقت طويل، قالت لي أمي: *أرجو ألا يكون قد أساء فهمي*. ثم شرحت لي: *كنت أود فقط أن أعرف إذا ما كان ربما لديه زوجة أو طفل؛ لأن الشقة صغيرة جدًّا*.
نزلنا سويًّا إلى الطابق السفلي لنريه الشقة. نظر حوله وأومأ. وعندما سألت أمي إذا ما كانت الغرفة ليست صغيرة للغاية بالنسبة له، قال إنه ليس لديه تطلعات كبيرة. ثم تحدث عن غاندي، ولم أكن أعرف من هو، وظننت أنه صديق، وعندما غادر سألت أمي عما إذا كان الاثنان سيسكنان معًا بالشقة.
في البداية لم تفهم أمي مَن أقصد؛ وعندما قلت لها غاندي والسيد جروندلر ضحكت وأوضحت لي أن غاندي كان هنديًّا وأنه قام بتحرير الهند وعاش طوعًا في فقر، وأنه على ما يبدو قدوة للسيد جروندلر.
بعد سنوات، كتبت أمي مقالًا عن هارتموت نمّ عن إعجابها الكبير به. كتبت: *عاش بكل تواضع، تقريبًا كالرهبان، حياة كتلك التي عاشها المهاتما. لقد سعى بصدق إلى الكمال الروحي، وكان يقوم بتأملات زِن ويوصي بها، وكان يُروض نفسه بانضباط ذاتي على التخلِّي، وعاش بإرادته في فقر، وعاش متفانيًا في واجبه وفي استعداد يقظ لنقد الذات.
وكان يعتمد في الخلاف السياسي، مثل غاندي، على استخدام الوجود كوسيلة ضغط أخيرة، وذلك عبر عدة إضرابات مفتوحة عن الطعام وصولًا إلى تضحيته المشتعلة، تمامًا كما خاطر غاندي في آخر الأمر من خلال حملة الرجل الواحد للصيام حتى الموت. كان احترامه لذاته لا يتسامح مع أي انتهاك لكرامة الإنسان، فقد كان فقدان المصداقية هو الأمر الذي يمكن أن يجلب العار*.
ويمكننا القول، إن هارتموت كان عكس أبي، ومن الناحية الجسدية أيضًا، حيث كان طويل القامة ونحيفًا وله خدان غائران. كان هناك أناس في *توبنغن* أطلقوا عليه *شبح*. أما أبي فقد كان أكثر امتلاءً وعرضًا. فكان يزن أكثر من مئة كجم. وعندما كان يصعد على الميزان كانت تتجاوز الأرقام إبرة المؤشر مهرولة، ٤٠، ٥٠، ٦٠، ٧٠ حتى تقترب من ١٠٠ وتتباطأ وتتوقف في مكان ما بين ١٠٥ و١٠٨. غالبًا ما كنت أسرع خلفه عندما كان يذهب للحمام حيث كنت آمل أن يقف على الميزان وهو ما كان أيضًا يفعله من أجلي. وكنت أقف بجانبه وكنا نخمن سويًّا الرقم الذي سيتوقف عنده المؤشر. كان شيئًا مثل لعبة *كيلو روليت* التي اخترعتها بنفسي. وفي بعض الأحيان كان يحاول أيضًا أن يغالط ويضع ساقًا بجانب الميزان لدعم نفسه وجعلها أخف، وهو ما كنت ألحظه كل مرة.
وبعدها كان يجب عليَّ الوقوف على الميزان، وأتذكر أن أبي غالبًا ما كان يهز رأسه بشكل مبالغ فيه ويقول: *يا فتى، إذا ما استمررت هكذا، فستبدو في وقت ما مثل هذا الجروندلر*.

في اليوم التالي، بعدما دقّ هارتموت جرس الباب لأول مرة، وقف مرة أخرى أمام الباب. هذه المرة كان معه حقيبة سفر، الكثير من صناديق الكتب وآلة كاتبة. لم يحضر معه أكثر من ذلك. كان من الواضح أنه حقيقة لم يكن بحاجة إلى الكثير. في نفس المساء ذهبت أنا ووالدي لزيارته. كانت العطلة الصيفية وكان مسموحًا لي بالبقاء مستيقظًا لوقت أطول. أخذ والدي زجاجة من النبيذ الأحمر في يد واثنين من السيجار في اليد الأخرى وقال: *هيا، لنلقي نظرة على المستأجر الجديد*. نزلنا الدرج إلى الطابق السفلي.
طرق أبي الباب، ثم وقفنا هناك لبعض الوقت وانتظرنا أن يفتح لنا هارتموت. كان موجودًا، وبالتأكيد كان يجلس على آلته الكاتبة، حيث كان صوت الكتابة يُسمع بوضوح. ثم ساد الهدوء، ولكن بدلًا عن الخُطى سمعنا الكتابة مرة أخرى. ما زلت حتى اليوم أربط هذا الصوت بهارتموت.
كان يبدو أنه كان يجلس تقريبًا بشكل دائم على آلته الكاتبة ماركة *ألبينا* طوال فترة تواجده بالغرفة، وكان صوت الكتابة يتوغل إلى بئر السلم. وفي الصيف، عندما كان يفتح نافذته، كان يتوغل إلى الحديقة الأمامية كذلك. خلال السنوات التي قضاها عندنا كتب عددًا لا يحصى من المنشورات التي كانت مكتوبة حتى الحواف وبالكاد مقروءة، حيث كانت مليئة بالحروف بكثافة مع ضيق المسافات. قامت أمي بجمع عدة مئات من هذا النوع من الصفحات وحفظتها معًا في أغلفة.
في أول مساء أمام الباب قال والدي: *يبدو أن لديه حاجة كبيرة لإيصال أفكاره*. وهو ما ثبتت صحته بعد ذلك. ثم طرق مرة أخرى. وأخيرًا سمعنا خطى وبعدها بقليل فُتح الباب. قال أبي: *أنت بالتأكيد السيد جروندلر. وددت أنا وهانّو زيارتك والترحيب بك. على كل حال، أنا كورت، المؤجر*. نظر هارتموت إلى أبي وقال: *اسمي جروندلر، لكنك تعلم هذا بالفعل*.
بدا هارتموت صلبًا بعض الشيء في كل ما فعله وكذلك متوترًا كما لو كان مدفوعًا من مهمته ولا ينبغي له ترك لحظة تمر دون الاستفادة منها وأن يتكئ ويسترخي.
وفي هذا الأمر أيضًا كان يختلف تمامًا عن أبي الذي كان يفعل كل شيء بنوع من التباطؤ والأريحية. وكان من أقواله المفضلة: *الرجل العجوز ليس بقطار سريع*، وهذا بالرغم من أنه كان لا يزال في منتصف الأربعين.
لكنه منذ البداية صنع منها مُزحة، فقد كان في كل شيء يفعله يضع صبر أمي -التي كانت أكثر نشاطًا وتوترًا نوعًا ما- على المحك. *هل ستأتي يا كورت؟* كم مرة سمعت فيها هذا السؤال عندما كنت طفلًا! ففي كل فرصة كانت أمي تحث أبي، وكان أبي يجيب دومًا بمقولة القطار أو يستبدلها بعبارة: *أنا في الطريق*، ثم يدع عشر دقائق أخرى تمر.
ربما كانت أمي ممتنة لهارتموت فقد أتى إلى البيت إنسان لم يكتب على نفسه الراحة، والذي كان يمثل لها نموذجًا مضادًّا كلما كان عليها من حين لآخر مقاومة تثاقل أبي. فقد كان هنا شخص ما يحترق مثل الشعلة، ولا يهدأ

دقيقة.
أتذكر حادثة مشتركة لنا في ساحة كرة القدم: كان هارتموت يركض على خط التماس لأعلى ولأسفل، بينما كنت أنا وأبي نقف على حافة الساحة ونأكل سجقًّا مقليًّا. في وقت ما قال أبي: *انظر إلى هذا الجروندلر، إنه مجنون*.
كنت وأبي كثيرًا ما نذهب آنذاك إلى مباريات *تي إس جي توبنجن* *كان الفريق وقتها صاعدًا لتوه إلى دوري فورتيمبيرج للهواة في الدرجة الثانية*.
قالت أمي إنه ينبغي علينا أن نسأل هارتموت إذا ما كان يريد الانضمام إلينا وأنه بالتأكيد سيسعد بذلك. ولقد أتى إلينا بعدها بالفعل، ولكن بدلًا عن متابعة المباراة في هدوء مثل كل الآخرين، ظل يهرول بلا كلل ذهابًا وإيابًا حتى أصبح في نهاية الأمر لاهثًا.
لا أعلم حتى اليوم ما الذي كان يدفعه للقيام بذلك، وإذا لم يكن بمقدوره حقًّا أن يجلس هادئًا أو لربما كان مجنونًا فعلًا كما قيل.
على أي حال، لقد شكلت هذه الواقعة صورتي عن هارتموت. ولقد تسببت حماسته هذه في أنه كان يفتقر إلى الصبر ليتعامل مع الناس. فطريقته في الحديث كانت تحول بينه وبين بناء علاقة وطيدة. فكان دومًا جادًّا، ومتعبًا قليلًا، مجنونًا، أو كما كان يقول بيتر، أحد زملائه في رابطة *العمل حماية الحياة* في ما بعد: لقد كان عمليًّا أكثر من اللازم، وعندما كان يوزع المنشورات في الشارع، كان دومًا ينظر إلى الناس بجدية لدرجة كانت تجعلهم كما لو كانوا يشكلون قوسًا حوله لتجنبه.
في ذلك المساء، عندما زرته أنا وأبي في شقته، لم يعِرني اهتمامًا خاصًّا، وهو ما كان عاديًّا بالنسبة لي. قام أبي بتقديمي له: هذا هو هانّو، ابني. هل تسمح لنا بالدخول يا سيد جروندلر؟ لقد أحضرت معي أيضًا شيئًا لن تستطيع رفضه. ثم رفع يديه وأظهر لهارتموت النبيذ الأحمر والسيجار أمام وجهه. وقال أبي عندما كنا نتبع هارتموت في الطرقة نحو الغرفة: *لقد اتضح لك وجود قواعد صارمة تسري هنا. فالراحة الليلية تبدأ من الثامنة، وغير مسموح بالتدخين نهائيًّا، وبالطبع غير مسموح بالزيارات النسائية كذلك. فلماذا ينبغي أن يكون الأمر عندك هنا في الأسفل أفضل من عندي أعلى؟ أو ما رأيك يا هانّو؟*.
ثم ضحك أبي. كان بمقدوره الضحك عاليًا جدًّا، وأحيانًا كانت عيناه تدمعان في أثناء ذلك.
لم يُبدِ هارتموت أي رد فعل تجاه ذلك، وقام بإزاحة بعض أكوام الورق من على الطاولة وعدة كتب من على الكراسي عوضًا عن ذلك.
كنت أعلم أن طلاب الجامعة يمتلكون كتبًا كثيرة، لكن بهذه الكثرة كما عند هارتموت، لم أر من قبل.
كانت رائحة الورق وحبر الطابعة تفوح من الشقة. كتب، في كل مكان كتب، متراكمة بمحاذاة الحوائط وعلى الأرفف.
وضع أبي زجاجة النبيذ على الطاولة وبجانبها السيجار. قال: نحن بحاجة إلى فتاحة السدادات الفلينية. ولكن هارتموت لم يكن لديه فتاحة ولا مطفأة

سجائر. ولسوء حظ أبي لم يكن هارتموت يدخن ولا يشرب.
نظر إليه أبي، وقد كان وقع ضحكه هذه المرة مختلفًا، تقريبًا كما لو أنه اختنق واضطر للسعال.
ربما لم يكن متأكدًا إذا ما كان هارتموت كان فقط يمزح.
ولكن هارتموت قام في أثناء ذلك بإحضار زجاجة خل تفاح من المطبخ ووضعها على الطاولة. أعتقد أنه لم يطِب لأبي أنه ضحك. وقال: *معذرة، لم أكن أعلم ..*.
لم يقل أكثر من هذا.
في نظر أبي كان يمكن أن يكون هناك سبب واحد وراء استغناء الرجل عن النبيذ والسيجار، ألا وهو أن جروندلر كان مريضًا.
أخذ زجاجة النبيذ من على الطاولة ووضعها على الأرض بجانب كرسيه، وقام بدس السيجار في جيب السروال الخلفي، ثم تخلص منها في ما بعد حيث إنها كانت قد انشطرت نصفين.
ثم طلب من هارتموت كوبًا من ماء الصنبور. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيت أبي يشرب فيها ماء الصنبور، أو بالأحرى يرشفه. كنا نجلس نحن الثلاثة حول الطاولة، وحاول أبي أن يبدأ الحديث مع هارتموت.
سأل أبي: *وماذا تعمل إذًا يا سيد جروندلر؟*.
وأجاب هارتموت: *أكرس نفسي لحماية الحياة*.
فسأله أبي: *وهل يمكن للمرء أن يعيش من هذا العمل؟*.
قال هارتموت: *منه لا، لكن من أجله*.
- *ومم تعيش إذًا؟*.
- *أقوم بتدريس الألمانية كلغة أجنبية*.
- *وكيف تحمي الحياة إذا سمحت لي بالسؤال؟*.
بالطبع فكرت على الفور في الحشرات والحيوانات الأخرى، وتخيلت أن هارتموت ربما لا يقتل الذباب لأنه يود الحفاظ على حياته، وأنه ربما أيضًا لا يصطاد النحل الطنان ولا يحبسه في كوب ويتركه يختنق. ولعله كان يساعد حتى الضفادع في عبور الطريق. لقد سمعت عن هذا من قبل، فأبي كان يحكي لي عن أناس من هذا القبيل لديهم على ما يبدو سعة من الوقت.
لا أدري ماذا كان تصور أبي عن *حماية الحياة*، ولكن بالتأكيد لم يكن هذا الشيء الذي بدأ هارتموت بالحديث عنه. واستطعتُ أنا فهمه، حيث إنني كنت قد عثرت في مجموعة أمي على منشور يشرح فيه هارتموت حماية الحياة:
حماية الحياة هي، كما يوحي الاسم، من الألف إلى الياء موضع خلافات: خلافات حول الأهداف، والأدوار، والمصالح. والجبهات لا تسير بين الشعوب، والطبقات، والأفراد، بل تتخلل الشعوب، والطبقات، والأفراد. فكل لوحات الأبيض والأسود للرأسماليين، والفاشيين والماركسيين لم تراع تنوع الواقع.
ولكن *حماية الحياة* عليها الكفاح من أجل العدالة. والمرء يستحق فقط أن يكون إنسانًا عندما يرى بداخله إنسانين: ذي الأنانية الساذجة، وهو الإنسان

رقم ١، وذي الضمير والمسؤولية، وهو الإنسان رقم ٢. ويفرق العمل اللاعنفي إذًا بين الفعل والفاعل، ويسمي الكذب كذبًا، والقتل قتلًا، ولكنه يحرص على عدم مساواة الفاعل بإنسانه رقم ١ وإطلاق كاذب أو قاتل عليه، كما لو لم يكن بعد الكذب والقتل يوجد شيء يتبقى بداخل الجاني لا يمكن تحطيمه، والذي قد يتغلب على الكذب والقتل بعد ذلك. ويرى العمل اللاعنفي في خصم اليوم حليف الغد. وهو لا يُقهر ومستعد للتصالح كذلك. فهو يتكلم عن الخصم وليس العدو، ويمنحه المساواة ونفس الحق في الوجود*.

لقد استغرق شرحه في ذلك المساء وقتًا أطول بكثير، ولقد ندمت بالفعل على عدم البقاء في غرفتي لكي ألعب بمضمار سباق السيارات ماركة *العجلات الساخنة*، التي أهداها لي أبي، كان مضمارًا بقضبان برتقالية يمكن تركيبها ببعضها ببعض، ومعه عداد لفات أتوماتيكي. لا أدري كم عدد اللفات التي كان يمكن أن أدع السيارات تقوم بها في أثناء حديث هارتموت عن *حماية الحياة*، ولكن بكل تأكيد كان سيتخطى المئة لفة.

في وقت ما، عندما أنهى هارتموت حديثه، قال أبي: *نعم أفهم، إنسان رقم ١ وإنسان رقم ٢*، ونظر في ساعته.

يجب أن أقول إن الإنسان رقم ١ يود البقاء أكثر، ولكن الإنسان رقم ٢ يخبرني بأنه علينا الصعود لأعلى مرة أخرى، فهانّو يجب أن يتهيأ للذهاب إلى الفراش. ومنذ ذلك الحين جعل أبي من الحديث عن الإنسان رقم ١ والإنسان رقم ٢ مزحة له.

في أثناء الإفطار في صباح اليوم التالي وضع ثلاث قطع من الخبز بعضها فوق بعض وبينها عدة شرائح من لحم الخنزير المدخن وقال: *الإنسان رقم ٢ يعلم كم هو مهم أن يحرص على قوامه، ولكن لحسن الحظ يجلس الآن الإنسان رقم ١ على المائدة*. لم يكن لدى أمي بالطبع أي فكرة عما يقوله. وكنت أنا الشخص الذي يوضح لها لاحقًا الذي شرحه لنا الساكن الجديد: *كل واحد منا ينقسم إلى شخصين*، أما لماذا كان الأمر هكذا وما الذي يفرقهما بعضهما عن بعض، هذا ما لم أفهمه.

ولكن أمي لم تجد هذا الأمر شيقًا هكذا، وبدلًا عن ذلك سألتني إذا ما كنت أشعر أن الساكن الجديد مريض. وأخبرتها بما قاله أبي، إنه يبدو كجدي عندما عاد من الجبهة. وأنه لا يوجد رجل يبدو هكذا طواعية. نحيف بهذا الشكل. وأن الجزء الذي ينبغي أن يكون أبيض اللون في العين، لونه أصفر عند هارتموت، كما أن بشرته أيضًا كانت أكثر اصفرارًا مقارنةً بباقي البشر، وهو ما لا يسمح طبقًا لأبي سوى باحتمالين: إما أحد أمراض الكبد، أو يكون أحد أسلافه ينحدر من الصين، ولكن بما أنه لا يبدو مثل الصينيين، فلا يمكن سوى أن يكون مريضًا.

عندما عدت من المدرسة، كانت أمي تجلس عند طاولة المطبخ، وكان موضوعًا أمامها مرجعنا الطبي السميك ومفتوحًا على حرف الألف مثل التهاب الكبد. وهو الكتاب نفسه الذي وجدته في حجرة مكتبها، عندما أخليت

شقتها، وهو الآن موضوع في الرف المجاور لمكتبي ومعه كل المستندات الأخرى. وتم الحديث فيه عن نوعين من التهاب الكبد، وهما *أ* و*ب*. حاولنا وقتها سويًّا أن نستشف أيًّا منهما ينطبق على هارتموت. أما فيروس *أ* فهو ينتقل في الأساس عبر الطعام والبراز الملوث، كنتيجة لقلة النظافة. أيبدو هارتموت كإنسان لا يستحم؟ كلا. هذا لا يتماشى مع هارتموت. على العكس. فهو يحرص جدًّا دائمًا على أن يبدو مهندمًا. إذًا تم استبعاد الاحتمال *أ*.
أما *ب* فينتقل عبر الحقن الملوثة بدم مصاب. تخطت أمي المكتوب عن *ب*. فحسب إدراكها كان مظهر مدمني الهيروين الذين كانوا آنذاك يظهرون بكثرة في نشرات الأخبار مختلفًا. وبنظرة إلى الوراء، فإن تصور أن هارتموت كان يتعاطى الهيروين عبر الحقن غير معقول تمامًا أيضًا. مثل كما لو أصبح رولاند مال هدافًا للدوري. *في ثماني وأربعين مباراة لدوري الدرجة الأولى سجل بالضبط عدد صفر من الأهداف لفريق فاو إف بي شتوتجارت*.
هارتموت بالتحديد الذي لا يشرب ولا يدخن ويعيش على اللبن الرائب قليل الدسم والماء المفضلين إليه.
وفي مراجع أحدث تمت الإشارة تحت *ب* إلى الحيوانات المنوية كطريقة لانتقال العدوى أيضًا، وأن التهاب الكبد الوبائي *ب* شائع ليس فقط ولكن بشكل خاص بين الرجال المثليين. لا أعلم إذا ما كانت أمي حينها قد اهتمت جديًّا بمسألة إذا ما كان هارتموت مثليًّا، ولكني أتذكر أنها قد سألتني في وقت ما إذا ما كنت قد رأيته مع امرأة. ولكني لم أرَ امرأة عنده، فقط رجالاً.
أحيانًا، عندما كنت ألعب في الحديقة وألقي نظرة خاطفة عبر النافذة إلى داخل شقة الطابق السفلي، كان يجلس فيها رجال حول الطاولة، وأمامهم أكوام من الورق والأظرف. ولكن على أبعد تقدير عندما وجدت الخطابات التي تبادلها هارتموت وبيترا كيلي، كانت قد حسمت الأمر بأنه لم يكن مثليًّا.
في المساء غادرت أمي المطبخ وفي يديها حلة ممتلئة بحساء الدجاج. وهو شيء معتاد، حيث كثيرًا ما كانت أمي تقوم بالطهي لجدتي معها، وعلى الأخص أنواع الحساء المختلفة. أسرعتُ وراءها وقلت إنني أريد إحضار الحساء إلى الجدة. كنت أحب القيام بذلك لأن جدتي كانت تدس لي عُملة معدنية من آن لآخر في يدي، وذلك عندما يقوم حفيدها الطيب بوب ـكما كانت تطلق عليَّ- بإحضار الطعام لها. قالت أمي: *هذا ليس للجدة*. ثم غادرت الشقة. ما زلت أتذكر أنني وأبي نظرنا بعضنا لبعض، لأننا نحن الاثنان كنا نحزر إلى من ستقدم أمي الشوربة.
قلت: *ربما للرجل الذي في الطابق السفلي*. وقال أبي: *نعم، على الأرجح*.
لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى عادت أمي. كنت وأبي نجلس أمام التلفاز منذ فترة طويلة. وعندما جلست أمي في وقت ما في كرسيها ذي المسندين وقامت بفتح الكتاب الذي كان موجودًا على المقعد بجانب الكرسي، سألها أبي عما فعلته طوال هذه المدة في الأسفل، فقالت: *لقد شرح لي كل ما يتعلق بحماية الحياة*.

قال أبي: *لقد كان الأمر شيقًا حقًّا*. ونغزني في الجانب. *وهانو كان متحمسًا جدًّا، أليس كذلك؟*.
قالت أمي: *نعم. هذا صحيح. إنها أفكار مثيرة للاهتمام، تلك التي لديه*. ثم انغمست في قراءة كتابها.
على عكس أبي كانت أمي تقضي وقتًا طويلًا في القراءة. كانت تحب كريستا فولف وقصائد باول سيلان. فعندما كان يسود الهدوء البيت، كنت أعلم أن أمي تجلس في كرسيها *الفوتيه* المخصص للقراءة وتقرأ. وعندما كنت آتي إلى الغرفة، كانت تحتاج للحظة حتى تدرك وجودي، كما لو كانت استيقظت للتو وعليها التأقلم أولًا قبل أن تنظر لي وتسألني كم الساعة وإذا ما كنت جوعانَ.
وكان يوجد في غرفة المعيشة حائط من الأرفف مليئ بالكتب التي كانت في الغالب تخص أمي باستثناء ركن صغير في الرف السفلي الذي قامت بوضع بعض كتب أبي فيه. كان به عدد من روايات كونساليك، وكذلك أيضًا دليل المستخدم لجهازه ماركة *تيلفونكن*، ومشغل الصوت ماركة *أكوستا هيف ٢٥٠* وأجهزته التقنية الأخرى. كانت أمي تود لو تبادلت الحديث مع أبي حول الكتب التي قرأتها، ولكن أبي لم يكن ممن يقرؤون بكثرة في وقت فراغهم أو ممن ينغمسون في التأملات الفلسفية.
ولربما لهذا السبب أيضًا كانت سعيدة جدًّا بالمستأجر الجديد. فأخيرًا أصبح لديها شخص تستطيع الحديث معه عن الكتب والأفكار ولا يرفضها مثل أبي، الذي يعتبرها أوهامًا مغلوطة لكُتّاب، وكان يتساءل لماذا ينبغي للمرء التفكير في أناس لا يعيشون سوى في الكتب وغير موجودين في الواقع.
وكنت أنا أيضًا أحب قضاء وقتي أمام التلفاز أكثر من قراءة الكتب. كنت أتابع مسلسل *دي فالتونز*، وكنت أحب الكونغوفو -ذلك المسلسل الذي ينتقل فيه لاعب كونغوفو إلى الغرب المتوحش في رحلة للبحث عن أخيه غير الشقيق- وكنت أشاهد مع أبي المسلسل البوليسي شوارع سان فرانسيسكو، والبرنامج الأسبوعي *ثلاثة ضرب تسعة* للمحاور التليفزيوني تيم تولكه مع الشخصيات الكرتونية فوم وفينديلين.
ما زلت أتذكر جيدًا ذلك المساء الذي قام فيه الساحر أور جيلر بفضل قوة أفكاره وحدها بثني الشوك والسكاكين مما تسبب في حدوث مشكلة كبيرة بعدها وذلك لأن المشاهدين قاموا برفع دعوى قضائية ضد قناة *تست دي إف* التليفزيونية. في ذلك المساء أيضًا أسرعت إلى المطبخ للتحقق ولكن قواه لم تصلني. لقد حاولت ذلك بعدها مرارًا وتكرارًا عن طريق النظر إلى إحدى الشوكات والتركيز عليها إلى أن تومض أمام عيني، ثم أردد في ذهني: *انحني، انحني!* ثم أتوقف عن ذلك في خيبة أمل. في بعض الأحيان، كانت أمي تشاهد التلفاز معنا، ولكن هذا الأمر كان بالأحرى يثير أعصابي، لأنه كان يتعين عليَّ في كل مرة أن أشرح لها من كان من وعلام يدور الأمر. كانت تتابع فقط الأخبار بشغف حقيقي.

***

مرت بضعة أيام على قضاء تلك الأمسية المشتركة في القبو، حتى قابلنا أنا ووالدي هارتموت مرة أخرى، كان ذلك بعد الظهيرة، وكنا قد تركنا المنزل للتو. كنا نريد أنا ووالدي أن نشاهد مباراة لفريق *تي إس جي توبنجين*. كنا لا نزال في العطلة الدراسية، وتفرغ والدي من عمله بعد الظهيرة. كان هارتموت يحمل حقيبة مستندات بنية اللون تحت ذراعه، ما زلت أتذكرها جيدًا، لأنه كان يحملها معه معظم الوقت، حتى في ما بعد، عندما كنا نرافقه أنا وأمي.

على الرغم من امتلاك هارتموت لسيارة فولكس قديمة من نوع الخنفساء، إلا أنه كان في العادة يستخدم دراجته، التي كانت تستند إلى حائط منزلنا، عندما يكون بالمنزل. *تلك الدقة الشديدة، والاهتمام بالتفاصيل التي تعاملت بهما أمي في كل ما يخص حياة هارتموت لتعيد تجسيدها كما كانت، لم تتوقف حتى عند سيارته الخنفساء. فأجد في أرشيفها ملاحظات تفصيلية: *٢٧/ ٧/ ٧٣ تبديل نظام الحقن لدى فينا، الكائن في شارع رويتلنجر رقم ٤٦* أو *١٨/ ٣/ ٧٤ عطل في ناقل الحركة، عند قراءة عداد ١٤.٥٩٠* أو *9/ 4/ 74 هارتموت جروندلر قدم لشركة فولكسفاجن مقترحًا لتعديل *غطاء صندوق الأمتعة*، وكمكافأة، طلب منحة لبعض الكتب المتخصصة، أو رحلة إلى كامبريدج *لحضور مؤتمر الجامعة* في مايو من عام 1974**.

وبحسب ما أتذكر، كان هارتموت يهم بركوب دراجته، عندما قام والدي بسؤاله: *إلى أين تتجه، يا سيد جروندلر؟*، وأجاب هارتموت، أن عليه أن يتوجه إلى مكتبة الجامعة. قال له أبي، الذي يمكنه أن يبدو حازمًا تمامًا: *إذًا فلتترك الدراجة، سنقوم أنا وهانو باصطحابك إلى هناك*. كان حزم أبي يرجع إلى هذه اللمحة الجادة في صوته المبتهج عادة، ومن ناحية أخرى كان حزمه يرجع إلى مكانته المرموقة. ربما لم يكن هارتموت يريد أن يقف أمام أبي مرة أخرى في صورة الهادم للذات، بعد موقف النبيذ والسيجار.

لهذا قام بإعادة دراجته مرة أخرى إلى مكانها بجوار حائط المنزل، وتبعنا إلى المرأب. وفي الوقت الذي كان يفتح فيه البوابة سأل: *هل ركبتم من قبل في DS؟* هز هارتموت رأسه نافيًا، وأعتقد أنه لم يكن يعلم في الأصل ما هو DS. وبعدما أخرج والدي السيارة من المرأب، ركبنا في السيارة، أنا في الخلف، وهارتموت في الأمام. وكان هو الوحيد الذي مد يده ليسحب حزام الأمان وكان يريد أن يربطه. قال والدي: *إنك تتصرف تمامًا مثل زوجتي*. وكان هذا هو الواقع، كانت أمي دائمًا ما تربط حزام الأمان، على الرغم من أن والدي قد شرح لها أكثر من مرة، أنها بوضعها الحزام تضع نفسها في خطر، وسرد عليها قصص سيارات انقلبت، وكان الشخص الوحيد الذي لم يمكن إنقاذه منها هو الشخص الجالس إلى جوار السائق لأنه كان مربوطًا إلى كرسيه بحزام الأمان. إلا أن أمي كان أهون عليها أن تقع في الخطر، من أن تركب السيارة إلى جوار أبي دون حزام أمان.

كما أنني ما زلت أتذكر جيدًا، مدى انزعاج والدي عندما أقروا قانونًا يوجِب ارتداء حزام الأمان على من يركب في الكراسي الأمامية في السيارات عام ١٩٧٦. ليس فقط لأنه يرى فيه خطرًا، بل لأنه لم يكن يريد أن يُملي أحد عليه ما يفعله في سيارته، لأن السيارة تعتبر ملكية خاصة مثلها مثل المنزل، ولا يستطيع أحد أن يملي عليه أيضًا كيف عليه أن يجلس إلى مائدة المطبخ. قاوم أبي ارتداء حزام الأمان؛ فقد رفض طيلة حياته أن يقود سيارته وهو مربوط بحزام الأمان. لا أعرف ما إذا كان ذلك هو حظه السعيد أو السيئ عندما انحرفت سيارته عن الشارع في وقت لاحق. على أي حال، ارتكب هارتموت خطأً عندما كان أول شيء يفعله هو التقاط الحزام في السيارة، لأنه أعطى والدي سببًا للسخرية منه.

عندما انعطفنا في الشارع، وكما حكى أبي لأمي في ما بعد: عندما أعطى أبي لهذا الـ*جروندلر* الإحساس بأنه يزيد من سرعته، فما كان من هارتموت إلا وأن أمسك بمقبض الباب بيده اليمنى. كان أبي فخورًا بسيارته الـ*Déesee*: 2175 سم^{3}، لها خمس نقلات، ١٠٠ حصان و٥٥٠٠ دورة في الدقيقة. تصل إلى سرعة المئة خلال ١٥ ثانية. وعرض أبي على هارتموت، أن يقوم بتجربتها على الطريق السريع. وغمز لي في المرآة العاكسة. قائلًا لهارتموت *والآن عض على أناملك*، وقام بالضغط على دواسة البنزين. وجدت أنه من الممتع أن نقوم بالقيادة بسرعة كبيرة على الطريق السريع، بينما نمر بالمناظر الطبيعية تمامًا كما لو كنا نشاهد صور عطلتنا بسرعة عندما ينقر والدي على لفائف جهاز العرض ليعرض الصور بشكل أسرع. طالما كنت أشعر بالأمان وأنا في المقعد الخلفي، على الرغم من عدم وجود أحزمة أمان في ذلك الوقت.

ولم تكن فكرة احتمال تحول مثل هذه الرحلة بالسيارة إلى رحلة موت، تسترعي انتباهي. ربما كان هذا لأنني كنت أشعر بالخوف فقط عندما كانت تتولى والدتي القيادة، لأنها كانت عادة تنحرف إلى الحارة اليمنى من الطريق، ولكن هذا الشعور لم ينتابني مع والدي، الذي كان ينظر إلى سائقي يوم الأحد -تعبير يطلق على من يقود سيارته ببطء شديد- بازدراء في المرآة.

أخذنا أحد المخارج التالية وأخذنا طريق العودة إلى المدينة. لم ينبس هارتموت طوال الطريق ببنت شفة. وفي وقت ما نظر والدي إليه وسأله: *سيد جروندلر، هل تشعر بالتعب؟ فأنت تبدو شاحبًا للغاية*. أعتقد أنها كانت المرة الوحيدة التي لم يستطع فيها هارتموت التحدث. ولم يرق الأمر لوالدي، وظل بعدها لسنوات طويلة يعير والدتي بما حدث، خاصة عندما كانت تبدأ في سرد الأفعال العظيمة التي قام بها هارتموت أو الأفكار التي آمن بها. *كان يجب عليك رؤيته، هذا الـ *جروندلر*، في ذلك الوقت في السيارة، عندما كان يجلس شاحبًا، وغائصًا في المقعد، ولم يصدر أي صوت!*.

****

تمنيت عدة مرات أن أكون في جوهري مثل والدي، أكثر حيوية، وأكثر سهولة.

كما لو كان من الممكن أن ترث شخصية محصنة ضد الظروف الخارجية والتأثيرات، شخصًا يناور خلال هذه الحياة دون ضرر كبير. كم تمنيت أن يكون الأمر بهذه البساطة! إلا أن الحقيقة تكمن في كون الأمر تبادلًا للأدوار بين التصرفات الموروثة والخبرات، مثل تنس الطاولة. ماذا قرأت مؤخرًا؟ أي شخص يميل إلى الاختلاط بسبب جيناته الموروثة، سوف يقوم بتنمية تلك الميول في أثناء الاحتفالات وستتشكل حياته بناء على ذلك، أما من يحمل بداخله ميولًا للعزلة، فسيميل للانسحاب ويعمق نمط حياته طبقًا لتلك الطريقة. وفي الوقت نفسه، فإن التجربة تؤثر على الجينات وتسبب تغيرات بيولوجية في الدماغ.

ألا يحدث هذا كثيرًا، أن المحب للحياة يستخدم حبه للحياة أحيانًا كنوع من أنواع التمويه؟ عندما أفكر في حياة والدي، لا أعتقد أنه يمكنني تجنب هذا الانطباع. خاصة أنني كنت لا أرى وفاته نتيجة حادث، بل كنت أراها كنقطة أخيرة من الخط الذي بدأ من اليوم الذي انتقل فيه هارتموت للعيش معنا، حتى لو لم يكن في استطاعة أحد الأطراف توقع أن يسير الأمر على هذا النحو آنذاك.

هناك صورة يستند فيها والدي إلى رفرف سيارته. عرضتها مؤخرًا على صديقة، أنا شخصيًّا لم أر الصورة لفترة طويلة وفوجئت كيف بدا والدي سمينًا فيها، لم يكن بهذا الحجم في ذاكرتي. حاولت صديقتي أن تكتشف أي وجه للشبه بيني وبينه. كانت تبحث فقط عن تشابه بين وجهي ووجهه، حيث إنه كان لا وجه للمقارنة بين جسمه وجسمي النحيف نسبيًّا *حتى إن رفع الأثقال لم يكن ليغير شيئًا في ذلك*. التقطت الصورة وتبادلت النظر بين الصورة وبيني. قالت: *بالتأكيد ليس الأنف، فأنف والدك أوسع كثيرًا وأكثر استدارة، أما أنفك فهو حاد. وأيضًا ليست الشفاه. على الأرجح أن لك نفس تلك العينين الحزينتين*. فاجأني ذلك، لأنني لم يخطر ببالي أبدًا أن تشبه عيناي عيني أبي. سألتها: *هل تعتقدين ذلك؟*. قالت: *ألم تلاحظ هذا من قبل؟*.

أعطتني الصورة، فنظرت إلى والدي. لم يكن رجلًا وسيمًا، لا يمكن قول ذلك حقًّا، لكنه بدا راضيًا عن نفسه، هادئًا في نفسه، مرحًا وربما يرجع السبب في هذا إلى خطوط الابتسامة المنحوتة على وجهه. أو ربما أيضًا كان يرجع هذا إلى الطريقة التي كان يقف بها هناك، وإحدى ركبتيه مرفوعة قليلًا، كان يجب أن تبدو الصورة غير رسمية وبدا أنها كانت مقيدة؛ لأنه كان خائفًا -على الأرجح- من أن يتسبب وزنه بانبعاج صاج سيارته الـ دي إس.

كنت دائمًا أرى الفرح فقط في عينيه، إلا أن صديقتي استطاعت أن تكتشف الحزن الكامن خلف هذه الواجهة في عينيه. وكانت محقة، على الأقل في ما يخص تلك الصورة. نظرت إلى عينيه وغضضت النظر عن كل شيء آخر، بدت عيناه قاتمتين، ومن الممكن أن يرى المرء شكلًا معينًا للحزن، وكلما طالت مدة تركيزي على عينيه، بدا كل شيء آخر كما لو كان وضعية مؤقتة من أجل التصوير، وبدا كما لو كان يتظاهر بالمرح.

التقطت ألبوم الصور الذي يقف منذ سنوات بين عدد قليل من الكتب المصورة بالمكتبة وهو الآن موضوع على الأرض بجوار مكتبي، إلى جانب نصف الملفات التي أخذتها من شقة والدتي. كل شيء جمعته والدتي عن هارتموت كان موجودًا في تلك المجلدات، الرسائل، والمقالات، والمنشورات، والرسوم التذكارية، فقد قامت بحفظ كل شيء بترتيب زمني. أردت أن أعرف متى تم التقاط الصورة فأخرجتها من الألبوم أملًا في العثور على ملاحظة تحمل تاريخ التقاط الصورة على ظهرها. لكن لم يوجد شيء هناك. الطريق الوحيد لمعرفة تاريخ الصورة هو السيارة، لكنني لم أكن أعرف ما يكفي لتمييز موديلات دي إس المختلفة.

في الواقع، أردت فقط أن أعرف ما إذا كانت تلك الصورة ترجع إلى عصر ما قبل أو ما بعد هارتموت.

فقد قسمت والدتي حياتنا إلى مرحلتين، قبل وبعد، وفي بعض الوثائق قامت بوضع علامة عليها بـ*قبل هار*. و*بعد هار*. إذا فكرت في الأمر على هذا النحو، فقد سقطت حقبة زمنية ثالثة هنا، وربما كانت تلك الحقبة هي الأكثر تأثيرًا، وهي حقبة في أثناء وجود هارتموت في حياتنا، وأعتقد أن هذه الصورة ربما تنتمي إلى تلك الحقبة في أثناء وجود هارتموت وتسبق قليلًا حقبة ما بعد هارتموت. لأنه كان من الواضح في الصورة أنه لم يعد من الممكن إنقاذ زواج والديّ.

عندما كنت طفلًا، لم أسأل نفسي عن رأي والدتي في والدي والعكس بالعكس. الآباء ببساطة ينتمون بعضهما لبعض. كان الأب والأم كما كانا. لم يخطر ببالي قط أنه قد يكون هناك شيء يزعج أمي بشأن والدي. عندما سألت نفسي في ما بعد لماذا اختار والداي بعضهما بعضًا، توصلت إلى أسباب مختلفة. فقد كانت الأسباب التي أعجبت والدي بوالدتي واضحة: لقد كانت جذابة جدًّا كفتاة شابة وحققت أداءً جيدًا إلى جانبه *ليس فقط عندما كانا يجلسان في سيارته*. بفضل والدتي أصبح يرقص بحيوية، على الرغم من أن والدي، كما قالت والدتي ذات مرة، لم يكن لديه براعة في الإحساس بالإيقاع، وكان يتحرك مثل وحيد القرن في أثناء الرقص. كانت والدتي أقصر من والدي بما يعادل رأسين. وكانت تولي اهتمامًا كبيرًا لوزنها، واتخذت من حمية *بريجيت* التي ظهرت في عام ١٩٦٩ إلهامًا لأول نظام تنحيف اتبعته. لقد أرتني ذات مرة بفخر صورًا من ذلك العام: والدتي مرتدية تنورة قصيرة، وكانت تبدو جميلة جدًّا. لم يكن من المسموح أن تتناول أكثر من ألف سعر حراري في اليوم. وهو ما يقابل على الأرجح الكمية التي يتناولها والدي بمفرده من لحم الخنزير المشوي في أثناء تناول وجبة واحدة، هذا إن وجد لحم خنزير مشوي، لأن وجوده أصبح نادرًا بعد انتقال هارتموت للعيش لدينا. لذلك كان السؤال: لماذا اختارت والدتي والدي؟ لم تكن أمور عائلة والدتي تبدو جيدة مقارنة بعائلة والدي. أتذكر والدتي وهي تحكي لي عن سنوات من الجوع، بعد الحرب، وحكت كذلك عن خبز الذرة وبطاقات التموين، وعن

الأوقات التي اشترت فيها جدتي علف دجاج رخيصًا لها ولأمّي.
وفي سن الرابعة عشرة، كان على والدتي أن تعطي دروسًا خصوصية لأنها كانت جيدة جدًّا في المدرسة، وكانت تذهب بدراجتها إلى القرى المحيطة بعد المدرسة لمساعدة الأطفال الآخرين في واجباتهم المدرسية، وكانت تحصل في مقابل ذلك على بضع ماركات، وقبل كل شيء كانت تحصل على شيء تأكله. أعتقد أن الرجل المرح الذي رأته والدتي في والدي هو ما أثار إعجابها به في المقام الأول.
كان يستمتع بالأكل والشرب بشكل خاص. كان لديه قبو كامل مليء بأنواع النبيذ الجيد. وفي خزانة غرفة المعيشة كان يوجد صندوق خاص يحفظ به السيجار الكوبي الشهير من نوع *Cohiba* الخاص به. سافر معي ومع والدتي في إجازة إلى إيطاليا وإسبانيا، وقام ذات مرة، في عام ١٩٧٤، بحجز رحلة بالسفينة عبر الأطلسي لأنه كان يحلم برؤية أفق نيويورك من السفينة منذ أن كان طفلًا. كان والدي كريمًا جدًّا. خاصة مع أمي. وربما كان هذا على الأرجح هو ما أحبته في والدي.
سيكون من الخطأ بالتأكيد إلقاء اللوم كله على هارتموت في ما يخص الخلاف الذي وقع بين والدَيّ. لا بدَّ أنه كانت لدى والدتي احتياجات لم يتم إشباعها بطريقة مرضية، حتى قبل وجود هارتموت، وأدركتها أمي فقط من خلاله. في تصوري، كان عدم الرضا عن علاقة أمي بأبي يتنامى بشكل ملحوظ لدى والدتي. ومن الصعب تحديد متى بدأ هذا التدهور على وجه الدقة. أفتش في ذاكرتي عن الفترة التي سبقت وجود هارتموت.
لا يمكن القول إن والدتي كانت تعيش في ظل والدي، مثل عديد من أمهات أصدقائي في ذلك الوقت، حيث كانت ربات البيوت يتلقين مصروف المنزل بطبيعة الحال من أزواجهن. فعلى الرغم من أن والدتي كانت تطبخ أيضًا وتعتني بالمنزل، لكنها عملت أيضًا كمدرسة في مدرسة أهلية، ولم يعتقد والدي أن هذا ضروري. حيث كان يجلب هو ما يكفي من المال إلى المنزل. كان يقول أحيانًا عندما كانت أمي تجلس إلى طاولة المطبخ في المساء، وتصحح الامتحانات الخاصة بالمدرسة: *لست مضطرة للعمل، إذا كان ذلك عبئًا عليك*.
من الواضح أنه لم يستطع تخيل أنه من المهم بالنسبة لها أن تعمل لكي تحمي استقلاليتها. أو ربما كان هذا على الأخص هو ما لا يريده. أعتقد أن هذا الوقت -الذي تأسس فيه كثير من الحركات النسائية التي تم حشدها ضد قوانين الإجهاض- لم يترك أمي كما كانت عليه من قبل.
في فبراير ١٩٧٥، أصدرت المحكمة الدستورية الاتحادية حكمًا منح أيضًا الحق في السلامة الجسدية للكائن الحي المخلوق داخل الرحم. وعلى عكس والدي، كانت أمي تشغل تفكيرها بقضايا المجتمع، ودور المرأة في ذلك المجتمع، ودورها الخاص في الأسرة. كانت والدتي تهتم بالسياسة حتى في زمن ما قبل هارتموت.

لقد تأثرت بها منذ كانت طالبة بالمدرسة. كانت أمي في المدرسة واحدة من ضمن ثماني فتيات فقط بين مئات الأولاد وكانت هي المتحدثة باسم هؤلاء الفتيات الثماني. في عام ١٩٥٣ قامت بحملة لعرض مناقشة البوندستاج *البرلمان الألماني* حول إعادة التسلح في المسرح المدرسي، لكن المدير رفض.
عندها انتقلت والدتي وعدد قليل من الطلاب الآخرين في مسيرة صامتة إلى أقرب حانة لمتابعة المناقشة على الراديو. استاء المدير من الموضوع على الأخص من والدتي، حيث كانت هي الطالبة المثالية. وكعقاب اضطرت أمي وباقي الفتيات إلى إزالة الحشائش الضارة من أحواض الزهور التي تقع خلف فناء المدرسة. أطلقت أمي على هذا الحدث *تنقية الحشائش من أجل السلام*، إلا أن والدتي وجدت أنه ليس من العدل أن يفلت الأولاد دون عقاب، في الوقت الذي تمت فيه معاقبة الفتيات.
كانت والدتي هي التي تحب الاستماع إلى الراديو ومشاهدة الأخبار على شاشة التليفزيون، وشرحت لي كيف قام الأمريكيون بقصف الأبرياء وقتل الأطفال في عملية في إحدى الدول التي لم تضرهم بأي شيء. كما عارضت كذلك بناء محطة للطاقة النووية في ريدريش، وهي بلدة تبعد عشرين كيلومترًا من توبنجن.
تم تشكيل مبادرة أهلية هناك لمنع البناء، حتى إن والدتي اصطحبتني معها ذات مرة إلى هناك، عندما كان هناك اجتماع على التل في المكان الذي كان من المفترض أن تُنشأ فيه محطة الطاقة النووية. أتذكر أنني شاركت في لعبة القفز بالجوال، بينما وضعت والدتي توقيعها على القوائم واستعلمت في أحد مقار الاستعلام حول أخطار محطة الطاقة المُزمع بناؤها.
أما والدي فلم تكن له علاقة تُذكر بالاحتجاجات، سواء أكانت ضد حرب فيتنام أو الاستهلاك أو الطاقة النووية. عندما اكتشف أنني وأمي كنا في ريدريش، هز رأسه وقال: *مارتا، أنت تخيفين الصبي دون داع. الطاقة النووية آمنة ونظيفة. وبالنسبة له فهي ليست بنصف الخطر الذي يقع عليه وهو جالس في سيارتك وأنت تقودين*.
لم ترد أمي، كما كانت تفعل عادة عندما كان يُعبر والدي عن وجهة نظره. كانت تلتزم الصمت ببساطة. كانت تصمت كذلك، عندما يقول لي: *إن والدتك ساذجة بعض الشيء، ولا تفهم ما وراء الأشياء*، وكنت أومئ برأسي، لأنني لم أكن أعرف ما معنى كلمة ساذج، ولا معنى ما وراء الأشياء أيضًا. الآن فقط، وبعد مضي ٣٧ عامًا، أي في أثناء كتابتي لذكرياتي الآن، أدركت أنه لا بدَّ أن ما كان يقوله قد أساء إليها وجعلها تشعر بالإهانة.
على ما يبدو -وليس من السهل بالنسبة لي أن أكتب هذا- فقد كان والدي يفتقر إلى الحساسية لما قد يضايق والدتي. لم أفهم ذلك عندما كنت طفلًا ولم أستطع فهمه لأنه حدث خارج نطاق تصوري آنذاك. أستطيع أن أتذكر عدة لحظات كان فيها رقيقًا جدًّا، بل لطيفًا بشكل مدهش على عكس طريقته

الخرقاء المعتادة؛ كيف كان يتحسس رقبتها برفق في بعض الأحيان. وعلى متن السفينة التي عبرنا بها عبر المحيط الأطلسي، عانقها من خلال الدرابزين، صورة جميلة بقيت في ذاكرتي، ربما أيضًا لأنها في تلك اللحظة أمالت رأسها على كتفه في حين سحبني أبي لأقف بالقرب منه، وبعد ذلك بوقت قصير وضع ذراعه حول كتفي ونظر ثلاثتنا إلى الأمواج وسمعت والدي يقول كم نحن محظوظون.

ومع ذلك، يبدو أن والدي لم يكن يعرف حقًّا من هي أمي وما الذي كان يدور بداخلها، وعندما بدأ والدي في فهمها تدريجيًّا وهو ما حدث بسبب هارتموت أيضًا، لم يعد في مقدور والدي أن يفهم العالم. ربما كان هارتموت مجرد أداة للإسراع بما حدث أو ربما كان محفزًا أيضًا. كثيرًا ما سألت نفسي عما إذا كان الانفصال سيحدث دون وجود هارتموت أيضًا، لا أعلم. مع ذلك، كنت أتمنى في كثير من الأحيان لو كان هارتموت قد بحث عن غرفة أخرى مع عائلة أخرى، أو ببساطة لم نكن هناك في اليوم الذي دق فيه بابنا، أو أن الجرس لم يعمل، أو أن جدَّيّ لم يبدأ بتأجير الشقة الواقعة في الطابق السفلي. ولكن لسوء الحظ لم يكن الأمر كذلك. وبدلًا عن ذلك، عاش هارتموت تحت سقفنا، وكان من المحتم أن نلتقي به.

***

لم يكد يمر أسبوعان على انتقال هارتموت للعيش معنا، عندما سمعت أنا وأمي صوت طلقة. كانت والدتي على وشك مسح طاولة المطبخ، وكانت على وشك وضع الزبدة في الثلاجة عندما صدر صوت إطلاق النار أمام المنزل، بصوت عالٍ، بما يكفي لسماعه من خلال نوافذ غرفة المعيشة المغلقة ليعبر الصوت الشقة ويصل إلى المطبخ. بدا الأمر حقًّا وكأن طلقة قد أُطلقت، حتى إنني أتذكر ذلك الصوت الآن بعد مضي أكثر من ثلاثين عامًا. وبفضل والدي فإنني لدي بعض التسجيلات الصوتية من ذلك الوقت، فقد كان والدي شديد التعلق بالتكنولوجيا، خاصة عندما يدور الأمر حول الموسيقى. في غرفة المعيشة كان هناك جهاز من طراز *Acusta Hif 250*، وهو وحش ضخم، بنى له والدي لوحًا جانبيًّا خاصًّا به. وفي السيارة كان لديه مسجل كاسيت ماركة *Grundig AC 221*، والذي يمكن استخدامه أيضًا للتسجيل. إذا تحدثت بصوت عالٍ بما فيه الكفاية، فيمكن سماع صوتي حتى وأنا جالس بالمقعد الخلفي.

كنت مفتونًا بذلك. وكنت أذهب أحيانًا إلى المرأب، وأجلس في السيارة وأتحدث جُملًا حمقاء أو أصدر أصواتًا غريبة، فقط من أجل الاستماع إليها في ما بعد. كان والدي يمتلك أيضًا جهاز مكتبي لتشغيل شرائط الكاسيت من ماركة *Uher* به ميكروفون وله بكرتان، قام بشرائه عندما كنت أردد كلماتي الأولى. أراد والدي توثيق تطور لغتي، ولكن يبدو أنه فقد الاهتمام بهذا في مرحلة ما. عندما قمت بجرد محتويات منزل والدتي بعد وفاتها، وجدت مسجل الشرائط مع بعض الأشرطة في صندوق في الطابق السفلي.

وكان الشيء المدهش بالنسبة لي، هو أنها ما زالت تعمل، وسمعت فجأة تسجيلات لأحداث مرت منذ زمن طويل: أطفال يثرثرون، صوت والدي، الذي قال لي كلمات وكان سعيدًا عندما قمت بترديدها، حتى وإن كان ما قلته غير مشابه لما قاله. كان والدي يضحك. سمعته يقول لوالدتي: *قولي أنت أيضًا شيئًا*، وكان يمكن سماع صوتها في الخلفية وهي تقول: *ماذا عليَّ أن أقول؟ * - *أي شيء*.
– *مرحبًا؟ لا أعرف ماذا أقول. لذلك أقول الآن: مرحبا!*. وكان من الممكن سماع الطلقات كذلك على أحد الأشرطة. كنت ألهو في ذلك الصباح بالمسجل في المطبخ. سمعت صوتي، الذي عرفت أنه صوتي، والذي ما كنت لأعرفه لولا معرفتي به حق المعرفة.
سألت: *ماذا كان هذا؟*.
ردت أمي قائلة: *لا أعرف*.
كنت أرى أمي أمامي: وقد فتحت باب الثلاجة بيد وأمسكت الزُّبد باليد الأخرى. ظلت واقفة في هذا الوضع وهي مُنحنية قليلًا.
ظننت أنها طلقة نارية، لأن صوتها بدا كما لو كانت طلقة. على الرغم من أنني لم أكن أعرف الطلقات سوى من التلفاز فقط؛ كان والدي يحب أفلام رُعاة البقر الأمريكية، وكان بين الحين والآخر يسمح لي بمشاهدتها معه، وكانت أمي لا تعتقد أنها مناسبة لصبي صغير، لكن والدي قال إنه مجرد فيلم، وشرح لي في النهاية أن القتلى في الأفلام ليسوا قتلى حقيقيين وأن الدم ليس سوى *كاتشب*.
صعقت، لأنني سمعت صوت طلقة للمرة الأولى لم يكن آتيًا من التلفزيون. وجاءت الطلقة الثانية بعدها بوقت قصير. أغلقت والدتي الثلاجة، ووقفت لوهلة بدا فيها عليها أنها لم تكن تدري ماذا عليها أن تفعل على وجه التحديد، إلا أنها بقيت ممسكة بالزبد بين يديها.
سألت: *هل يطلق أحدهم النار هناك؟*.
قالت وهي تتسلل بحذر من المطبخ: *ابق هنا*.
وقفت في الردهة لفترة قبل أن تفتح باب غرفة المعيشة. وجدت أنه أمر مثير للغاية، ربما لأنني لم أكن أستطيع تخيل كيف تم إطلاق النار على شخص ما في الواقع. تشكلت فكرتي من خلال الكاتشب، وكان الكاتشب هو الطبق المفضل لدي في ذلك الوقت *كان ذلك قبل وقت Waerland-حِمية فيرلاند*، كنت أتناول الكاتشب مع البطاطس، والكاتشب مع أصابع السمك، وحتى السبانخ مع الكاتشب *فقط من أجل والدتي*.
بالطبع، لم أستطع البقاء في المطبخ، في حين كانت والدتي تعايش مغامرة. تسللت خلفها، وتطلعت من وراء الجدار، ثم زحفت خلف الكرسي. اقتربت والدتي من النافذة من أحد الجوانب، بحيث بقيت في حماية الجدار. ثم دفعت الستار جانبًا بيدها الحرة ونظرت للخارج بحرص. كنت قد تسللت بهدوء، لدرجة أنها فزعت عندما وصلت إلى جوارها، وأسقطت الزبد من يدها. عندما

انحنت، اغتنمت الفرصة وتقدمت إلى حافة النافذة لأتمكن من رؤية ما يحدث بالخارج بطريقة أفضل. لا أعرف ما إذا كنت أتوقع حقًّا وجود الهنود الحمر في شارع كيبلر.
رأيت هارتموت فقط. دست أمي نفسها إلى جواري. وقف هارتموت بجانب سيارته من طراز الخنفساء، ونظر حوله، ثم ذهب إلى الخلف وفتح غطاء الموتور. ثم دار مرة واحدة حول السيارة وركب خلف عجلة القيادة. استغرق الأمر بعض الوقت، ليخرج من السيارة مرة أخرى، هذه المرة أغلق الباب بشدة وسار عبر الشارع. كنت ما زلت لا أعرف من أين جاءت الطلقات.
ولكن فجأة هرعت والدتي من غرفة المعيشة، وركضت إلى المدخل، وسمعت الباب يغلق بشدة ونزلت الدرج مسرعة. رأيتها تخطو خارج المنزل وتسير نحو هارتموت. لقد فوجئت أنها لم تعد خائفة وأن هارتموت سار عبر الشارع دون أن يأخذ ساترًا.
تحدثا بعضهما مع بعض، ثم ركضت أمي إلى المنزل، وصعدت الدرج، وأخرجت شيئًا من المنزل وركضت مرة أخرى إلى الأسفل. شاهدتها وهي ترافق هارتموت إلى المرأب. واستغرق الأمر بعض الوقت حتى رأيت سيارتها الرينو تزحف خارجة من المرأب. رأيت هارتموت يكافح محاولًا قيادة السيارة للخلف، كانت الأضواء البيضاء في الخلف تومض عدة مرات لفترة وجيزة ثم رأيت سيارتها تنزلج خارجة من المرأب وتمضي، ثم تنحرف لتدخل شارع هولدرلين ثم تبتعد عن الأنظار.
في المساء حكيت لوالدي عن الطلقات، فضحك، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها عن الخلل الذي يحدث في أثناء محاولة إدارة السيارة.
وسأل والدي: *ثم؟.*
قالت والدتي: *ثم قدمت له سيارتي، كان عليه أن ينصرف بسرعة*.
كان التعليق الوحيد الذي قاله والدي هو: *الـR4 المسكينة*.
في اليوم التالي أعاد هارتموت السيارة. كانت أمي تجلس إلى طاولة المطبخ وتقوم بتحضير دروسها، حيث كان العام الدراسي الجديد سيبدأ في غضون أيام قليلة. فتحت الباب بعد أن كان جرس الباب قد دق. كان هارتموت يقف أمامي وسألني عما إذا كانت والدتي موجودة. استدرت، ولكن قبل أن أقوم بمناداتها، رأيتها تخرج من المطبخ.
سألته قائلة: *ألا تحب أن تتفضل إلى الداخل؟*.
عندما وصلنا إلى المطبخ، قالت أمي: *تفضل بالجلوس* وأشارت إلى طاولة المطبخ.
وضعت والدتي غلاية المياه على الموقد، ثم جلست معنا. نحّت كتاب التمارين وكتاب اللغة الألمانية جانبًا. *حضرتك معلم أيضًا، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح*.
قال هارتموت: *هذا صحيح، أنا مدرس لغة ألمانية، آخر مجموعة قمت

بتدريسها كانت تتألف من طلاب فرنسيين.*
كان هارتموت آنذاك مدرسًا للغة الألمانية كلغة أجنبية في معهد جوته.
- *والآن تبدأ في الدراسة مرة أخرى؟*.
- *نعم*.
- *أي تخصص؟*.
- *اللغويات*.
- *ولماذا اللغويات؟*.
هذا هو التسجيل الصوتي الوحيد الذي أملكه لهارتموت ووالدتي. لا بدَّ أنهما قد لاحظا أنني قمت بتشغيل المسجل، فقد كان موجودًا على طرف الطاولة، ولم يكن بالإمكان تجاهل البكرات التي تدور. لا أعتقد أن والدتي كانت على دراية بأنه تم تخزين وثيقة صوتية لهارتموت وأنها بقيت في البدروم على مر السنين. لو كانت تعرف، لما كانت بقيت هناك بالتأكيد.
بالطبع حاولت استنتاج المزيد من وراء ما قيل بعد ذلك؛ إلا أنه في وقت التسجيل، لم يكن هارتموت قد التقى بوالدتي سوى عدة مرات فقط. وبدا هارتموت في تلك التسجيلات قبل كل شيء، على الحال التي عهدته عليها: صوته رنان، ومرتفع للغاية، وجاد جدًّا. ثم كانت هناك كلمة واحدة في نهاية محادثتهما لاحظتها على الفور عندما سمعتها:
أنا مهتم باللغة؛ فحماية الحياة هي أولًا وقبل كل شيء زيادة الوعي، وذلك يتم بشكل أساسي من خلال اللغة. على حضرتك أن تتخيلي: الشخص يُكَوِّن تجارب جديدة، ومفاجئة جدًّا، وسعيدة، ومفزعة، لكن الكلمات التي تعبر عن كل تجربة هي كلمات قديمة ومألوفة، يمكن أن نقول إنها: عتيقة ومألوفة جدًّا. نحاول أن نصوغ التجربة من خلال كلمات، لجعلها مناسبة للسرد، لكن الكلمات، حتى وإن كانت جديدة، فإنها لا تزال تستخدم مكونات لغوية تقليدية. أليس هذا تناقضًا في حد ذاته؟ أغلب كلمات الوقت الحاضر أو كلها تقريبًا متجذرة في الماضي. فلنأخذ مصطلح السكك الحديدية كمثال. قد يكون التفكير جريئًا جدًّا متطلعًا للمستقبل، أما اللغة فهي مجبرة على التمسك بالماضي: تستند إلى مصطلح الحديد بالإضافة إلى مصطلح السكك. إن تركيبة فسيفساء اللغة تتغير، لكن لبنات البناء تستمر.
لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل. فالعالم يتغير بشكل أسرع من أي وقت مضى، ولم تعد الأرض قرصًا، ولا حتى كرة، بل إنها بيضاوية. لن يمر وقت طويل قبل أن يسكن الإنسان القمر، فهو يمكنه الطيران، وهناك سيارات، وصواريخ، وقنبلة ذرية، فقط اللغة هي التي تبقى. قالت والدتي: *إنها فكرة مثيرة للاهتمام*.
تابع هارتموت قائلًا: *الأحجار من المعطيات المسبقة من الطبيعة، يمكنك أيضًا القول بأنها مواد مهداة من الطبيعة*. *ومواد باللاتينية تعني Material وتحتوي تلك الكلمة بداخلها على كلمة mater، التي تعني في اللاتينية الأم. فالمادة إذًا هدية من الطبيعة الأم. يمكننا نحت الأحجار، وسحقها، وصقلها،

وبناؤها، وتحويلها، كما تظهر طبول الأعمدة القديمة الموجودة في الأسوار البريكليسية للأكروبوليس. ولكن لا يمكن أن يخلقها الإنسان، فهذا الأمر قاصر على الخالق العظيم، الطبيعة*.
هل تقصد أننا نحن البشر نستطيع فقط أن نُشكل الأشياء؟ إذا كان هذا هو المقصود، فسيكون تقدمنا بالكامل ليس سوى عملية إعادة صياغة وتشكيل باستمرار وباستخدام مواد قدمتها لنا الطبيعة؟ يمكننا فقط إنشاء شيء من الموجود بالفعل بفضل الطبيعة الأم. حتى في التفكير. هذا مثير للاهتمام حقًّا.
يمكن حتى سماع، كيف تصب والدتي الشاي في الفناجين.
قال هارتموت: *لكن على حضرتك أن تأخذي في الاعتبار، أن الكلمات يمكنها أن تخدعنا مثلها مثل الحجارة، بحيث لا يمكن التعرف على أصلها، فهناك أحجار حقيقية وأخرى غير حقيقية، مزيفة، ومقلدة، وفي حالة المزيفة، نجد التمثيل الصادق كما نجد غير النزيه، الذي يهدف إلى الغش. علينا أن نميز بين ثلاث طرق للتفكير من خلال ثلاث طرق للتحدث: أولًا: الكلام المعطى من الطبيعة، الموجود مع طبيعة اللغة وبالتالي الموجود مع الإنسان. وثانيًا: الكلام الزائف الذي يصدر دون وعي أو عن غير قصد. ثالثًا: الكلام الزائف المتعمد الصادر بوعي*.
قربت فنجانها من فمها وأخذت رشفة من شاي النعناع الذي تم تحضيره للتو.
ماذا سيكون رد حضرتك إذا سُئلت عما إذا كان الشاي يعجبك؟.
هل تقصدين حضرتك ما إذا كان الرد سيكون صادقًا أم سيكون عن طريق التمثيل غير الصادق؟ الوجود والحقيقة، كما تقول الكلمة السنسكريتية *ساتيا*، هما الشيء وذاته. يبدأ التدمير والتدمير الذاتي بالكذب، الذي يضر بالحقيقة، كما تستشرف مفردات اللغة الألمانية هذا المعنى. إن التغلب على العنف والتغلب على الكذب شيء واحد. لذلك فإن جوهر العمل الخالي من العنف يكمن في حب الحقيقة والولاء لها. وأنا أشعر بالتزام عميق تجاهها. سأقول: إن الشاي مائي للغاية. إنها مياه مغلية أكثر من كونها شايًا*.
قالت أمي: *أنت على حق*، كانت *أنت* هذه هي ما لاحظته أنا على الفور. لا بدَّ أنها كانت المرة الأولى التي تتبسط فيها أمي في الحديث وتقول *أنت* لهارتموت بدلًا عن *حضرتك*.
في الأسابيع التالية بدأت والدتي بإعداد الطعام لهارتموت معنا. كنا ننتظر عادة أن يأكل والدي معنا. والذي كان أول شيء يفعله عندما يصل إلى مطبخنا، هو الذهاب إلى الموقد، ورفع الغطاء عن الأواني ويحاول أن يجلب رائحة الطعام بيده ناحية أنفه. والدي لم يفكر قط في شكله، كان حب الطعام أهم من ذلك بالنسبة له. وفي عينيه، كل رجل يزن أقل من مئة كيلوجرام، لم يكن رجلًا، بل نصف رجل.
قال: *كما أرى، أنت تهتمين بنا بشكل مميز مرة أخرى*. عانق أمي من الخلف وأعطاها قبلة على رقبتها. لكن عندما جلسنا إلى المائدة والتقط

والدي الملعقة مرة أخرى لأخذ المزيد من الملفوف الأحمر، قالت أمي: *كورت، هذا يكفي. اترك شيئًا يتبقى*.
سألها قائلًا: *تقصدين لوقت لاحق؟*.
قالت *لا، لهارتموت*.
- *هارتموت؟*.
- *مستأجرنا*.
وضع والدي الشوكة جانبًا، وقال: *لم أكن أعرف أنك أصبحت تنادينه بأنت، وأنك تقومين بالطهو له معنا*.
قالت والدتي: *لقد قلت بنفسك إنه نحيف للغاية ولا بدَّ أنه مريض. وعندما أكون بالفعل أطهو، يمكنني أن أطهو المزيد. لا يتطلب هذا مزيدًا من الجهد*.
عندما انتهينا وكانت والدتي قد قامت بتنظيف الطاولة، ذهبت لهارتموت لتعطيه طعامه -والذي لم يكن لديه أي وجه للاعتراض في البداية على لحم الخنزير واللحم بشكل عام- أصبح الأمر صعبًا بالنسبة لوالدي عندما أصبح يجد قدرًا أقل من اللحم على طبقه بمرور الوقت. لم يختف كلية بين عشية وضحاها، ولكن بدا أنه يتقلص ويتغير من يوم لآخر أمام أعيننا. أصبح هناك مرات أقل نحصل فيها على اللحم المحمر، وفي المقابل ازدادت مرات شرائح الديك الرومي البانيه، وبدلًا عن اللحم المفروم بدأنا نحصل في وقت ما على مزيد من الخضراوات.
قالت والدتي إنها أكثر صحة من اللحوم، كما بدأت في تقديم البقوليات بشكل متزايد وهو ما لم أستطع تحمله. أتذكر جيدًا كيف جلس والدي إلى الطاولة ذات مساء، أعتقد أن هذا حدث بعد مضي عام على انتقال هارتموت للعيش لدينا، ووضع حبة فول خضراء في كل أذن. وجدت أن هذا مضحك، ووضعت الفول في أذني مثله. في وقت لاحق، عرفت أن هذا ربما كان أول احتجاج في حياتي. إلا أن هذا الاحتجاج لم يؤد -لسوء الحظ- إلى أي شيء. لقد كنا تحت أمر أمي، لأنه لا والدي ولا أنا يمكننا الطهي، وبمعنى آخر فإن والدي لم ير أنها وظيفته.
وصلت قصة الطعام إلى ذروتها -أو أعمق نقطة- عندما وجدنا ذات يوم طاولة مجهزة وأطباقًا فارغة وشوكًا وسكاكين وأكوابًا وأواني على الموقد، إلا أنه عندما رفع والدي الأغطية واحدًا تلو الآخر، وجد نفسه ينظر في أوانٍ فارغة. في تلك الأثناء، كانت أمي تجلس إلى الطاولة، حيث كان يجلس والدي عادة، ويداها إلى يسار ويمين الطبق، حتى إنها بدأت في الدق على الطاولة بأصابعها. وسألت: *ها؟* *ماذا يوجد لدينا اليوم؟* جلستُ أيضًا إلى الطاولة، لأنني شعرت أنها كانت لعبة بدأتها والدتي، لعبة أردت المشاركة فيها. نظرت أمي إليَّ وقالت: *أعتقد أن هناك شيئًا جيدًا اليوم، بُفتيك من الهواء، مع بطاطس من الهواء، والحلو أعتقد أنه بودينج شهي من الهواء أيضًا. ما رأيك؟ *. فقلت: *ربما يكون لحم الخنزير المحمر من الهواء، مع البطاطس المقلية من الهواء وآيس كريم من الهواء كتحلية، بالفانيليا والشوكولاتة*.

صاحت والدتي: *لحم خنزير محمر من الهواء! كم أن هذا لذيذ!*.
كان والدي لا يزال يقف لدى الموقد، وقد استدار ووقف ينظر إلينا. في تلك الأثناء حملت سكيني وشوكتي، ثم ضربتها بشكل إيقاعي على الطاولة وصرخت: *لحم خنزير محمر من الهواء! لحم خنزير محمر من الهواء!*. لم يكن ذلك سهلًا، لأنه كان من الصعب تنغيم الكلمة في إيقاع منتظم. ثم تظاهرت والدتي بوجود اللحم على الطبق، ووخزته بالشوكة، وقطعت قطعة صغيرة لنفسها، وأمسكت بالشوكة أمام وجهها، وقلبتها ذهابًا وإيابًا ودفعتها إلى فمها. وصرخت قائلة: *إنه أفضل لحم أكلته على الإطلاق، إن والدك عبقري في الطهي!*.
كنت واثقًا في تلك اللحظة من أن والدي سيشارك في اللعبة، فقد كان هو الذي يتفنن في إمتاع الجميع، وكان يركض ورائي في الحديقة ثم يبدأ في المبالغة بالتنفس بصوت عالٍ، ممسكًا جانبه قائلًا: *هانو، أنت سريع جدًّا بالنسبة لي*، والذي وضع يده من قبل خلال بنطاله عندما تمزق في أثناء صعوده الدرج، ولوح لي في أثناء مشيه من خلال الجزء المقطوع، والذي شرح لي أن نبيذ الإوز مشروب خاص جدًّا ويجعلك في حالة سكر، ثم سكب لنفسه كوبًا من الماء، وجعل يتعثر في المطبخ. أتذكر العديد من المواقف التي فعل فيها والدي مثل تلك المواقف المضحكة الصغيرة. لهذا السبب افترضت في المطبخ في ذلك الوقت أنه سيحمل الأواني الفارغة إلى الطاولة ويضع لنا وجبات الهواء على الأطباق، وأنه سيأكل معنا وربما يفرك معدته لأن مذاق الطعام كان جيدًا. اعتقدت أن اليوم يُمثل فرصة لتجربة لحظة من العمل الجماعي، كانت يمكن أن تذكرنا بأننا ثلاثة، ننتمي بعضنا لبعض، ويمكننا تقضية وقت ممتع سويًّا.
كان بإمكاننا في النهاية أن نفرك بطوننا جميعًا ونضحك. كم كان من الممكن أن يحررنا هذا الضحك! لم أكن قد جربت شيئًا من هذا القبيل من قبل، لكنني سمعت عنه: أن الضحك معًا يمكن أن يكون له تأثير طيب، لكن والدي لم يوافقني الرأي. لم يجلس معنا أيضًا، بل ظل واقفًا فقط أمام كرسيه لبعض الوقت، مسندًا يديه إلى ظهر الكرسي، ناظرًا إلى والدتي بجدية شديدة، كما شعرت أنا، فتح فمه كما لو كان يريد أن يقول شيئًا، ولكنه نظر إليَّ بعد ذلك، مما جعلني أتوقف على الفور عن طلب الهواء المحمر.
هز رأسه لفترة وجيزة ثم غادر المطبخ. لم تقل أمي شيئًا. وبعد فترة، نهضت أمي وقطعت الخبز، ووضعت شريحتين منه على طبقي. وتحملتني بصبر وأنا أقوم بمسح النوتيلا عليها، وظلت تشاهدني وأنا آكل. أنا الذي قمت أخيرًا بكسر الصمت، وسألتها: *ما خطب بابا؟*. قالت أمي: *لا تقلق. إن والدك يعمل كثيرًا مؤخرًا وأنت تعرفه. عندما يعود إلى المنزل يكون جائعًا، وأولئك الذين يعانون من الجوع يكونون في حالة مزاجية سيئة .*
سألتها: *لكن لماذا لم تطبخي أي شيء؟*.
نظرت أمي إليّ. اعتقدت أنها تريد أن تقول شيئًا، ولكن يبدو أنها غيرت رأيها.

نظرت من النافذة، وبعد فترة استدارت إليّ مرة أخرى وقالت: *أطبخ كل يوم. أنا أطبخ منذ أن تزوجت والدك. هل تتذكر يومًا واحدًا، لم أطبخ فيه؟*.
قبل أن أفكر حتى في الأمر، استأنفت هي حديثها: *أتعلم، لم تكن لدي رغبة في أن أفعل. مرة واحدة في كل تلك السنوات، لم أكن أرغب في الطهي*.
في الواقع، تذكرت يومًا ما، لم تطبخ فيه، وعلى وجه الدقة، فقد تذكرت يومًا آخر كذلك، بل العديد من الأيام. لم تكن والدتي تطبخ في الرحلات وعندما يدعونا والدي لتناول الطعام بالخارج. لقد ذهبنا عدة مرات إلى مطعم *فينرفالد*، وكان والدي يعلن ذلك دائمًا صراحة من خلال الكلمات التالية: *المطبخ سيظل باردًا اليوم*. لم تطبخ أمي ثلاثين مرة أو حتى خمسين مرة، بما في ذلك أيام الرحلات. أردت تذكيرها بذلك، لكنني لم أفعل. وبدلًا عن ذلك، سألتها إذا كانت لا تستمتع بالطهي، فردت قائلة: *في الواقع، لا*.
فسألتها: *وهل يعلم أبي أنك لا تستمتعين به؟*.
قالت: *لا أعرف*.
- *ولماذا لا تخبرينه؟*.
- *لأنه لن يفهم*.
لم أستطع فهم ذلك، مرة أخرى، لأنه في النهاية ليس من الصعب فهمه.
ولكن في وقت لاحق أعتقد أنني فهمت ما تعنيه، بعد أن تحدثت مع والدي حول هذا الموضوع. تحدثنا بعد مباراة لكرة القدم، في الموسم قبل الماضي ١٩٧٦/ ٧٧، كانت مباراة بين شتوتجارت وريجنسبورج، كانت مباراة لا تنسى، ليس فقط لأن فريق شتوتجارت VfB كان لا يزال يلعب في الدرجة الثانية في الجنوب، ولكن لأنها انتهت بنتيجة ٨-٠، قام أوتمار هيتسفيلد بتسجيل ستة أهداف وأصبح الصعود آمنًا. كنت أنا ووالدي في الملعب، كان والدي يقفز في كل مرة حتى الهدف السادس، وبقي جالسًا في السابع والثامن، في حين هز رأسه وقال: *هل رأى أحدهم شيئًا كهذا من قبل؟!* لم أكن قد شاهدت هذا الكم من الأناس المبتهجين في مكان واحد من قبل، وبعد المباراة تبرع والدي واشترى لنا ضعف العدد المعتاد من النقانق، اثنين من النقانق له، واثنين لي، مع ضعف كمية الكاتشب والبطاطس المقلية.
لا أعرف لماذا خطر هذا ببالي في حينها، لكنني تذكرت ما قالته والدتي عن الطبخ وأخبرت والدي بما قالت. أتذكر ذلك جيدًا لأنني فوجئت برد فعله. تحول بسرعة إلى الجدية ما بين لحظة واللحظة التي تليها، وكان ذلك ملحوظًا بشكل خاص في وسط هذا الحشد من الناس السعداء المحتفلين من حولنا. سألني أبي: *هل تعتقد أنني أستمتع بعملي دائمًا؟*. واستطرد قائلًا: *هل تعتقد أني أحب الذهاب إلى المكتب كل يوم؟*. إذا كان يسأل بهذه الطريقة، فإن الإجابة بديهية. وفي ذلك الوقت لم أفكر في ما يعنيه ما قاله بالنسبة لكونه قدوتي. بل بدا ما قاله معقولًا وبسيطًا. الكل يفعل أشياء معينة، لأن عليه فعلها.
كان الأمر كذلك دائمًا في الحياة. كان والدي يذهب إلى العمل لكسب المال.

وأذهب أنا إلى المدرسة لأستطيع كسب المال في وقت لاحق. وتذهب والدتي إلى المدرسة أيضًا، ولكن لمدة نصف يوم فقط، ثم يأتي دورها في الطهي. وفي النهاية، سيكون من غير العدل أن يضطر والدي إلى الطهي في المساء أيضًا.
عندما أخبرت أمي بعد ذلك أن هناك بعض الأشياء على الإنسان القيام بها، حتى وإن لم يجد بها متعة، مثل ذهابي إلى المدرسة، وذهاب والدي إلى العمل، فسألتني عما إذا كان والدي هو من قال ذلك. ثم فاجأتني أمي برد فعلها.
هل تساءلت يومًا ما، لماذا يجب على المرأة أن تطهو الطعام؟. لأكن صريحًا، لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل. كنت أراه أمرًا مسلمًا به. وإذا أعطتني والدتي وقتًا للتفكير في إجابة، لكان يمكنني أن أقول إنها أكثر تمكنًا وطهوها أفضل، وهو ما سيكون بمثابة مجاملة. لكن ذلك كان سيوقعني في فوضى أعمق. قالت أمي: *على ما يبدو لا، وهنا بالضبط تكمن المشكلة. مسألة أن المرأة عليها هي دائمًا أن تقف أمام الموقد، هي مسألة مُسلم بها. لأن هكذا كانت الحال دائمًا. كل ما عليك فعله هو أن تسأل والدك، فهو يعتقد أن هذه وظيفة المرأة. لكنني سأخبرك بشيء: هناك رجال أكثر حداثة يطهون أيضًا. حتى إنهم ينظفون. ويرتبون الأسِرَّة. والدك لا يستطيع حتى تخيل ذلك، لأنه رجل محافظ*. لم أكن أعرف تلك الكلمة في ذلك الوقت، ولكنني فكرت في السلع المُعلبة. كنت أعلم أن الطعام المحفوظ لم يكن شيئًا جيدًا، على الأقل هو شيء غير صحي وغير طازج.

***

من منظور اليوم، يمكن تفسير الصراع بين والديّ ببساطة شديدة. لقد حررت أمي نفسها على مر السنين، وهي عملية وجدها والدي غريبة بشكل متزايد لأنه كان يُجسّد المحافظين. قد لا يكون سكن هارتموت لدينا هو الذي حفز ذلك التطور، لكنه سرع وتيرته بالتأكيد. ولا بدَّ أن والدي قد شعر بهذا أيضًا. كان هارتموت يعيش بمفرده. ولم يكن الأمر كذلك أنه لم يكن يحب الطهي: عندما بدأت والدتي في تحضير الطعام وإنزاله له، قبله عن طيب خاطر، على الأقل لم يعترض على خدمة التوصيل تلك، وهو ما كان المرء يتوقعه من رائد التحرر.
بقدر ما أستطيع أن أقول من منظور طفل، كان هارتموت شخصًا منظمًا. أتذكر أنه كان يضع الأطباق والأكواب المغسولة لتجف دائمًا على منشفة بجوار الحوض. كانت هناك نعال منزلية مرصوصة في الردهة وكان علينا أن نرتديها قبل دخول شقته. ما زلت أتذكر ذلك لأنها كانت كبيرة جدًّا بالنسبة لي وكانت قدمي تنزلق منها عدة مرات حتى أصل إلى الغرفة. لم يكن هناك أي ملابس مبعثرة في شقة هارتموت، ولم تكن هناك آثار لآخر استخدام للمرحاض. أستطيع أن أقول ذلك على وجه اليقين، لأنني كنت دقيقًا جدًّا في ما يخص هذا منذ ذلك الوقت. يؤدي المرحاض غير النظيف إلى الإمساك الحاد

لديّ، حتى لو كان الأمر مُلحًّا جدًّا، لكن مخطوطات هارتموت فقط وأبراج كتبه هي التي كانت تعطي الشقة المنظمة لمسة من الفوضى.
وعلى عكس والدي، لم يكن من الممكن إنكار قدرة هارتموت على إدارة المنزل. إلا أنه، يفعل ذلك كما ذكرنا، بشكل إجباري وليس بدافع سياسة الدفاع عن الجنس الآخر. لم يكن هارتموت حريصًا على تضخيم الدور المنزلي لوالدتي وإبرازه أمام عينيها، ولا كان يشجعها على أن تكون أكثر استقلالية، على الأقل ليس في ما يخص البيت والأسرة. كان هارتموت مهتمًّا فقط بقضيته، وكان بحاجة إلى مساعدين متوافقين معه؛ سواء كانت والدتي هي من تقوم بترتيب الأسِرّة أم لا، فأنا متأكد، أن هذا لم يكن يعنيه في شيء، كان كل ما يعنيه أن تكون جاهزة عندما يحتاجها. في نهاية المطاف، ربما كان الأمر يكمن في القضية، واستعداد هارتموت للانقياد لها، وتفانيه، وهوسه، وتبعيته، واعتقاده، كان هذا هو ما جعل والدتي تشكك في حياتها السابقة.
لقد حدث تحول جذري في المنزل مع انتقال هارتموت للعيش في منزلنا، وكان يمكن التعبير عن هذا التحول لفترة من الوقت بكلمة المثالية، ويبدو أن والدتي حدث لديها انطباع بأن الطهي وإنقاذ العالم لم يكونا هدفين متوافقين. ومن هذا المنطلق، يمكننا أن نقول إن هارتموت قد ساهم بشكل غير مباشر في تحرر والدتي من حياتها القديمة وبالتالي من والدي أيضًا، وكان علينا أيضًا أن نُرجع السبب في حصولنا على لحم الخنزير المحمر المصنوع من الهواء لهارتموت. وهو الأمر الذي لم يكن واضحًا بالنسبة لي في ذلك الوقت، ولكنه كان واضحًا لوالدي على الأرجح.

***

كان من الواضح بالفعل خلال الأسابيع القليلة الأولى أن هارتموت لم ينتقل معنا وحده. ذات يوم كان هناك ملصق آخر موضوع تحت اسمه على صندوق البريد مكتوب عليه: *دائرة عمل حماة الحياة.* ومنذ ذلك الحين أصبح يرد البريد إلى المنزل أكثر من أي وقت مضى. حيث فاض صندوق البريد الخاص بهارتموت حرفيًّا، وأحيانًا كانت هناك مجموعة من الرسائل تتراص أسفله.
حوّل هارتموت شقتنا في الطابق السفلي إلى مقر لدائرة عمل *مجموعة حماة الحياة* الخاصة به، والذي عرفته بعد ذلك بكثير، أنه أسسها قبل فترة وجيزة لأنه غادر *جمعية حماية البيئة*، والتي كان هو أيضًا مؤسسها، بعد أن اختلفت آراء الأعضاء حول ما إذا كان العنف وسيلة مشروعة في الكفاح من أجل البيئة أم لا. أتذكر اليوم الذي زار فيه بعض دعاة الحياة هارتموت لأول مرة بعد أسابيع قليلة من انتقاله إلى بيتنا. كنت قد أوصلت الطعام للتو إلى جدتي، وكنت في طريق العودة إلى شقتنا حاملًا وعاء الطعام في يدي، عندما دق جرس الباب في الطابق السفلي. توقفت على الدرج. كنت أعلم أنه لا يصح التصنت، ولكني تخيلت كيف يمكنني أن أخبر والدتي عن الزوار، وأنها مهتمة بالتأكيد بمعرفة من جاء. ثم كان الوقت قد فات بالفعل على أي حال. سمعت باب هارتموت وهو يُفتح، وسمعته يصعد إلى الباب الخارجي للمنزل.

استطعت رؤيته من خلال السياج الخشبية لسور السلم. كان الضوء خافتًا على السلم، ولم يضئ المصباح الذي قام بإنارته سوى الطابق السفلي.
اضطررت إلى الانحناء فوق السور لرؤية كل شيء. كان هناك رجل يقف أمام الباب، وكان شعره طويلًا نسبيًّا ويرتدي نظارة. لاحظت أنهما لم يتصافحا، بل تبع هارتموت مباشرة إلى الطابق السفلي. سمعت هارتموت يقول: *أنت الأول*. بعد إغلاق باب شقة هارتموت، صعدت الدرجات المتبقية وحملت الوعاء إلى المطبخ، حيث كانت أمي تغسل الأطباق.
قلت: *الرجل في الطابق السفلي لديه زائر*. وضعت والدتي الطبق الذي كانت قد غسلته للتو، بجوار الحوض ليصفي المياه التي عليه.
سألتني: *هل رأيت من هو؟*.
قلت: *رجل ذو شعر طويل*.
تذكرت أن هارتموت قال للرجل ذي الشعر الطويل إنه الأول، مما يعني أنه يتوقع المزيد من الضيوف.
قلت: *ربما يكون عيد ميلاده*.
-ما الذي يجعلك تظن ذلك؟.
لقد قال للرجل ذي الشعر الطويل أنت الأول. هذا يعني أن هناك آخرين لا بدَّ أن يأتوا. يمكنني إلقاء نظرة إذا أردت .
كنت طفلًا جبانًا نوعًا ما، وهو ما كان واضحًا بالفعل، حيث إنني كنت أجد مجرد فكرة التسلل إلى النافذة والنظر إليها دون أن يتم اكتشافي، شيئًا مثيرًا. *ما زلت أذكر كيف تسلقت إلى مبنى جديد في المساء مع صديقي بول، ودخلناه من خلال فتحة إحدى النوافذ التي كانت مغطاة بكيس رقيق فقط. كانت معنا مصابيح يدوية، وفي الواقع كنا نسير عبر الغرف الفارغة بجدرانها العارية، ونحن نرتجف من الخوف، وصعدنا الدرج الخرساني الذي كان لا يزال بلا سور إلى الطابق الأول. ومع ذلك، استغرق الأمر مني نصف الليل لأهدأ مرة أخرى*.
سألتني والدتي: *كيف تريد التحقق؟*.
قلت: *من خلال النافذة*، وافترضت أن والدتي ستقول إنه ليس من اللائق أن نتجسس على الآخرين. على أي حال، لم أكن أتوقع أن تجفف والدتي يديها في منشفة المطبخ وتقول: *دعنا نذهب للتحقق سويًّا*.
كانت تلك ذكرى خاصة للغاية بالنسبة لي، كيف تبعتني أمي بهدوء إلى أسفل الدرج، وتسللت معي حول المنزل ثم جلست على ركبتيها بجوار النافذة ناظرة إلى شقة هارتموت وسألتني بصوت هامس عما رأيته، وهمست لها: *ستة رجال*. كان هذا التجسس سويًّا شيئًا يربطنا معًا، ليس فقط في أثناء جلوسنا بجوار جدار المنزل، ولكن أيضًا في ما بعد، لأننا تشاركنا سويًّا سرًّا لم أخبر والدي عنه أبدًا حتى دون أن تطلب والدتي مني ذلك. سألتني أمي: *و؟ ماذا يفعلون؟*.
-*اثنان يجلسان على الأريكة، والآخران على الأرض. كان بجوارهم أكوام من

الأوراق، وكانت هناك آلة غريبة لها رافعة موضوعة على الطاولة*. يبدو أن والدتي لم تتمكن من فهم ذلك. فهمست لي *دعني أرى*، وتبادلنا الأماكن. وهمست لها قائلًا: *و؟*. التفتت أمي إليَّ مرة أخرى وهمست: *إنهم يريدون إرسال رسائل*. ما رأيته الآن أصبح مألوفًا لي في السنوات التالية، لأنني أصبحت أساعد فيه غالبًا. كان تقسيم العمل منسقًا جدًّا هنا: كان الأول يأخذ الورقة من الكومة ويقوم بطيها، ويسلمها إلى التالي الذي يضعها في مظروف، ثم يقوم الثالث بوضع ملصق مكتوب عليه العنوان ويقوم بلصق طابع البريد عليه. كان يتم تجهيز ملصقات العناوين بمعرفة اثنين آخرين يجلسان إلى جهاز به رافعة ويقومان بتشغيله بالتناوب.

في ما بعد أصبحت أقضي بعض فترات بعد الظهيرة على تلك الآلة التي تصنع ملصقات الأظرف. سألت أمي عندما عدنا إلى شقتنا: *ما نوع هذه الرسائل؟*.

أجابت: *لا أعرف *

شعرت كم كان مهمًّا بالنسبة لها أن تعرف. عادت أمي في ذلك المساء إلى غرفتي عندما كنت أرقد بالفعل في السرير. كان الضوء مُطفأ بالفعل، لكنني كنت مستلقيًا تحت غطائي ممسكًا بالمصباح اليدوي وأتصفح في ألبوم كرة القدم الخاص بي لإلقاء نظرة على وجوه أبطال شتوتجارت. كان ذلك يُعد آنذاك جزءًا من طقوس نومي.

فاجأتني أمي في ذلك المساء؛ لأنها جاءت إلى غرفتي مرة أخرى بعد وقت طويل من تمني ليلة سعيدة لي، لم تكن تفعل ذلك في المعتاد. أطفأتُ المصباح بسرعة، ووضعت الألبوم على بطني وتظاهرتُ بالنوم. سحبت أمي كرسي مكتبي الصغير إلى السرير وجلست، وقالت إنها تعلم أنني لم أنم بعد. فكرت في أنها تعد لي شَركًا، ولم أتحرك. قالت: *هانو*، *لقد فكرت في الرسائل مرة أخرى. وكنت أتساءل حقًّا ما هي تلك الرسائل. ألم تتمكن من رؤية أي شيء؟*.

حاولت التنفس بشكل بطيء كما يتنفس الشخص النائم قدر الإمكان. ضغطت جفني بشدة لدرجة أن مقلتي آلمتاني. لم أكن أعلم بمقدار الظلام في الغرفة، ولم تشعل والدتي الضوء، لكن القمر كان ساطعًا، ولم يكن هناك سوى ستائر رقيقة معلقة على النوافذ. تساءلت إذا كانت تستطيع رؤية جفوني وهي ترتجف من شدة الضغط.

قالت: *هانو، فكر مرة أخرى. هل كان هناك أي شيء؟*.

وعندما لم أتحرك، قالت: *أعلم أنك لا تنام. وأنك تقرأ تحت الغطاء. فقد رأيت النور*.

كونها لاحظت ضوء مصباحي، فهذا لا يعني أنني ما زلت مستيقظًا، ففي النهاية كان ذلك قبل بضع دقائق، وكان يمكن أن أكون قد غفوت بعد أن أطفأت المصباح. لكن ذلك كان مستبعدًا للغاية. ففتحت عيني أخيرًا، وأنا سعيد لأنها لن تلقنني درسًا حول القراءة في السر.

فقلت: *أنا..*. ولم أجد ما أقوله بعد ذلك. لكن والدتي ردت على صمتي بصبر نافذ، سألتني قائلة: *ماذا؟* *ماذا، يا هانو؟* فطرأت لي فكرة أنه بإمكاني استغلال هذا الموقف لأغراضي، وهذا يعني: أنه ليس عليَّ أن أكشف كل أوراقي بسرعة.
قلت: *أعتقد أنه كان هناك شيء ما*.
سألتني أمي: *ماذا تقصد؟ ماذا كان هناك؟*.
لا بدَّ لي من أن أركز.
أخذت نفسًا عميقًا عدة مرات. وأحسست أن والدتي تشعر بالقلق. إنه أمر غريب، ولا يمكن تفسيره في الواقع، حيث إنك تستطيع أن تشعر بالعواطف البشرية دون رؤيتها. تمامًا مثل الانجذاب أو النفور من مجرد التواجد المادي مع أشخاص دون معرفتهم حقيقة. لقد فكرت في الأمر عدة مرات وفسرت هذا لنفسي بالطاقات التي يصدرها الناس. على غرار الرسوم البيانية للقوة التي درستها في الفيزياء، ربما كان هو النظام الوحيد الذي تعلمته إلى حد ما، ويرجع هذا لأنه ليس له علاقة تذكر بالأرقام.
حيث يمكن للقوى أن تعمل في اتجاهات مختلفة، وبعد ذلك نحصل على تلك الخطوط، F1 وF2، ومتوازي الأضلاع الذي يمكنك من خلاله اشتقاق محصلة القوى. فالقوى التي تعمل في نفس الاتجاه يتم حساب حاصل جمعها. أعتقد أن الطاقات بين شخصين يمكن تمثيلها أيضًا بنفس الطريقة، وتلك الرسوم البيانية تعطينا فكرة عن مدى ملاءمتها معًا.
وبينما أكتب هذا، أتساءل عن الشكل الذي يمكن أن يكون عليه مخطط القوى بيني وبين أمي. من المحتمل أن تلك القوى لا يمكن إضافتها أو طرحها بعضها من بعض، ولكنها تقف متجاورة في زاوية واحدة، في زاوية تقل عن ٩٠ درجة.
شعرت بمدى صعوبة ألّا تُزعجني في أثناء تركيزي. تخيلت أنها كانت تهتم بكل حركاتي، وتتنصت لتسمع أي صوت قد أصدره، وفي النهاية، ولأنها لم تعد قادرة على تحمل المزيد، همست باسمي. ربما خوفًا من أن أكون قد غفوت. في الواقع، لم أكن قد رأيت شيئًا يمكن أن يعطي مزيدًا من المعلومات حول تلك الرسائل.
وفي أثناء إغلاقي لعينَي، فكرت في الأسباب المحتملة لوجود كل تلك الرسائل في شقة هارتموت، ومَن هم الأشخاص الذين من المحتمل أن يرسلها إليهم. ولكن بالرغم من تلك الإرادة القوية، لم يخطر شيء ببالي. وهو أمر سخيف، لأنه كان عليَّ أن أخبر والدتي أنني مخطئ، وأنني لم أر أي شيء قد يرضي فضولها.
فقلت: *لقد كانت رسائل*.
وفي تلك الأثناء كنت قد فتحت عينَي مرة أخرى. ولحسن الحظ كان الظلام حالكًا، وكان هذا أفضل من رؤيتي لخيبة أمل والدتي.
قالت *لم ترَ أي شيء*.

قلت: *بلى، كان هناك شيء*.
أنصتت أمي إليّ.
سألت *ماذا؟*. *ماذا كان هناك؟*.
-*شيء ما كتب على الخطابات*.
وهنا تبخرت كل الإثارة التي حاولت إضفاءها على الموضوع. والآن على أقصى تقدير، استطاعت أمي أن ترى الحقيقة.
قالت: *نعم، يا هانو، يكون هناك عادة شيء ما مكتوب على الرسائل. لا يهم ما هو، أيًّا كان. *فلتنم الآن*. دفعت كرسي المكتب إلى مكانه وتركت غرفتي.
بعد بضعة أشهر أعطاني والدي فكرة عما كان يمكنني أن أقول. خلال العشاء سأل والدتي عما إذا كانت متأكدة من أنها لم تحضر لنا زارع قنابل إلى المنزل. قبل فترة وجيزة، تم إطلاق النار على رئيس غرفة *برلين* من قبل *جماعة الجيش الأحمر*. كنت قد سمعت من قبل عن *جماعة الجيش الأحمر*، وكان الجميع يتحدث عن الإرهابيين في ذلك الوقت. كانت هناك ملصقات تحمل صورهم معلقة في البنك ومكتب البريد.
تضايقت قليلًا لأنني لم أفكر في تلك الليلة وأنا في السرير في إخبار والدتي بأنني رأيت هذا النجم الأحمر المزين بمدفع رشاش، والذي كنت أعرفه من التليفزيون، على الرسائل، وتساءلت كيف كان سيكون رد فعل أمي، هل كانت ستخبر الشرطة، أو على الأقل والدي، أم أنها كانت ستحتفظ بهذا لنفسها.
ولكن بينما كنت لا أزال منشغلًا بتلك الأفكار، أعتقد أنني سمعت أمي وهي تقول: *كيف توصلت لمثل هذا الهراء؟ هارتموت ليس إرهابيًّا*. لا أعرف ما إذا كانت قد فكرت يومًا ما في احتمالية كون هارتموت إرهابيًّا، أو على الأقل من المتطرفين المتسمين بالعنف الذين كان والدي واثقًا من وجودهم بكثرة.
في ذلك الوقت، لم تزعجني فكرة كون هارتموت من ضمن هؤلاء الإرهابيين، بل جعلني ذلك أشعر بإثارة طفولية. كانت عملية التجسس مجرد بداية. بعد أن طرح والدي فكرة الإرهابيين على الساحة، تحولت سرًّا لأصبح محققًا، يتتبع هارتموت ويقوم بمراقبته.
كنت قد قرأت ما يكفي من كتب *الأصدقاء الخمسة*، لأتخيل المغامرة التي كنت أعيشها في ذلك الوقت. وبالطبع كنت أعرف كيف ستنتهي: كنت سأجد أدلة لإدانة هارتموت، وألقي القبض عليه، وربما أقوم بحبسه في شقته بينما أنتظر الشرطة، أو أقوم بتقييده، بأي طريقة كانت، ثم أجلس فوقه. ويقف رجال الشرطة يربتون على كتفي باعتزاز، ويشرحون لوالديّ كيف عليهم أن يفخروا بابنهم، ذلك البطل، الذي قام بعمل بطولي ضد أحد الإرهابيين وقدم خدمة كبيرة للبلاد.
بدأت مهمتي بإفصاحي عن رغبتي في الحصول على كلب، بالطبع دون أن أقول لماذا أنا في حاجة إليه. كانت حماسة والديّ محدودة تجاه هذا الأمر. حاولت أن أشرح لهما أنني اشتقت إلى شخص ألعب معه، ويمكنني أيضًا أن

أتخيل أخًا صغيرًا لي كبديل. اقترحت هذا فقط لأنني افترضت أن والديّ سيكون من الأسهل عليهما أن يعطوني كلبًا بدلًا عن أخ صغير، وهو ما أفضّله كثيرًا لأنني سأضطر للانتظار طويلًا جدًّا حتى وصول ذلك الأخ الصغير، وفترة أطول حتى يكون قادرًا على مساعدتي في عملي كمخبر، وهو ما سيستغرق سنوات أخرى. لم تبدُ هذه الفكرة بعيدة عن والدي. الذي نظر إلى والدتي وسألها: *ما رأيك في أن نحضر أخًا صغيرًا لهانو؟* لكن والدتي لم تعلق على ما قال.
قلت: *أنا أيضًا أفضل الكلب*. أجاب والدي *وهذه بدورها ليست فكرة جيدة*.
ثم شرح لي الواجبات التي ستقع على عاتقي في حال حصولي على كلب.
الذهاب في نزهة معه في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة، كل يوم، حتى في فصل الشتاء، في وقت المطر، ومرة ثانية عندما أعود من المدرسة ومرة ثالثة في المساء. يحتاج الكلب لممارسة الرياضة. ومن الممكن أن يمرض الكلب في بعض الأحيان، وإذا كان صغيرًا من الممكن أن يتسبب في مشكلة أو أخرى أو يقضي حاجته على السجادة، وسألني هل سأحب أن أنظف هذا؟ وبالطبع هذا بصرف النظر عن الطعام، فهو يعرف كلابًا لديها سلوك تغذية غير عادي تمامًا، فهم يتناولون فقط أمعاء الحيوانات، وبالطبع فإنني لن أحب أن أعرف رائحة فضلات كلب لا يتغذى سوى على الأمعاء. أعتقد أن والدي رأى خيبة الأمل التي ظهرت على وجهي، لأنه قال شيئًا لم أكن أريد سماعه. لا يوجد طفل يريد كلبًا، يود أن يسمع شيئًا عن فضلات الكلب والمشي معه لقضاء حاجته. وبهذه الطريقة، يمكن إنهاء كل علاقة حب.
كان بإمكاني الرد بأن أبي كان له فضلات أيضًا، وفي بعض الأحيان ينتظر تقديم الطعام له، وبالإضافة إلى ذلك فهو يشخر أيضًا، إلا أنني لم أفكر في ذلك في ذاك الوقت. ثم اقترح والدي أنه يمكنني استعارة كلب، وكان يعرف أيضًا واحدةً يمكنني استعارتها. الدودج الموجودة لدى الجيران في المنزل المجاور، واقترح أن أسألهم إن كان بإمكاني الذهاب معها في جولة بعد المدرسة. لكنني لم أرغب في استعارة كلب، لا سيما الكلبة الدودج الموجود لدى الجيران. وبهذا لم يكن لدي في الوقت الحالي أي خيار سوى الإيقاع بهارتموت بمفردي.
بدأت أراقبه. ولأن غرفتي كانت في الخلف، كان عليَّ أن أقف أمام النافذة الموجودة في غرفة المعيشة لأستطيع رؤية مدخل المنزل. بعد ظهر يوم واحد فقط، أدركت مدى اختلاف ما توقعت عن الواقع. في مخيلتي، شاهدت كيف أن هناك الكثير من الرجال يحضرون إلى منزلنا، وينظرون حولهم في خلسة يمينًا ويسارًا، قبل أن يهرولوا إلى فناء منزلنا. كنت أتصور أن شعرهم سيكون طويلًا، لأنني تعلمت من والدي، أنه لا يمكنني الوثوق بمن لديهم شعر طويل. في مخيلتي كان هناك الكثير لملاحظته. أما في الواقع، فقد وقفت أتطلع عبر النافذة لمدة ساعة، ورأيت عددًا قليلًا من السيارات تمر، ورأيت الصبي مع الدودج مربوطة في الحبل، أو بالأحرى الدودج مع الصبي مربوطًا

في الحبل، إلا أنني لم أر أي شخص يدخل فناء منزلنا، حتى هارتموت نفسه لا يمكن رؤيته في أي مكان.
في وقت ما دفعت كرسيًّا إلى جوار النافذة، لكنني اكتشفت أني لا أستطيع النظر من النافذة في أثناء الجلوس لأنني كنت قصيرًا جدًّا. بعد ساعة ونصف الساعة توقفت عن المراقبة دون جدوى.
سألت أمي بعد تناول طعام العشاء، إذا كانت قد طبخت لهارتموت وإذا كان عليَّ أن أوصل الطعام له، مما أسعد والدتي، إلا أن أبي كان أقل سعادة بسؤالي. قال بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه: *لم أكن أعلم أنه حجز إقامة خمس نجوم*. قامت والدتي بالتجاوز عما قال، وبدأت في إعداد طبق مكدس بالفاصولياء ومعها بعض البطاطس، وتركت اللحم المحمر.
التقطت الطبق، وفي طريقي للطابق السفلي طرأت على خاطري مئات الأفكار. لم أكن قد أعددت نفسي حقًّا، ولم أكن أعرف كيف عليَّ أن أتصرف. بطريقة ما كان عليَّ الدخول إلى شقته. في المرة السابقة أخذ مني الطبق بسرعة ثم أغلق الباب. لم أستطع التفكير لفترة طويلة، وإلا كان الطعام سوف يبرد. يجب أن يتبادر إلى ذهني شيء ما بشكل تلقائي.
عندما دققت الجرس، حبست أنفاسي لأسمع خطواته بشكل أفضل. فُتح الباب ثم وقف هارتموت أمامي ونظر إليَّ ولم يقل شيئًا، وبدا أنه يفكر في شيء آخر تمامًا. كما أنني لم أقل شيئًا وسلمته الطبق. نظر من فوقي، يسارًا ويمينًا، كما لو كان يتوقع أن يكون هناك شخص غيري. التقط الطبق وكان على وشك العودة إلى الشقة، لكنني ضغطت بسرعة ركبتي معًا وقلت إنني بحاجة إلى قضاء حاجتي بسرعة، فكر للحظة، ثم تنحى جانبًا وسمح لي بالدخول. لم أكن مضطرًّا بالطبع لقضاء حاجتي، لكنني استغللت الوقت للتفتيش في حمامه. ولكن لم يكن هناك الكثير، فلم يكن هناك سوى المشط وفرشاة الأسنان والصابون وشفرة الحلاقة. استخدمت سيفون المرحاض للتمويه. وعندما عدت إلى الطرقة سمعت قعقعة الآلات الكاتبة، دخلت بضع خطوات إلى الغرفة ورأيت هارتموت جالسًا أمام الطاولة الصغيرة، معطيًا ظهره لي.
نظرت حولي في الغرفة للحظة، لا تزال هناك أكوام قليلة من الورق والأظرف على الأرض، وخطر لي أن والدتي ستكون بالتأكيد سعيدة إذا ما أحضرت لها إحدى الرسائل تلك. بدا هارتموت مستغرقًا جدًّا في الكتابة لدرجة أنه لم يلحظ وجودي.
استجمعت شجاعتي وسألته: *ماذا تكتب هناك؟* بدا أن سؤالي أوقعه في الحيرة للحظة، لكنه عاد بعد ذلك إلى الآلة الكاتبة، والتقط الورقة التي كانت موجودة فوق الأسطوانة، وبدأ يقرأ لي المكتوب بصوت عال. كانت رسالة إلى هيلموت شميدت. قامت والدتي بتجميع وأرشفة جميع الرسائل التي كتبها هارتموت، بما في ذلك الرسالة التي قرأها لي في ذلك الوقت. كانت الرسالة تدور حول الصدق، لأنه من الواضح أن هيلموت شميدت لم يأخذ الصدق على

محمل الجد. طلب منه هارتموت إبلاغ الناس الحقيقة بضمير حي، لأن هيلموت شميدت لم يخبر الناس بمدى الخطورة الحقيقية التي تمثلها الطاقة النووية.
وإذا لم يقل الحقيقة قريبًا، فسيبدأ هارتموت في إضرابه عن الطعام. أتذكر هذا الجزء من الرسالة جيدًا لأن أحد هؤلاء الإرهابيين قد مات مؤخرًا في السجن بعد إضرابه عن الطعام. كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها عن الإضراب عن الطعام، لكنني لم أكن أعرف على وجه التحديد كيف كان يتعامل مع الجوع. سألت هارتموت لماذا لديه نسخ كثيرة من هذه الرسالة، حيث إنه كانت هناك كومة كاملة على المكتب. شرح لي هارتموت، أنه سيرسل الرسالة أيضًا إلى عديد من الأشخاص الآخرين، حتى يعرفوا حقيقة هيلموت شميدت. سألته، عما إذا كان بإمكاني أخذ إحدى هذه الرسائل معي حتى يمكنني إعلام والديّ أيضًا، أخذ هارتموت واحدة من الكومة وأعطاني إياها.
أنا مندهش اليوم لأنه يبدو أنه لم يكن قد فكر بشأن عواقب هذه الرسالة. أعتقد أنها غيرت وجهة نظر والدي حول هارتموت. فحتى ذلك الحين، كان هارتموت يعتبر بالنسبة لوالدي مجرد مختل غير ضار، إلا أنه بعد هذه الرسالة لم يعد متأكدًا مما إذا كان هذا المختل غير ضار حقًّا.
وهكذا، ودون أن أشعر، أدى عملي كمخبر بسرعة إلى النجاح، لكن لسوء الحظ ساهم هذا أيضًا في احتدام الصراع بين والدَي. في ذلك المساء، صعدت الدرج بسرعة والرسالة في يدي، وهرعت إلى المطبخ، ولم أنتبه إلى أن والدي كان هناك، ولم يكن يعرف شيئًا عن اهتمام والدتي برسائل المستأجر. لوحت بالرسالة ولاحظت فقط ما فعلته عندما سألني والدي: *ماذا لديك هنا؟* نظرت إلى والدتي وأدركت في تلك اللحظة أنني قد أفشيت سرنا. كنت في التاسعة من عمري فقط، لكنني أدركت ماذا يعني ذلك.
في النهاية، لقد خاض كل طفل تلك التجربة: كان الطفل يدع صديقه المقرب يُقسم بكلمة الشرف الهندية ويقبّل أطراف أصابع السبابة والوسطى قبل إخباره بما يجب أن يبقى سرًّا حقًّا، مثل اسم الفتاة التي كان معجبًا بها، ثم يكتشف في وقت لاحق أن هذا الصديق نشر السر في كل مكان. لم يكن ذلك يعطي فقط شعورًا بالخيانة، بل كانت خيانة حقيقية. كانت المشكلة الوحيدة أنني لم أستطع التفكير في أي شيء لإنقاذ الموقف. حتى إن التظاهر بعدم معرفة شيء، لم يكن ليجدي شيئًا: *آه، ليس لدي شيء هنا، كيف طرأت لك تلك الفكرة؟* لم يُفلح ذلك في شيء. وسلمت الرسالة إلى والدي وقلت إنها من مستأجرنا. سأل والدي *مِن هذا الجروندلر؟* أومأت إيجابًا. أخذ والدي الرسالة، وفتحها، ورأيت أمي تقف خلفه وتحاول قراءة المكتوب فيها، بينما حاول والدي، عندما لاحظها، منع ذلك من خلال إدارة ظهره لها وإمساك الرسالة إلى الأسفل حتى لا تستطيع قراءتها. كانت من صفحة واحدة فقط، ولكنها كانت مكتوبة على الآلة الكاتبة والكتابة فيها كثيفة، لذلك استغرق

والدي بعض الوقت لقراءتها كلها.
رفع أبي الرسالة لفترة وجيزة، من أجل أن يقرأها مرة ثانية كما بدا لي. كنت أقف بجانبه طوال الوقت، وأنا أنظر إلى والدتي محاولًا معرفة ما إذا كانت غاضبة مني، إلا أنها لم تنظر إليّ.
وضع والدي الرسالة على الطاولة أمامه. كان صامتًا، وهذا لا بدَّ أنه قد جعل والدتي متوترة للغاية. كنت مدركًا لذلك الموقف أيضًا. كان مدرس اللغة الألمانية يفعل ذلك دائمًا عندما يعيد إلينا الامتحانات في الفصل ويقف أمام طاولتي، ومعه امتحاني في يده، ويتظاهر بالنظر إليه مرة أخرى كما لو كان محتاجًا لوقت لينظر فيه مرة أخرى بتروٍّ، ويزداد حماسي أكثر وأكثر حتى أشعر بخفقان قلبي في حلقي، لأنني لم أكن أعرف ما إذا كنت قد أديت بشكل سيئ جدًّا أم جيد جدًّا.
ثم سمعت صوت والدي أخيرًا. قال: *هذا الرجل مجنون، يريد أن يضرب عن الطعام*.
سألت أمي: *يضرب عن الطعام؟ ولِمَ هذا؟*.
-*يريد أن يقول هيلموت شميدت الحقيقة حول السياسة النووية. ماذا يعتقد هذا الـ جروندلر في الواقع؟ من هو؟*.
سألت: *ما هو بالضبط الإضراب عن الطعام؟*.
التفت إليّ والداي في الوقت نفسه تقريبًا، كما لو كانا قد لاحظا للتو أنني ما زلت موجودًا.
قالت أمي: *الإضراب عن الطعام، هو شكل من أشكال الاحتجاج. بعض الناس، كما تعلم، يخرجون إلى الشوارع للتظاهر، في حين يتوقف الآخرون عن تناول الطعام*.
لم يتضح لي على الفور العلاقة بين التظاهر والتوقف عن تناول الطعام.
سمعت عن المتظاهرين ورأيت بعضهم، لأنه كان هناك الكثير منهم في ذلك الوقت. في كثيرٍ من الأحيان عندما كنت أذهب إلى المدينة مع والدتي، كنا نراهم.
في معظم الوقت كانوا يجتمعون عند جسر *النيكار*، مما كان يثير غضب السائقين تمامًا، الذين يبدؤون في الصراخ والتوبيخ على جانبي الجسر، وهو ما كان يعجب المتظاهرين. كانوا يرفعون ملصقاتهم المرسومة أمام السائقين، ولم يكونوا خائفين -على ما يبدو- من العدد الكبير من ضباط الشرطة الذين كانوا يلتفون بهم. كان المتظاهرون يهتفون أمامهم: *من أنزلك، أيتها الغابة الخضراء، ودفع راتبك الضئيل؟!* وهو ما لم أفهمه في حينها، حتى أخبرتني والدتي أنهم يعنون بذلك رجال الشرطة. لكن أن شخصًا بالغًا لا يريد أن يأكل، هذا ما لم أسمع به فقط سوى في الحديث عن ذلك الإرهابي. لطالما واجهت مشكلة مع والدتي حينما لم يعجبني الطعام، وكنت أبدأ في العبث به. ثم كانت تقول دائمًا: *سوف يتم تناوله*. اعتقدت في البداية أنه من غير العدل أن هارتموت لا يريد أن يأكل، وأنه كتب هذا أيضًا

لجميع الناس.
ربما في المستقبل لا يجب أن أقول ببساطة إنني لم يعجبني الأكل، ولكن عليَّ أن أفكر في شيء آخر. فأنا مثلًا لن آكل بعد الآن، لأني لا أريد الذهاب إلى المدرسة. أو: لأنني أريد أن أظل مستيقظًا حتى وقت متأخر في المساء. ولكن عندما فكرت في الأمر، كان الأمر غبيًّا جدًّا أيضًا، لأنه إذا لم يأكل شخص شيئًا، فسوف يموت، وإن مات لن يكون باستطاعة أحد أن يستمع إليه. لكن هذا المنطق القائل، بأن الشخص لا يأكل شيئًا ليسمعه الناس، يبدو أنه يفهمه الكبار فقط، ولا ينطبق على الأطفال.
وعندما لم أرغب في تناول يخنة الكرنب بعد بضعة أيام -أي طفل هذا الذي يحب يخنة الكرنب؟- أخبرتني والدتي عن الأطفال الجياع في إفريقيا، وقلت إنهم يمكنهم أن يأخذوا نصيبي من يخنة الكرنب، وعندها قالت والدتي إنني أناني وإن هذه صفة سيئة، ربما ورثتها عن والدي، وأنا يجب أن آخذ من هارتموت مثالًا يحتذى، وهو ما فعلته بالفعل.
سألت نفسي، ما هو غير العادي، في عدم تناول الطعام لمرة. لا يحدث ذلك كثيرًا، ولكن بين الحين والآخر عندما نكون خارج المنزل، أو إذا كانت والدتي غير موجودة، فإننا نتغاضى عن تناول وجبة. ثم تبدأ المعدة في التذمر، ولكن غير ذلك فليس هناك شيء مقلق، لأنني تعلمت في المدرسة أن الشخص يمكنه الاستغناء عن الطعام لمدة ثلاثين يومًا، ولكنه يمكنه البقاء ثلاثة أيام فقط دون شرب الماء. ولا يبدو أن هارتموت يريد الاستغناء عن الشراب.
كان عليَّ أن أفكر في والدي، الذي تخلى أيضًا عن تناول الطعام ذات مرة، لأن والدتي رأت، أنه سمين للغاية، ثم أكل فقط نصف طعامه، وهو الاسم الذي أطلقه عليه، حتى إنه كان هناك اختصار له، ك. ن. *كل النصف*. لكن ومنذ اليوم الأول، دار نقاش بين والدي ووالدتي، لأنهما اختلفا حول ما هي كمية هذا النصف. أخذ والدي نفس الكمية التي كان يتناولها من قبل، لكنه كان يقول إن هذا هو نصف ما يتناوله في المعتاد، وقالت والدتي إنه إذا كذب على نفسه، فلن يفقد الوزن. لكن الأمر مع هارتموت، بحسب ما فهمت، كان مختلفًا.
سألت: *لماذا لا يريد أن يأكل بعد الآن؟*.
قال والدي: *لأنه مختل عقليًّا*.
سألته: *وإلى متى لا يريد أن يأكل؟*.
قال والدي: *هذا سؤال جيد. إذا كان الأمر متروكًا لهذا الـ جروندلر، فإنه سيتضور جوعًا حتى يغير هيلموت شميدت من سياسته، ولهذا سيتعين عليه أن يتضور جوعًا. سيكون من اللطيف أن ترضخ الحكومة لأن أحد المختلين عقليًّا قد قرر عدم تناول الطعام بعد الآن. تخيل هذا! سيكون هناك شخص ما يضرب عن الطعام طوال الوقت. عزيزي المستشار، اسمي كورت كيلستربيرج، وقررت أن أضرب عن الطعام لأنني لم أعد أشعر أنني أريد أن أدفع الضرائب. ما رأيك يا هانو؟ هل ستقول الحكومة: حسنًا، فلنتنازل

مستقبليًّا عن الضرائب؟ أنت ترى، أن هذا كله هراء. لا يجوز للحكومة أن تدع أحدًا يبتزها، لا من قبل الإرهابيين ولا من المختلين*.
لقد كان ما قاله والدي منطقيًّا بالنسبة لي. عندما يقرر فجأة ألف شخص الإضراب عن الطعام، ويقدم كل منهم أي مطالب، لم يكن ذلك ممكنًا حقًا، لكن هذا لم يثِر اهتمامي كثيرًا، فهناك فكرة أخرى لم تترك رأسي: إن هارتموت يجب أن يموت جوعًا. وكانت تلك هي النتيجة المنطقية، فكما قال والدي، لن يترك هيلموت شميدت أحدًا يبتزه.
قال والدي: *لكنك جلبت إلينا فعلًا شخصًا غريبًا إلى المنزل!* ثم التفت إليّ: *لا تقلق، سوف يفكر هذا الـ جروندلر ثلاث مرات قبل أن يقدم على هذا الإضراب*. رأيت، كيف أن والدتي أخذت الرسالة.
عندما كنت راقدًا في السرير في ذلك المساء، جاءت والدتي إلى غرفتي. لم تشعل الضوء، لكنها تركت الباب مفتوحًا نسبيًّا، ليسقط وهج من ضوء الردهة إلى غرفتي وينتهي قبل سريري مباشرة. كنت سعيدًا بقدوم والدتي، على الرغم من أنني كشفت عن سرنا، وخفت من أنها لا تريد أن تعرف عني شيئًا بعد الآن.
سألتني هامسة: *هل أنت نائم بالفعل؟*.
فكرت بسرعة في ما هو أفضل: أن أتصرف وكأنني نائم، أو أن أجيبها.
وقلت: *لا*.
قالت وهي تبحث عن يدي: *أردت أن أتحدث إليك حول الرسالة مرة أخرى*.
تحسست ذراعي، ثم وضعت يدها فوق يدي. وقالت: *هارتموت ليس مختلًّا عقليًّا، لقد قرأت رسالته. إنه خائف فقط، من محطات الطاقة النووية هذه. من الممكن أن تكون خطيرة جدًّا بالفعل. أنت تعرف، مدى خطورة القنبلة الذرية. ومحطة الطاقة النووية هذه مثل القنبلة الذرية، من الممكن أن تنفجر في أي وقت*.
ما زلت أتذكر كلمات والدتي تلك جيدًا، لأنها كانت المرة الأولى التي تخيفني فيها بهذه الطريقة. ما زلت لا أعرف، ما إذا كانت في الواقع على علم بما كانت تخبرني به في ذلك الوقت، وما هو تأثيره على طفل يبلغ من العمر تسع سنوات. كنت أعلم أن هناك محطات للطاقة النووية، فلا يمكن حتى لطفل في ذلك الوقت ألا يلاحظ وجودها. فقد كانت هناك احتجاجات ضد بنائها، وكنت قد شاركت في إحدى تلك المظاهرات مع والدتي. لم أفكر أبدًا في كيفية عمل محطة الطاقة النووية تلك.
إلا أنني بعد ذلك المساء، كانت لدي صورة واضحة لأول مرة حول هذا الموضوع. رأيت قنبلة ذرية من قبل، بشكلها البيضاوي، كما كانت تظهر أحيانًا في بعض القصص المصورة، ولكن دون فتيل، كانت ملقاة على الأرض، فوق أرضية خرسانية قاحلة، في غرفة تشبه غرفة التخزين في البدروم، فقط كانت الغرفة فارغة -لم يكن بها شيء، باستثناء القنبلة- وكانت هناك أسلاك معلقة بها، تلك الأسلاك كان يتم من خلالها تمرير التيار. تم بناء مبنى بجدران

سميكة حول تلك الغرفة، وتساءلت عما إذا كانت تلك الجدران ستتحمل إذا انفجرت القنبلة. ولكن بما أنني رأيت صورة لهيروشيما من قبل، حيث لم يتبق الكثير من جدران المنازل، فقد شككت في أن الجدران ستتحمل. وكنت أعرف أيضًا أنه إذا انفجرت قنبلة ذرية، فلن يكون هناك أي ناجين.
سألتها آملًا أن تشرح والدتي الصلة لي: *وهل يضرب هارتموت عن الطعام، لأنه خائف؟*.
رددت قائلة: *هو يفعل ذلك من أجلنا، من أجل البشرية، وهذا هو السبب في أنه ليس مجنونًا. المجانين يفعلون أشياء لأنفسهم دائمًا، ولا يفكرون حينها في الآخرين*.
أردت أن أعرف لماذا يعتبره والدي مجنونًا إذا، وأوضحت لي والدتي أن والدي لا يفهم الأمر. وإذا كنت لا تفهم ما يفعله الآخرون، فأنت تقول إن الآخرين مجانين.
أعتقد أن والدتي افترضت أنني أفكر في الأمر، لأنني لم أقل شيئًا. ظلت هي الأخرى صامتة لفترة، ثم قالت: *أم هل يمكنك أن تتخيل أن يتخلى والدك عن الطعام طوعًا ويضرب عنه؟* لا، لا يمكنني تخيل هذا مع أفضل إرادة في العالم. قالت أمي: *أترى؟، لهذا يعتقد أن هارتموت مجنونًا*.
-*إلى متى سيضرب إذًا عن الطعام؟*.
-*حتى يقول هيلموت شميدت الحقيقة، هذا على الأقل ما يقوله في رسالته*.
-*ماذا لو لم يقل هيلموت شميدت الحقيقة أبدًا؟*.
كان من الواضح أن أمي لم يكن لديها إجابة عن هذا السؤال.
قلت: *هنا يجب عليه أن يموت، أم لا؟*.
جعل قولي هذا والدتي تتلعثم. وقالت: *لا، لا يجب عليه أن يموت*، ولكن بعد ذلك توقفت، وعلى ما يبدو، أنها قد توقفت لتستوعب المعضلة التي ستواجهها بإجابتها المتسرعة، وهي الشك في قناعة هارتموت وعقيدته ونتائجها.
فسألتها: *إذًا فهو ليس جادًّا؟*.
قالت: *بلى، أعتقد أنه جاد، وإلا فما كان ليرسل تلك الرسالة؟*.
-*ولكن إن لم يقل هذا الهيلموت شميدت الحقيقة، فهل سيبدأ هارتموت في تناول الطعام مرة أخرى؟ ما الفائدة من هذا إذًا؟*.
قالت والدتي: *في بعض الأحيان عليك أن تترك أثرًا*، وكان لدي انطباع أنها كانت سعيدة جدًّا، لأنها وجدت هذا المخرج. وأضافت *ليس عليك أن تخاف*.
وقد تمكنت على الأقل من إبعاد مخاوفي، من احتمال وجود رجل ميت في المنزل قريبًا. إلا أن هناك خوفًا آخر قد نما، وهو الخوف من محطات الطاقة النووية. وهو الخوف الذي لم يستطع حتى والدي إبعاده عني، على الرغم من أنه قال، إن هذا هراء، وإن محطات الطاقة النووية آمنة.
وقال إنها قد تم بناؤها بتلك الطريقة التي تمكنها من أن تتحمل حتى تحطم طائرة فوقها، دون أن تصاب بأذى. وهو ما جعلني أتخيل صورًا لتحطم

طائرات وأنا راقد في السرير مساءً. لم أفكر في ذلك أبدًا، على الرغم من أننا قد سافرنا بالفعل بالطائرة، إلى لندن وجزر الكناري.
لا داعي لأن تخاف، كانت تلك هي آخر كلماتها في ذلك المساء، ثم مسحت على جبهتي بيدها ثم غادرت الغرفة.
كل طفل يعرف تلك الجملة جيدًا، وكل أم، وكل أب، مخزونة لديهم في قاموسهم، وفي النهاية، نجد أنه لا توجد جملة أخرى تحمل هذا الكم الهائل من قلة الحيلة سوى تلك الجملة. ليس فقط لأن الخوف هو شعور غير منطقي، وأن التناقض يكون واضحًا في هذا المزيج الغريب من الكلمات. فالخوف تحديدًا لا يمكن التعامل معه بالعقل.
أجلس على متن الطائرة ويتسارع نبضي، وأصبح غير قادر على التركيز في أي شيء يمكن أن يشتت انتباهي، لا محادثة، ولا كتاب، ولا موسيقى، أحدق، أحاسيسي تعمل مثل أفضل أجهزة استشعار الزلازل تحس بأي اهتزاز، لا يدركه أحد آخر سواي. فلا داعي للخوف. ثم يتم احتساب احتمالية سقوط الطائرة، وشرح القدرات التقنية للطائرة، لكن ما يبقى هو الخوف، فالمشاعر لا يمكن فهمها *ما السبب؟* هذا سؤال خاطئ. لماذا أتوق كثيرًا إلى الحب الذي لا يناسبني؟ يمكن تفسير ذلك، لكن التفسير لا يغير أي شيء في الأمر، إذ يوجد هناك مئة سبب تؤكد على لماذا يجب عليَّ ألا أشعر بالخوف. ومع ذلك، كنت وما زلت أخاف.
كنت أود أن أعرف، ما إذا كانت أمي في ذلك الوقت خائفة أيضًا. ربما كان الإضراب عن الطعام هو أشد ما رأته حتى ذلك الحين، حيث أراد شخص ما أن يقتل نفسه من أجل قضية واحدة، وأن يفعل ذلك ببطء. لا بدَّ أن ذلك أخاف أمي، لأن الأمر لم يتوقف عند مجرد الإعلان عنه.

***

أتذكر عندما جلسنا سويًّا لتناول القهوة بعد كارثة *فوكوشيما*، وتحدثنا عن ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى المطبخ حاملًا الرسالة، وأخبرتني والدتي أن هارتموت سألها إذا كان يمكنه البدء في الإضراب عن الطعام من منزلنا. كان يريد أن يضرب في شقته في الطابق السفلي، ويكون على والدتي أن تعتني به، وتجلب له العصير، وتتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. أنا لم أتمكن من تصديق ذلك.
ما مدى عناد وجهل شخص يريد أن يدخل في إضراب عن الطعام وهو موجود في منزل به أسرة؟ أمام عيني طفل! حقيقة أن هارتموت -على ما يبدو- لم يفكر في الأمر، ما زال يجعلني أشعر بالغضب بعد أكثر من ثلاثين عامًا. أردت أن أعرف كيف كانت ردة فعلها.
-*قلت له إنه يجب عليَّ أن أسأل زوجي أولًا*.
-*وماذا قال أبي؟*.
-*سأل ما إذا كان جروندلر هذا معتوهًا تمامًا*.
-*وماذا قلت لهارتموت؟*.

-*إن هذا غير مقبول، لأن زوجي لا يريد ذلك*.
-*وأنت؟ ماذا كنت ستقررين، إذا ما كان الأمر عائدًا إليك؟*.
ترددت أمي وقالت: *لا أعرف، أعني، نحن لا نفعل ذلك من أجل المضرب عن الطعام، بل من أجل القضية التي أضرب من أجلها. أتفهم ماذا أعني؟ عليك أن تختار بين القضية والإنسان. ولا أدري ما إذا كنت لأتخذ ذلك القرار في ذلك الوقت. لم أكن أعرف هارتموت حقًّا بعد، كنت لا أزال أتعرف عليه*.
لم يكن هذا بالضبط ما أردت سماعه. لا بدَّ أنه كانت هناك أسباب كافية، تمنعهم من إيواء رجل يريد الإضراب عن الطعام في منزلنا. إذا أحضرت شخصًا جائعًا إلى منزلك، فذلك يكون فقط من أجل مساعدته على استعادة قوته مرة أخرى. لكن عليك ألا تدع شخصًا سليمًا يجوع.
وفي البداية وقبل كل شيء، لا يُسمح لطفل بالمشاركة في مشاهدة التدهور الجسدي لشخص ما. كان ينبغي على والدتي أن تقول إنها لن تسمح بالإضراب عن الطعام في منزل يعيش فيه طفل، وكان بإمكانها أن تسأله إن لم يكن قد فكر في هذا، أم أن هوسه بقضيته قد جعل كل الناس من حوله سيان بالنسبة له. ولكن يبدو أنها لم تقل كل ذلك، وتركت اتخاذ القرار لأبي.
سألتها: *هل شعرت بالأسف لعدم مساعدتك له بعد ذلك؟*.
نظرت إليها. لكن والدتي لم تبدُ أنها قد تأثرت باعتراضي. شيء واحد فيها كثيرًا ما أذهلني وجرحني: *غيابها عن الواقع*، كما لو كانت منشغلة الفكر طوال الوقت بشيء آخر. لطالما سألت نفسي، ما إذا كانت قد استمعت لي في الأساس، أم أن أفكارها كانت في مكان آخر، أم أنها لم تَرَ ببساطة أي سبب لإبداء أي ردة فعل. كان من الممكن أن تواصل حديثها وكأن شيئًا لم يكن، أو أن تسألني إذا كنت لا أريد المزيد من القهوة، وكانت تقولها بنبرة صوت محايدة تمامًا.
لذلك بدلًا من الإجابة عن سؤالي، بدأت تتحدث عن الأمر، الذي لم يعط هارتموت أي خيار آخر. ففي النهاية، لم يقم هيلموت شميدت بالرد على رسالة هارتموت، لذلك لم يكن لدى هارتموت خيار سوى تنفيذ تهديده. وإلا كان سيعرض مصداقيته للخطر. علمت أن هارتموت قد حاول إقناع والدتي بخططه. وأن شميدت، بصفته المستشار الألماني، قد أقسم يمينًا، بأن يكرس كل قوته لرفاهية الشعب الألماني، وأن يبعد عنه أي ضرر قد يلحق به، وأن يؤدي واجباته بضمير حي. في حدود توفيق الله له.
كان واجبه الأهم -كما أوضح هارتموت لوالدتي- هو واجب تقديم المعلومات بطريقتين: كان عليه واجب نحو نفسه من ناحية ونحو الشعب من ناحية أخرى، وإبلاغه بالحقيقة بكل صدق. وبخلاف ذلك، لن يستطيع الشعب الحفاظ على كرامته ولا ممارسة سيادته، ولا أن يكون هناك تنوع، ولا أن يحافظ على حياته وسلامته البدنية. لكن الطريقة التي تُعلم بها الحكومة الشعب حول الطاقة النووية، لم تكن سوى خرق مستمر لواجبها، وذلك من خلال التستر على التقارير عن الحوادث، والتقليل من تبعاتها، والتستر عليها، وقمعها، حتى

إنها كانت تسميها بعد ذلك حوادث عارضة. متى أوضحت الحكومة للناس أخطار البلوتونيوم؟ والسيزيوم؟ متى أعلمتهم بالضرر الذي يلحق بالجينات الوراثية، أو بالتهديد الذي يلحق بها على المدى القصير أو المتوسط؟ متى كانت ستخبرهم بخطط إدارة الكوارث؟
كان الحديث يدور دائمًا حول المزايا المتوقعة من الطاقة النووية. ولأن غاندي كان قد علمنا بالفعل أن الكلمات دون وسائل ضغط -وهي هنا تتمثل في الحياة- لم يكن لها أي تأثير، لذلك وجد هارتموت نفسه مضطرًّا إلى توضيح وجهة نظره من خلال وضع إضرابه عن الطعام موضع التنفيذ. قال: إن تلك هي الطريقة الوحيدة.
ثم وضع يده على ذراع أمي، الأمر الذي فاجأها كثيرًا في ذلك الوقت، حيث إن هارتموت لم يكن من محبي الاقتراب من الآخرين آنذاك. وقال إنه بحاجة إلى مؤيدين، بحاجة إلى أناس يؤمنون بالحقيقة، وأن يبرزوا من بين الحشد الصامت. قال لوالدتي: *ساعديني في الإضراب عن الطعام*. وقالت هي لي: *لك أن تتخيل أنني لم أتوقع ذلك. وشعرت بغباء شديد، لأن الشيء الوحيد الذي أجبته به كان: *عليَّ أن أسأل زوجي*. أومأ هارتموت فقط برأسه، لكني رأيت شيئًا من الازدراء في نظرة عينيه. لم يكن هو خائفًا على حياته، أما أنا فكان عليَّ أن أسأل زوجي أولًا.
لم يكن هذا ليصدر عن امرأة صاحبة موقف. وبدا لي أنني قد سقطت من نظره كثيرًا. كنت قد لاحظت هذا على الفور، وحاولت تشتيت انتباهه بسؤالي عن تصوره عن كيفية الإضراب عن الطعام وما إذا كان لا يخاف من رد فعل جسده. لكنه لم يرد على سؤالي هذا، لأنه ربما ظهر له أنني لم أفهم المعنى الأساسي من هذا الموضوع. ثم ودعني قائلًا إنه لا يستطيع إذًا الاعتماد على دعمي. وقلت له على الفور، بلى، دون أن أفكر في تبعات ذلك حقًّا. لا أعرف إذا كنت تفهم ذلك، ولكن الأمر كان يتعلق بي، كان يتعلق باتخاذي لقرار ولو لمرة واحدة، والقتال من أجل شيء مرة واحدة.
أخبرت والدك أن هارتموت كان جادًّا في تهديده بالإضراب عن الطعام، فهز رأسه وقال إنه مجنون، هذا الـ جروندلر، ولكن إذا أراد أن يدمر نفسه، فليمض قدمًا، فنحن نعيش في نهاية الأمر في بلد حر. ثم أخبرته أن هارتموت سألني إذا كان بإمكانه الإضراب عن الطعام في شقته في الطابق السفلي، حينها نظر إليّ والدك في رعب، كما لو كنت قد أخبرته للتو أنني أريد أن أضرب عن الطعام أيضًا. وقال *أولًا: إنها شقتنا في الطابق السفلي. وثانيًا: آمل أن تكوني قد أخبرتِه أنه مصاب بشيء من الجنون. كيف يتخيل ذلك المجنون أن يفعل ذلك؟ إضراب عن الطعام في منزلنا؟ هل يريد أن يجعلنا متعاطفين؟ ماذا سيفكر الناس؟ وهل فكر في هانو؟ الصبي ذي الأعوام التسعة! هل يجب أن يرى كيف يوقع رجل كبير نفسه في الموت؛ ويعتقد أيضًا أن هذا شيء جيد؟**. قالت والدتي، وهي تنظر إلى عيني للمرة الأولى: *قد يبدو هذا الأمر غريبًا، لكنني لم أستطع أن أخبر والدك أنني قلت لهارتموت

إنني يجب عليَّ أن أسأل زوجي. كنت سأتخلى عن وجودي. لذلك لم أقل أي شيء آخر لوالدك، وما زلت أعتقد أن تلك اللحظة هي التي ساعدت على انفصالنا في النهاية.
قد تعتقد أن لحظة لا يمكن أن تكون كافية لتغيير الحياة. ولكن تلك اللحظات موجودة. لحظات المعرفة التي تغير كل شيء. لقد حظيت بلحظة من هذا القبيل وقتها، وشعر والدك بها ولم يستطع التعامل معها. أتعلم، بعد سنوات تلقيت مكالمة من أديل ترامبيتز، كان زوجها ناشطًا أيضًا في الحركة المضادة للطاقة النووية. كان لديهم أيضًا طفل. اتصلت بي لأنها عرفت أن هارتموت كان يعيش لدينا. تحدثنا عن هارتموت، ثم كشفت لي أن زواجها قد فشل لأن هارتموت أراد الدخول في إضراب عن الطعام لديهم في المنزل. كما ترى، شيء من هذا القبيل يمكنه أن يغير الحياة*.
في ذلك اليوم سمعت عن المكالمة لأول مرة في مطبخها. قال لي كلاوس ترامبيتز شيئًا، لقد كان نمساويًّا وأحد الرواد في النزاع حول محطة *زوينتندورف* للطاقة النووية، والتي كان يجري التخطيط لها في ما بعد. اكتشفت أن هارتموت كان يريد أن يبدأ في إضراب عن الطعام عند كلاوس ترامبيتز، وأن زوجته عندها شكت –في ما يبدو- في أهلية الرجلين وقدمت دعوى طلاق بعد ذلك بعام. لقد شعرت بالغضب لأن هذه القصة كان يجب أن تكون دليلًا، على كيف أن الإقدام على الإضراب عن الطعام في منزل به أسرة هو شيء غير مسؤول. إلا أنه يبدو أن والدتي قد توصلت إلى استنتاجات أخرى من هذه القصة. قلت إنه يمكنني أن أتفهم قرار المرأة جيدًا. عندها ردت والدتي أنه ليس من السهل الموازنة بين المصالح الشخصية ومصالح المجتمع. وأنه لا أحد يضرب عن الطعام لمجرد التسلية.

***

إذًا لقد كان لدى هارتموت زيجات أخرى تصدعت بسببه، ويحمل وزرها. من الواضح أن الإضرابات عن الطعام في منازل العائلات كانت أمرًا عاديًّا بالنسبة لحساباته.
أعرف الآن أنه حاول استغلال الأمهات والأطفال كأدوات، خاصة في المرحلة الأخيرة من نضاله. هذا ما يمكن قراءته في الملاحظات التي ذكرتها والدتي. يجب أن أفكر الآن في صورة ظلت موجودة لسنوات عديدة على مكتب والدتي. نحن نقف معًا وسط سلسلة بشرية، يدًا بيد، وأنا أقف بين هارتموت ووالدتي، وعلى حافة الصورة، سياج من رجال الشرطة مرتدين خوذاتهم وحاملين هراواتهم. كان هارتموت يرى نفسه جنديًّا في الحرب ضد اللوبي النووي. كان خطابه مطابقًا لهذا أيضًا. تحتوي رسائله ومنشوراته على عبارات مثل *نكتة دموية* و*مواقف لا يمكن تحملها* و*تراجع منظم* و*هجوم مفاجئ* و*أمتعة الهجوم* و*قتال قريب*.
لم يكن من الواضح لي في ذلك الوقت أنني جندي، طفل جندي. كان يجب على الأمهات أخذ أطفالهن في أيديهن ومواجهة الشرطة معًا. لأنه، وبحسب

الدافع الخبيث، لم يكن لضباط الشرطة أن يضربوا الأمهات والأطفال.
أتساءل الآن كيف فسرت والدتي تعبير ابنها السعيد في الصورة. كسعادة طفل يضع يده في يد أمه، أم كسعادة طفل جندي، يقاتل من أجل الخير.
تظهرالملاحظات المدونة في أرشيفها أيضًا، أن هارتموت تحدث كثيرًا مؤخرًا عن تسع أمهات من *فورارلبرج*، أضربن عن الطعام في فيينا أمام مبنى *المستشارية الاتحادية* احتجاجًا على محطة الطاقة النووية المخطط إقامتها في *زوينتندورف*. وقاد أيضًا نساء *فاينسبرج*، اللواتي أنقذن حياة أزواجهن، وفقًا للأسطورة، من خلال الحصول على وعد من الملك كونراد، الذي حاصر قلعة *فاينسبرج*، وهدد بقتل الجميع، إلا أنه وعد بترك جميع النساء مع ما يمكنهن حمله. وهنا قررن حمل رجالهن إلى الحرية.
***
لم يقم هارتموت بإضرابه عن الطعام حينئذ لا عند ترابيتز ولا عندنا وإنما في *كاسل* وقد كان ذلك في ديسمبر ١٩٧٦. كم أتذكر ذلك اليوم جيدًا فقد كانت هذه هي المرة الأولى بالنسبة لي من بين عشرات الرحلات مع أمي إلى *جروندا* و*كولونيا* و*دورتموند* و*هامبورج*. كل تلك الرحلات تمت بالتنسيق مع هارتموت ولم تكن تدور إلا في سياق حماية البشرية من الخطر النووي.
بدأت الرحلة إلى *كاسل* في أحد أيام السبت، وهذه المعلومة أعرفها بدقة، لأن بطولات الدوري الألماني، *البوندس ليجا*، الرياضية طالما كانت تقام أيام السبت وإذا لم نذهب للاستاد فعلى الأقل لا بدَّ أننا -أبى وأنا- كنا نُلقي نظرة على النشرة الرياضية بالتلفاز. وفي هذا السبت بالتحديد كانت أمي تخطط لي شيئًا آخر حيث كان يجب الالتقاء بصديقة عندها ابن في مثل عمري، كما أخبرتني أمي بذلك عند الإفطار. لم يكن لدي أي رغبة في مقابلة صديقة لأمي واللعب مع ابن لا أعرفه. كم كانت هذه من أسوأ المواعدات، خاصة عندما كان والدايّ يعتقدان أن المرء سيتفاهم بالضرورة مع شخص آخر في نفس عمره.
وفجأة تم عند الباب تقديمي لشخص يُسمى *بنيامين* والذي كان عليه اصطحابي إلى غرفته، ولأنه لم يكن في الوسع فعل شيء حيال ذلك، قمت باتباعه بينما كانت أمي خلفنا تصيح: *العبا جيدًا معًا*. لم أكن حقًّا أريد اللعب فنظرت إلى والدي الذي كان يجلس معنا على المنضدة لأستجدي المساعدة، وغالبًا ما كان يُجدي ذلك، خاصة أن أبي لم يكن دائمًا يرغب في ذلك عندما كانت أمي تُرتب زيارة وتُصر على أن تُسمعنا أننا نادرًا ما نختلط بالناس وأن قضاء بضع ساعات مُمتعة مع أناس آخرين ليس بالمطلب الكثير.
-*أخ، مارتا، دعي هانو هنا، فقد كنت أرغب في اصطحابه معي لترتيب الجراج*.
أحيانًا كان يجدي ذلك رغم أنه لم يكن دائمًا يتعلل بالجراج ولكن أحيانًا كان يتعلل بأننا سنجز الحشائش معًا أو نقوم بشراء أي شيء، وكنا نادرًا نقوم

ً

بذلك حقًّا.
وبدلًا عن ذلك كنا نقوم بجولة لرش الماء مع *إلهته* أو نذهب للسينما.
شاهدنا سويًّا أنا وأبي *إنهم يسمونه ذا القدم المسطحة* و*اثنان خارج الحدود والفريق*. لقد أحببنا بود سبنسر وترانس هيل وكنا غالبًا ما نشاهد أفلامهما، حتى إننا كنا نذكر الحوار بها مع الممثلين، وكان والدي يهددني في كثير من الأحيان مازِحًا بأننا سنشاهد فيلم *الصفعات والفاصوليا* كما اعتبرنا لفترة عملية التجشؤ أمرًا طبيعيًّا، حتى أبدت أمي ملاحظتها بأننا ربما يجب علينا مشاهدة أفلام أخرى. عندها شاهدنا فيلم *القرش الأبيض*، ولم أحظ بعدها بالنوم لعدة ليالٍ.
أما في ذلك السبت تحديدًا فلم يهم والدي لمساعدتي، مما كان يمكن بالطبع في ما بعد تخمين أن هذا كله كانَ له علاقة باللحظة التي تحدثت عنها أمي.
وقتها قال أبي فقط: *تود أمك أن تصحبك معها في رحلة؛ اذهب معها؟*
سألته: *ولماذا لن تأتي أنت معنا؟* فأجابني: *إنها لم تسألني ذلك*. ولكن أمي لم تكلف نفسها عناء محاولة استدراك الموقف وسؤاله. حينئذ قال والدي: *النساء يردن دائمًا البقاء معًا، لذلك لا أريد الإزعاج*.
ركبنا أنا ووالدتي السيارة في وقت متأخر من الصباح وبمجرد وصولنا إلى طريق الشلال أخبرتني والدتي أننا لسنا ذاهبين إلى صديقة وإنما إلى هارتموت.
عرفتُ في مساء يومٍ قبل ثلاثة أسابيع أن هارتموت لم يعد يسكن لدينا عندما أردت أن أُحضر له الطعام كالمعتاد. وقتها أخبرتني أمي بأن هارتموت قد انتقل من المنزل مؤقتًا ولكنه سوف يعود لاحقًا. أردت أن أستفسر عن موعد عودته إلا أنها قالت إنها لا تعلم بالتحديد، ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة. عرفت في السيارة أنه يعيش حاليًا في *كاسل*. وسألتها: *ماذا يفعل هناك؟* وهنا اكتسب صوت أمي نبرة مختلفة، نبرة جادة وهادئة، تلك النبرة التي كانت تشرح لي بها لماذا يجب عليَّ أن أحصل على درجات جيدة في المدرسة لأن هذا يتعلق بمستقبلي حتى لا تنتهي بيَ الحال كأحد عُمال الشوارع، وهو ما لا أود حدوثه بالتأكيد.
قالت أمي: *هانو، هل تتذكر خطاب هارتموت؟*.
فأجبتها: *نعم*.
فقالت لي: *لقد انتقل هارتموت مؤقتًا حتى يحقق ما سبق أن أعلن عنه. هارتموت بدأ في الإضراب عن الطعام*.
لقد كان أبي محقًّا إذًا هكذا عقبت، *هذا المدعو هيلموت شميدت لم يجبه*.
قالت أمي: *على ما يبدو*.
سألتها: *منذ متى بدأ إضرابه عن الطعام؟*.
فأجابت: *منذ أسبوع*.
أتذكر كيف أنني سألت نفسي وقتها إذا كان من الممكن أن يرى المرء ضلوعه، حيث كان هذا بالنسبة لي الدليل المنذر بالنحافة فقد اعتدت في ما

مضى أن أشفط بطني جدًّا حتى يستطيع المرء أن يعد ضلوعي. كما كنت الأنحف بين زملائي دائمًا وكنت فخورًا لأن الباقين لا يستطيعون المواصلة عند مسابقات شفط البطن، فعندما كان جان السمين مثلًا يشفط بطنه لم يكن المرء يلاحظ الفرق حتى إننا كنا نقول له: *اشفط بطنك الآن* فكان يجيب بصوت مكتوم أنه قد فعلها بالفعل.
لقد كنت أستمتع بشفط البطن لأن ذلك كان يفزع والدي لدرجة أنه كان أحيانًا يبقي عينيه مغمضتين ويصرخ: *أيها الولد أنا لا أستطيع أن أنظر إلى هذا المنظر*.
سألت أمي: *لماذا لم نخبر والدي بوجهتنا؟*.
فقالت لي: *أبوك لن يتفهم ذلك*.
-*هل نخدعه؟*.
بدا على أمي أنها تُفكر في الأمر. كانت تجلس مستقيمة على مقعد القيادة بعكس والدي الذي كان يلقي بظهر الكرسي بعيدًا إلى الخلف ويتولى القيادة بيد واحدة مما كان يجعله يبدو مُسترخيًا جدًّا خاصة عند تجاوز سيارة أخرى، وهو الشعور الذي لم يكن متوفرًا أبدًا عندما كانت أمي هي التي تقود السيارة.
قدنا السيارة لفترة في الحارة اليُمنى من الطريق، وبعد أن فقدت الأمل في الحصول على إجابة، قالت أمي: *نعم، سيظل هذا سرنا. والدك لا يجب أن يعرف كل شيء*.
اليوم أصبحت متأكدًا من أن أمي كانت في ذلك اليوم تنازع نفسها في السيارة. فقد تحدثت عن تلك اللحظة، عن أنها كانت ترغب في إظهار موقفها، ثم اختارت بعد ذلك الكذب. ربما اتهمت بعد ذلك أبي بالمسؤولية عن ضعفها.
لم نتحدث عن هارتموت حتى وصولنا إلى *كاسل*. فقد كنت أنظر خارجًا وكانت أمي تركز في القيادة بينما كان الراديو يذيع خبرًا عن ابن د. أوتكر الذي اختُطِف في اليوم السابق. لقد كنت أعرف اسم د. أوتكر من خلال عبوات البودينج التي كنت أحب أكلها. واحد وعشرون مليون مارك ألماني كانت الفدية التي طلبها المختطفون لإطلاق سراحه.
لم أكن أعرف أن المرء يمكن أن يغتني إلى هذا الحد عن طريق البودنج، ثم سألت أمي كم كانت لتدفع لاستردادي إذا ما تم اختطافي. أجابتني أمي أن لا أحد سيود خطفي فلا يجب أن أحمل همًّا لذلك.
فسألتها: *ولكن ماذا إن حدث ذلك فعلًا؟* فأجابتني بأنهم سيبيعون كل ما يملكون.
فسألت: *المنزل؟ الشركة؟ السيارات؟ كل شيء؟*.
فأجابتني: *نعم. كل شيء*.
-*أليست هذه قيمة كبيرة؟* سألت أمي فأجابتني بأنها كذلك ولكنها أقل من قيمتي.

لاحقًا سألت أبي عن قيمة المنزل والشركة والسيارات فأخبرني بأنهم يبلغون نحو مليون أو اثنين ثم سألني عن سبب سؤالي فقلت له: *لمجرد العلم*.
في وقت ما بعد الظهيرة وبعد الكثير من الاستفسار المضني وقفنا أمام منزل مكون من طابقين. لم يبد الأمر وكأننا نشق طريقنا وسط حشود من الصحفيين. فبخلافنا لم يبد أحد آخر مهتمًّا لأمر هارتموت. دقت أمي الجرس ففتح شاب صغير الباب فقالت له أمي إننا نريد زيارة هارتموت فأدخلنا الفتى وقادنا إلى الطابق الثاني مرورًا بحجرات عديدة. كان هناك باب مفتوح بحيث إني استطعت أن ألقي نظرة بالداخل. كانت الجدران مدهونة باللون الأخضر، بينما كانت هناك مرتبة على الأرض وصندوق فواكه مقلوب ليستخدم كمنضدة عشاء. تناثرت الملابس في كل مكان، كما كانت هناك لوحة معلقة على الحائط لوجه رجل طويل الشعر يرتدي قبعة ويسمى *شي*، وهو اسم لم أسمع به من قبل.
وقف الشاب الذي اصطحبنا والذي اتضح أنه كان طالبًا أمام أحد الأبواب وطرقها. علمت بعد ذلك أن ثمانية أشخاص كانوا يعيشون في هذا المنزل، وهو ما يُسمى بسكن جماعي. أوضحت لي أمي أنه في السكن الجماعي يعيش أناس سويًّا، رجال ونساء ويتبادلون إعداد الطعام والتنظيف، ويتفقون على كل شيء. استقبل هذا السكن الجماعي هارتموت بعد أن أزعجه السكن في منزل الطلبة حيث كان يسكن سابقًا. فتح هارتموت الباب بنفسه مما أدهشني جدًّا. لم أكن أعرف ما الذي كنت أنتظره بالتحديد، لكني لم أتوقع بالتأكيد أن يفتح هو الباب بنفسه. لقد بدا كل شيء كالمعتاد فسألت نفسي ما الذي قد يكون مميزًا في الإضراب عن الطعام إذًا.
كان هارتموت يرتدي بلوفر، بحيث إني لم أستطع أن أجزم إذا ما كانت ضلوعه تظهر. حتى إني لم أستطع أن أقدر إذا ما كان وجهه قد نحف بعض الشيء أم لا، وذلك لأن هارتموت كان نحيفًا بالفعل من قبل. أخبرنا الطالب الذي اصطحبنا أن نطلبه إذا ما احتجنا لشيء، ثم تركنا. انتابتني حالة من خيبة الأمل أو بالأحرى من الحيرة. أهكذا إذًا يبدو الإضراب عن الطعام؟ لقد توقعت أنه سيكون شيئًا خطيرًا فقد تحدث أبي في هذا السياق عن الموت، ولكن هارتموت لم يكن يبدو عليه أنه سيموت بالرغم من أني لم أستطع معرفة كيف سيبدو أحد الأشخاص الذي أوشك على الموت، فلم يسبق أبدًا أن رأيت شخصًا ميتًا. كم كانت هذه الظهيرة في غاية الملل لدرجة أني تمنيت لو أننا كنا ذهبنا إلى تلك الصديقة ذات الابن.
جلست في تلك الحجرة الصغيرة على كرسي مكتب ونظرت للخارج حتى أعطتني أمي بعض الأوراق والأقلام الملونة فبدأت في رسم شبكات المرمى الخاصة بكرة القدم. كم كنت بارعًا في رسمها، عارضة أفقية، قائمين خشبيين، كما ابتدعت لنفسي في رسم الشبكة تكنيكًا يظهرها كشبكة فعلية. ثم رسمت بالخطوط حارس المرمى في صورة رجل ورسمت لاعبًا ومساره وحددت بالأسهم طريق انطلاق الكرة، التي كانت تستقر في كل صورة في

مكان مختلف من المرمى. جلس كل من أمي وهارتموت فوق السرير حيث لم تكن هناك إمكانية أخرى للجلوس في الحجرة الصغيرة. كنت أسمع صوت حديثهما لكني لم أنتبه لما يقولانه.
وفى وقت ما سحبت من جيب السُّترة شيكولاتة *رايدر* التي أحضرتها معي للطريق ثم مزقت الغلاف وأخرجت قالبًا منها ولاحظت نظرة الذعر التي رمقتني بها والدتي، ففكرت قليلًا لماذا تنظر لي هكذا واعتقدت أنه ربما لأنني لم أقدم شيئًا منه لهارتموت *عرفت من والدتي أنها لا تحب الشيكولاتة*.
التفت وأشرت إليه بقالبيّ الشيكولاتة وقلت له: *تستطيع أن تأخذ أحدهما*.
نظر إليّ وقتها نظرة غير ودودة فسألت نفسي: *لماذا؟*.
لقد كنت أعلم أنه كان من المهم بالنسبة لأمي أن تراني أحسن التصرف حتى لو لم يكن يعجبني مشاركته الحلوى ولكنني كنت فخورًا جدًّا في تلك الظهيرة لأنني خطر ببالي فكرة أن أقدم شيئًا لهارتموت. لكني فكرت أنه ربما لم يكن يحب هذا النوع، ولكنه في هذه الحالة لم يكن له ليرمقني بتلك النظرة الغاضبة وإنما كان عليه أن يقول مثلًا أشكرك، فهذا ما كانت أمي تحرص على أن أقوله عندما يقدم لي أحد ما شيئًا لا أحبه. أزاح هارتموت القالب من أمامه فنظرت إلى أمي لأنني لم أكن أدري ماذا حدث.
ربما لم يكن يتحمل أكل قوالب الشكولاتة مثل زميلي في المدرسة الذي لم يكن يتحمل تناول البندق حيث جحظت عيناه للخارج -فقد عاصرت ذلك الموقف بنفسي- ولم يستطع التنفس لأن حلقه تورم من الداخل. التفت بعد ذلك لرسوماتي لكنني لم أجرؤ على أكل قالب الشكولاتة وسمعت أمي وهي تعتذر لهارتموت إلا أني لم أفهم شيئًا أبدًا لأنها في العادة تعتذر عندما لا أقدم شيئًا أما الآن فهي تعتذر فجأة لأنني أردت أن أشاركه الشكولاتة.
علمت في طريق العودة أني وضعت هارتموت في تجربة لا يستهان بها حيث إنه ضعيف تجاه الشيكولاتة -وهذا ما لم أكن أعرفه بالطبع- علاوة على أنه لم يأكل شيئًا منذ أسبوع. قالت لي أمي: *لم يكن هذا تفكيرًا متدبرًا منك. ألم تكن تستطيع الانتظار حتى نكون في السيارة*. لم أعقب بشيء لكنني وجدت هذا غير لائق من أمي لأنني كنت أحاول أخيرًا التصرف بأدب، وكون هارتموت لا يريد الطعام فهذا ليس ذنبي، رغم ذلك بدا الأمر بعد ذلك وكأنه كان ذنبي إلى حد ما.
لم أقص على والدي أي شيء عن هارتموت أو السكن الجماعي بالرغم من أن الأفكار لعبت بي لفعل ذلك على سبيل العناد. عندما سألني إذا ما كنت تسليت، افتعلت أني لم أسمعه لأنني كنت أعرف أني كنت سأسبب لوالدتي رعبًا كبيرًا، حيث إن زيارتنا لهارتموت كان يجب أن تظل سرًّا بيننا. كانت أمي تُعد السفرة وبدت فجأة كما لو كانت تصلّبت في مكانها، كانت قد وضعت طبقًا على المنضدة ولكن ذراعها ظلت ممدودة. بينما كان أبي ينظر إليّ وأنا أراقب الجزء الرياضي في الجريدة التي كانت أمامي على المائدة؛ فقد كنت أحب دائمًا مشاهدة صور الألعاب وأتخيل أني أحد هؤلاء اللاعبين الذين قفزوا

ليحققوا ضربة بالرأس أو الذين اختفوا وسط هتاف اللاعبين.
سأل والدي: *هانو؟ لقد سألتك إذا كنت قد تسليت اليوم؟*. تظاهرت بأنني لم أسمعه من قبل ورفعت نظري من على الجريدة وحدقت به. بينما نظرت بطرف عيني إلى أمي التي اعتدلت في وقفتها ولكنها ظلت واقفة أمام المنضدة. أومأت برأسي. وبعد برهة قلت: *لقد لعبنا لعبة لا تغضب*. أومأ أبي راضيًا وقال: *أرأيت؟ لقد كان من الجيد أنك ذهبت*.
التفت مرة أخرى إلى الجريدة وانتظرت حتى رصت أمي جميع الصحون على المنضدة ووضعت الشوك والسكاكين بجانبها ثم سألت والدي: *ماذا فعل هذا المدعو جروندلر؟* فسألني والدي: *ما الذي جعله يخطر ببالك؟* أجبته في ما حاولت ألا أنظر إلى أمي: *خطر ببالي لأنه قرر أن يضرب عن الطعام فسألت نفسي إذا ما كان هذا المدعو هيلموت شميدت قد استجاب له*.
قال والدي: *يا فتى، لعلك تعتقد أن هيلموت شميدت رئيس الحكومة الاتحادية سيجيب ذلك المجنون؟ تخيل لو أنه أجاب على خطابات الجميع فإنه سوف ينشغل بكتابة الخطابات والرجل لديه بلد كامل ليحكمه*.
ـ *هل يعني ذلك أن هارتموت يجب أن يضرب عن الطعام حاليًا؟*.
ـ *أنا لا أعلم ماذا يفعل ولا أين هو حتى فهذا أمر لا يهمني على وجه الخصوص. أعتقد أنه يجب عليك أن تسأل أمك*.
قالها واستدار ناحية والدتي التي كانت تقف وراءه: *أنت تعرفين بالتأكيد أين يختبئ هذا المدعو جروندلر؟*.
ـ *أنا..*. هنا جلست أمي، وأخذت نفسًا عميقًا. لم تفارق تلك اللحظة ذاكرتي حتى اليوم. لقد كنت متأكدًا أن أمي كانت تود إخبار أبي بأنها لا تعرف أين يختبئ هارتموت ولكنها فكرت في الأمر مرة أخرى.
أخذت أمي نفسًا عميقًا آخر وبدأت المرافعة في قضية هارتموت. أعتقد أنّ أبي كان مندهشًا وقتها لدرجة أنّه لم يخطر بباله أن يقاطعها وظل ينظر إليها صامتًا حتى بعد انتهائها. لقد أوضحت له ولي أيضًا، حيث إنها كانت تنظر إليّ، إن هارتموت أضرب عن الطعام لأنه لم يكن لديه خيار آخر. لقد كان مقتنعًا بتصرفه وبأنه يفعل الصواب لأنه لم يكن يفكر في نفسه فقط كما يعتقد البعض وإنما كان يفكر في البشرية كلها. إنه يحارب من أجل الحقيقة وهيلموت شميدت نفسه أقسم كرئيس الدولة الاتحادية على أن يبذل كل قواه في سبيل رخاء الشعب الألماني وإقصاء الضرر عنه وأنه سيَفي بالتزاماته على أحسن وجه وخلاف ذلك.
لم يسبق لي أن رأيت أمي بهذا الشكل من قبل، ولا حتى أبي نفسه غالبًا، لأنه لم يصدر منه أي رد فعل على ذلك. لاحظت وقتها أن شيئًا لم يتغير. وإن كان شيء تغير فهو أن لا أحد منا تحدث في أثناء العشاء، وتناول كل منا طعامه بمفرده. بعد برهة قام أبي وذهب إلى غرفة المعيشة وبعدها بفترة قصيرة سمعت صوت موسيقى، فقد كان أبي يحب ديميس روسوس وكان يمتلك جميع أسطواناته. أحيانًا كان يجلس أبي في كرسيه يدخن سيجارًا

ويغمض عينيه بينما صوت روسوس يدوي في جميع أرجاء المنزل. مرت أوقات جاءت فيها أمي وانضمت إليه في حجرة المعيشة وجلست لتقرأ.
لم أستطع أن أنسى هذه الصورة أبدًا: مشهد التواجد السلمي لأبويّ. بعد انتقال هارتموت كانت أمي تنسحب دائمًا إلى حجرتها، وأصبح سماع الأسطوانات أمرًا فرديًّا. أحيانًا كنت أنضم إلى أبي بالرغم من أني كنت لا أحب الموسيقى. أما في تلك الليلة ظللت في المطبخ وأخذت أحدق إلى أمي وعجبًا كم كان هذا غريبًا، حيث انتابني الانطباع بأنها تغيرت، بالرغم من أنها بدت كما كانت دائمًا.
أدركت بعد أسبوعين أثناء عطلة نهاية الأسبوع أن أبي لم يكن مُحقًّا، حين أخبرتنا أمي أن شميدت قد رد على الخطاب. وكان إعلان هذا الخبر في حد ذاته بمثابة ارتياح نفسي بالنسبة لها.
قضت أمي طوال النهار خارج المنزل بينما بقينا أنا ووالدي بالمنزل. أما في الصباح الباكر فقد قمنا بجولة بسيارته التي كان يسميها *إلهة* على الطريق السريع لأنه المكان الوحيد الذي يمكن تجاوز سرعة القيادة فيه، فقد كان أبي يحب السرعة التي كانت تشعره بالاسترخاء، وكذلك أنا أحببت كيف تمر المناظر الطبيعية في أثناء النظر من النافذة.
حيث خيمت على السيارة أجواء من السلام والهدوء ربما لأن والدي كان يشعر بالتناغم مع ذاته بعيدًا عن العالم، وأخذنا نلاحظ معًا مؤشر السرعة الذي وصل إلى ١٩٠ وثبت عندها العالم. لاحقًا عندما بدأنا دراسة نظرية أينشتاين في حصة الفيزياء بالمدرسة كنت أستطيع تفسير مبدأ القصور الذاتي بفضل رحلات قيادة السيارة التي كنا نقوم بها، فكلما زادت سرعة القيادة ثقلنا وتراخينا.
سكن كل شيء في السيارة: المؤشر وذراع والدي على مسند الباب ولم يتحرك غير قطع الأرض المزروعة المكسوة بالجليد التي كانت تمر سريعًا بجانبنا. انطلقنا في اتجاه *فرايبورج* وتناولنا الطعام ظهرًا في *الفينر فالد*، إسكالوب مع بطاطس مقلية وكاتشب وشرب أبي الجعة مع الطعام.
حينما عادت أمي للمنزل كنا نجلس أنا وأبي أمام التلفاز لمشاهدة النشرة الرياضية، فأتت أمي إلينا ووقفت على باب حجرة المعيشة وهي تصيح: *لقد ربح!* لم يصدر أي منا، أبي أو أنا، أي رد فعل، لذا أضافت أمي: *لقد انهزم شميدت*.
يبدو أني كنت الأقل من حيث قوة الملاحظة، لأنني فكرت في بيتر شميدت، اللاعب رقم ٢٩١ في ألبوم فريق *إف سي زاربروكين*، ومما يدعو للدهشة أنه الشميدت الأوحد بين اللاعبين، لأنه لا يوجد الكثيرون ممن يحملون اسم شميدت، ومن الطريف أيضًا أنه لا يوجد آخرون في مجال كرة القدم كافة. إن ما جعلني أفكر وقتها في بيتر شميدت هو أن لفظ *ربح* مشتق من عالم كرة القدم فربطت الاثنين ببعض. أما خبر أن بيتر شميدت قد انهزم في أثناء التدريب فلم يكن بالطبع منطقيًّا لأن مثل هذا الخبر لا يثير انتباه أمي على

الإطلاق. أو أنها قد لا تدركه حتى. أما أبي صراحة فقد عرف فورًا مَن المقصود بالخبر ورد عليها: *انتهى الموضوع تمامًا إذًا* وإن لم يبد عليه تمام الاقتناع بذلك لأنه لم يعقب بشيء حينما تحدثت أمي عن الحوار الشعبي الذي كان السبب في إنهاء هارتموت إضرابه عن الطعام.

حكت لي أمي بعد ذلك بينما كنت أرقد في السرير أنها كانت عند هارتموت وأنه لم يعد يجب عليه الإضراب عن الطعام لأن هيلموت شميدت وعده بأن الحكومة ستتحدث بصدق عن موضوع السياسة النووية. أعتقد، بحسب ما ظهر على أمي أنها توصلت إلى حقيقة أن عناد هارتموت أدى إلى نجاح كبير.

عاد هارتموت في اليوم التالي إلى مسكنه في البدروم. وكان باديًا على أمي أنها كانت تنتظر حضوره في فترة الظهيرة لأنها كانت تكرر الذهاب ناحية شباك حجرة المعيشة وتقول: *لماذا تأخروا حتى الآن؟* أو *يجب أن يكونوا قد حضروا منذ فترة* وحينما دق الجرس كانت هي في حجرتها بالأعلى، فسبقتها إلى الباب بينما نزلت هي على السلالم مسرعة ولم تنتظر فذهبت إلى السلم الخارجي حيث تبعتها تاركًا مسافة.

وللمرة الثانية لم تصب توقعاتي، فقد توقعت لسبب ما أني سأرى *الرابح* ولكنني لم أتوقع أنّ هذا الرابح لم يأكل شيئًا منذ ثلاثة أسابيع. كان مستندًا إلى رجلين لم أكن أعرفهما. وكان هارتموت يقف بينهما منحنيًا ويبدو نحيفًا أكثر مما كان قبل ذلك لأنه فقد ثلاثة عشر كيلوجرامًا من وزنه كما عرفت لاحقًا.

أومأ إلينا هارتموت برأسه سريعًا حينما رآنا ثم نقلناه إلى حجرته في البدروم حيث قضى الأيام اللاحقة على الأرجح فوق الأريكة، حيث كان يصب حساء البطاطس الذي كانت تطهيه له أمي في جوفه صبًّا، وكان يطلب المزيد ولكن أمي كانت ترفض وتخبره أن هذا لا يجوز لأن معدته يجب أن تعتاد أولًا على الطعام وذلك ما كانت تقرأه عن إعادة مضربي الطعام إلى عاداتهم الغذائية.

أردت أن أضفي على أمي بعض السعادة فصنعت دمية على شكل هارتموت كما أتذكر من مادة الفيمو. عملتُ طوال فترة بعض الظهيرة على تشكيلها، رغم أني لم أكن أمتلك الموهبة الكافية لذلك فأخذت كتلة الفيمو وشكلتها على هيئة قطعة طويلة من السجق ثم لففت أربع قطع أخرى أرفع لتمثل الأذرع والسيقان وبقي الوجه الذي كان مسطحًا بحجم العملة المعدنية به عينان غائرتان وأنف وفم. صنعت بذلك دمية رقيقة، رفيعة، طويلة لا تستطيع الوقوف وإنما الرقاد فقط. ظلت أمي محتفظة بهذا الفيمو -هارتموت- طويلًا، والذي كان لا يزال فوق مكتبها حين فتحت شقتها.

***

لقد أثبت هارتموت من خلال إضرابه عن الطعام أن الأمر يستحق المثابرة وأن المرء يستطيع توجيه هيلموت شميدت كما كانت تعتقد أمي. ولكن أدت هذه النتيجة للأسف إلى موته لأنه لا يوجد تصعيد للإضراب عن الطعام أكثر من ذلك، ولأنه كان سيفقد مصداقيته إذا ما أعلن القيام بإضراب تلو الآخر. لم يكسر هارتموت إضرابه عن الطعام إلا بعد أن خاطبه مانفريد شولر، رئيس

مكتب رئاسة الدولة الاتحادية، تحريريًّا وعرض عليه الاستعداد للحوار الشعبي وهذا ما وضعته أمي في الأرشيف كما فعلت بغيره من الخطابات. *يجب أن تبحث عنه بين الخطابات، ثم في الجزء الخاص بمكتب المستشار*. ما زال صوت أمي يرن في أذني وهي تخبرني بذلك وهي قلقة من أن أتوه في وسط مجلداتها.

-*عزيزى السيد جروندلر، منذ عدة أشهر يتواصل مع سيادتك العديد من مواقع الحكومة الاتحادية من خلال مكاتبات منتظمة ومكثفة*.

تبع هذه الكلمات نص مكون من خمس صفحات أخرى مكتوبة على الآلة الكاتبة يوضح فيها مانفريد شولر موقف الحكومة الاتحادية من السياسة النووية، ويحتج فيها شولر على اتهام هارتموت بأن الحكومة الاتحادية ترفض إجراء نقاش مجتمعي بشأن الطاقة النووية:

إن الاتهام بالتضليل الرسمي بشأن التخلص من النفايات ليس صحيحًا ومرفوض.

وأتبعه بأن: *الحكومة الاتحادية فتحت منذ أكثر من عامين نقاشًا عامًّا حول جميع المسائل المتعلقة بالاستخدام السلمي للطاقة النووية*. ثم: *إن النضوب الشديد في مصادر الطاقة التقليدية من الغاز والزيت والذي يؤدي إلى أخطار على نطاق واسع في سياسة الطاقة لعشرات السنين القادمة تجبرنا على تطوير جميع البدائل المتاحة للغاز والزيت، وترى الحكومة الاتحادية أن التوسع المعتدل والدائم في الطاقة النووية ينتمي لهذه البدائل*.

وانتهى الخطاب بهذه الكلمات: *وفي النهاية أود أن أعبر لسيادتك، سيدي العزيز جروندلر، أني أحترم موقفكم تجاه الاستخدام السلمي للطاقة النووية وموقفكم الرافض لسياسة الحكومة الاتحادية في هذا المجال، وأود أن ألفت نظركم في الوقت نفسه أنه لا يمكن وصف طرف بأنه أخلاقي، ويكون في هذه الحالة موقفكم، وأن الطرف الآخر يتسم بالتضليل والكذب والنفاق وانعدام الأخلاق وعدم تحمل المسؤولية، لأن القضايا السياسية ما هي في آخر الأمر إلا قضايا أخلاقية*.

تعجبت لقراءة هذا الخطاب وظللت أسأل نفسي لماذا؟ لقد عرفت دومًا أن هارتموت كان يكتب خطابات إلى هيلموت شميدت ولكني لم أكن أعرف أبدًا أن مكتبه قد أخذ موضوعه على محمل الجد وتكبد كل هذا المجهود للرد عليه في صفحات طويلة. فقد كنت دائمًا أنطلق من فكرة أن هارتموت ليس إلا واهمًا وأنه يتخذ موقف الإنسان الذي يستطيع المرء التخلص منه ببعض العبارات، وليس من ذلك النوع الذي يكتب له المرء خطابًا. تساءلت إذا ما كنت قد كونت صورة خاطئة عن هارتموت وعن تأثيره في الرأي العام.

ترددت بين ما إذا كان يجب عليّ أن أواصل القراءة أو أن أدع الملفات جانبًا. كما لم أكن أعلم لماذا ألقي نظرة في الأساس على تلك الخطابات. لماذا أشغل نفسي بهارتموت؟ ألا يكفيني انشغالي به بما يكفي كل تلك السنوات؟ لماذا لا أطوي الملف ببساطة؟ هل لأني أردت أن أوضح أني تمسكت بصورة

معينة لهارتموت تتواءم مع تلك الأشياء، ثم أثبت أني كنت متشبثًا برأيِي مثل أمي تمامًا؟ هل شكّل كل منا هارتموت الذي في مخيلته؟

ظللت متعثرًا في مقدمة الخطاب التالي في الملف والذي كان موجهًا إلى السيد هانز ماتهوفر وزير البحث والتكنولوجيا والمُرسِل كان مانفريد شولر.

عاجل كانت مكتوبة بجانب العنوان وتحتها خطان بخط اليد.

*السيد الوزير الموقر،

إن إعلان السيد هارتموت جروندلر بدء الإضراب عن الطعام بداية من ١ يوليو ١٩٧٧ في *هامبورج* مجددًا يعطينا الفرصة من وجهة نظري أن نفحص معًا إمكانية التأثير في الوقت المناسب على هذا التصرف الضخم اللافت للنظر. فكما أظهر الوضع في يناير/ فبراير ١٩٧٧ أن تعاطف الرأي العام مع إضراب السيد جروندلر عن الطعام سيضطرنا إلى مطالبة السيد جروندلر على أعلى مستوى لإنهاء إضرابه عن الطعام. إن هذه الوسيلة ليست مناسبة وتكرارها غير محبب على الإطلاق لهذا فإنه يتراءى لي اتخاذ اللازم مقدمًا في خلال هذا الشهر وفي الوقت المناسب*.

كما أُعلن عن كتابة خطاب موقع منه *أو من رئيس الدولة الاتحادية* موجهًا إلى هارتموت وصالحًا للعرض على الرأي العام يتعلق بشكل واضح ونهائي بالاتهامات الموجهة إليه بشأن مشكلة دفن النفايات النووية النشطة.

حكت لي أمي أن الحكومة كانت تخشى هارتموت وكان هذا بالنسبة لها دليلًا على أنه لم يكن مجرد شخص متهور، مثلما كان يتم تقديمه دائمًا، وحتى لو كان كذلك فإن هذا لم يكن ليغير -كما أعتقد- حقيقة أن لا أحد يعرفه اليوم ولن يغير أيضًا حقيقة أن ما راهنت عليه أمي كان مرتفعًا، مرتفعًا جدًّا. فقد راهنت عليه بكل ما كانت تملكه، حياتها، حياتي وحياة أبي، ثم إن الحكومة أخذته كذلك مأخذ الجد، على الأقل أخذته مأخذ الجد بالدرجة التي جعلتها تكتب له خطابات ولكن ليس مأخذ الجد الكافي لتغيير السياسة النووية. ليس جديًّا كفاية لأخذ الأخطار بجدية. غرق *أسّه*[1] ومعه آلاف من براميل المواد المُشعة.

حذر هارتموت من حدوث ذلك ولكن هل استمعت إليه الحكومة؟ هل كانت خائفة منه لدرجة أنها اهتمت بعملية الدفن النهائي؟ لا. الشيء الوحيد الذي وصل إليه هارتموت: كان سلبنا الحياة بأنه حمّل أمي المسؤولية عن العالم، هذه المسؤولية التي تنصّل منها بموته. عرف أنه لن يصل لشيء وأن هذا الصراع، الجوع، الخطابات، الاحتجاجات، العناد، امتناعه عن ممارسة الجنس، الزهد والتزمت كان هباء؛ لأن العالم لم يكن ليتغير. كما كانت عزيمته التي أبهرت أمي ليست إلا خيلاء وإعجابًا بالنفس. فدفعه عدم قدرته على الاعتراف بالفشل إلى إنهاء حياته بنفسه. هل تأملت أمي الموضوع من تلك الزاوية؟ لقد تركها وحيدة، تركها تقود الصراع، بدلًا عن أن يقف بجانبها. هل وجدت أمي ذلك مدعاة للفضيلة؟ لماذا لم يفكر فيها؟ وفي الآخرين الذين وقفوا بجانبه؟ لم يكن الصراع قد انتهى بعد فهل يمكن أن يكون قد تنصل منه

فعلًا؟
وأخيرًا كان هارتموت ممتنعًا عن تأدية الخدمة العسكرية، رغم أنه كان هو تحديدًا الذي يتحدث بسعادة عن فضائل العسكرية وعن أخذ الأطفال من يد أمهاتهم وإرسالهم إلى أرض المعركة. هارتموت على الأخص الذي لعن الموت الناقص، وهو الموت الذي لا يتم في ساحة القتال. ولكن ماذا كان يسمى موته الذي لم يكن إلا موتًا ناقصًا؟ وبدلًا عن أن نتغاضى عن ذلك أرادت أمي أن نحيي ذكراه. وكان يجب عليّ أن أساعدها في ذلك ولكني لا أفعل ذلك من أجل هارتموت، وليس احتجاجًا ضد الطاقة النووية، كما لا يمكنني ادعاء أنني أفعل ذلك من أجل عالم أفضل أو للجيل القادم أو للأبناء الذين لم أنجبهم بعد؛ إنما أفعل ذلك من أجل أمي. لا، حتى هذا لا أستطيع أن أدعيه حيث إني لا أتحلى بنكران الذات لهذه الدرجة. إنما أفعل ذلك من أجل نفسي.

***

كانت الطريقة الوحيدة كي أظل قريبًا من أمي هي أن أنخرط معها جنبًا إلى جنب في ذلك النزاع، حينما كان هارتموت ما زال على قيد الحياة وكنا نسافر إليه في *جرواندا* و*كولونيا* و*كاسل* ونجلس معه في مسكنه في البدروم نضع الخطابات في الأظرف. لا أدري ما إذا كانت أمي فكرت إن كان ذلك يسعدني، فلقد كنت أفضل الذهاب مع أبي إلى مباريات كرة القدم، كما أنني كنت أكثر سعادة حينما كنا نقوم ثلاثتنا بفعل شيء مشترك، وهذا كان نادر الحدوث منذ رحيل هارتموت. خطر في بالي ذلك اليوم، الذي أتذكره جيدًا، ذلك اليوم الذي قضيناه في مزرعة للخيول. أردنا وقتها إسعاد أمي لأن والدي خطر في باله أن أمي طالما كانت تحلم وهي فتاة صغيرة أن تمتلك حصانًا. لم نخبرها وقتها إلى أين سنذهب لأنها كانت تنوي الذهاب لإحدى اللجان الشعبية فحاولنا إثناءها عن ذلك. قمت بتحضير الإفطار لها ذاك اليوم كي أفاجئها فقد كان اليوم يومها -وبالطبع يومنا جميعًا- كم أتذكر كيف رقدت في سريري تلك الليلة في سلام، وكذلك أبي أصبح مفعمًا بالأمل بعد ذلك اليوم لأنها بدت راضية جدًّا.
كان يجب عليَّ أن أبقي وجهتنا سرًّا حتى لا ينكشف سرنا لأن أمي كانت تبدو طوال الطريق غاضبة وهي تنظر من النافذة معظم الوقت، في حين أعد أبي كل شيء ليعدّل مزاجها، ففتح الراديو وأخذ يدق على عجلة القيادة وينظر إليّ في المرآة الأمامية قائلًا: *آه لو تعرف أمك أين سنذهب*، ويغمز لي بعينه.
قبل وصولنا كان عليها أن تربط عينيها كي لا ترى المفاجأة، وبعد أن ركنّا السيارة أخذ أبي بيد أمي وقادها إلى مرعى. *نريد اليوم أن نسعد فتاة* قالها أبي وهو ينزع المنديل من فوق عينيها بينما كنت أقف أنا بجانبها وأنظر إليها جيدًا لأني كنت أريد أن أعرف إذا كانت ستسعد فعلًا. وقد رأيت فعلًا كيف أنها ابتسمت في صمت ثم نظرت إليَّ ومسحت بيدها على شعري. *هانو* قال

أبي، *أعتقد أنها كانت الفكرة الصائبة*.
وقفنا جميعًا فترة عند سور المرعى لنشاهد الخيول. لم تكن لديّ سابقًا أي فكرة عن الخيول، حتى إني كنت في الحقيقة أخافها لأنها كانت كبيرة جدًّا. كما خفت عندما أرادت أمي أن تجلس على أحدها فقد أهداها أبي درسًا في ركوب الخيل. تخيلت أن أمي قد تقع أو أن الحصان -الذي كنت أتذكر اسمه جيدًا، *لوسي* مثل لوسي التي كانت في أغنية البيتلز- قد ينحني فجأة ليقذف أمي من فوقه، كنت أخاف أن يحدث أي شيء يفسد عليها اليوم أو يجعلها تشعر بالندم أنها أتت معنا. ولكن على العكس تمامًا: لم تسقط أمي من فوق لوسي، كما صور أبي كل شيء بكاميرته *السوبر ٨*. كنت فخورًا جدًّا برؤيتي كيف كانت تقفز فوق السرج وفخورًا بها وهي ترتدي زي الفروسية والحذاء الأسود ذا الرقبة العالية كما لم أرها من قبل.
عندما نزلت من فوق الحصان ربتت أمي على أنف لوسي وسلمت اللجام للمدرب ثم أتت إليَّ حيث كنت واقفًا عند البوابة وطبعت قبلة على جبيني وهذا ما لم يظهر في الفيلم الذي صوره أبي. كما لم يظهر الفيلم أيضًا كيف توجهنا ثلاثتنا إلى الفندق الذي ينتمي للمزرعة. كنا نسير يدًا بيد وأنا في المنتصف وأمي تحكي كيف كان الوضع عندما جلست أعلى الحصان ونظرت للأشياء بنظرة مختلفة من الأعلى بينما كانت لا تعلم إذا ما كانت تستطيع الحصول على حصان مثل ذلك، وظلت تحكي لنا كيف تناغمت مع الحصان حتى أصبحا شيئًا واحدًا. كان أبي منصتا إليها وهو مفتون بها، كما بدا عليه كم كان سعيدًا.
أتذكر أن أبي كان يشاهد ذلك الفيلم وحده بينما كانت أمي في مكان ما لا أعرفه خارج المنزل، كان ذلك على كل حال بعد وفاة هارتموت بفترة قليلة وقبل ذلك الصيف الذي انتقلنا فيه أنا وأمي إلى برلين. ربما كان أبي يعلم أننا سنتركه، أو على الأقل كانت لديه فكرة عن ذلك. قضيت فترة الظهيرة عند زميلي في الفصل باول، حيث كنت أقضي معظم الوقت في هذه الفترة، وعندما عدت إلى المنزل اعتقدت أن لا أحد هناك حتى سمعت صوت *البكرات* آتية من حجرة المعيشة. حينما فتحت الباب وجدت والدي يجلس على كرسيه تائهًا وسط أفكاره ولم يلحظ أني أتيت ولا حتى إني ظللت واقفًا عند الباب لفترة.
نشر أبي شاشة العرض أمام البوفيه ووضع جهاز العرض الضوئي فوق طاولة حجرة المعيشة، بينما كانت الستائر مسدلة والضوء شبه المتوهج المنبعث من جهاز العرض الضوئي يومض. رأيت على شاشة العرض أمي فوق الحصان وكيف كانت تدور فوقه خلف الأسوار. رأيته وحيدًا وأمي على شاشة العرض كانت تغمز كما كنت أعتقد أو ربما كنت أتخيل عندما دار بها الحصان من أمام الكاميرا. لا أدري لماذا جعلني هذا خائفًا. ربما لأني شعرت أنه الوداع.
في وسط كل هذا الصمت قلت إني جائع وسألت إذا ما كان يوجد شيء

يؤكل. استغرق الأمر بعض الشيء حتى أدرك أبي وجودي واقتحمت كلماتي مجال وعيه والتفت إليَّ. نظر إليَّ ثم استغرق فترة طويلة، والأغنية لا تزال تعزف في الخلفية والضوء يومض، حتى قال: *هانو، ها أنت ذا*. ثم أطفأ جهاز العرض الضوئي، ووقف وأضاء نور الحجرة ووضع يده على كتفي. كانت يد أبى كبيرة حتى إنها كانت أعرض من كتفي الرفيعين. سألني أبي إذا ما كنت وجدت كوربل. فقد كان كوربل هو الوحيد الذي كان ينقصني من *آينتراخت فرانكفورت*، رقم ٦١. وعدني أبي أن نذهب غدا للكشك ونشتري عبوات كثيرة حتى أجد كوربل.
بالكاد استطعت النوم في هذه الليلة لأني كنت أتخيل طوال الوقت أني أفتح العبوة تلو الأخرى وأخرج منها الصور وأحاول أن أتعرف من قصة الشعر على كوربل. مجرد الفكرة كانت مفعمة بالإثارة لدرجة أن يديّ كانتا ترتعشان كما تمنيت ألا أجد كوربل في العبوات الأولى.
اشترينا كل العبوات الموجودة بالكشك الأول ثم ذهبنا للكشك الثاني واشترينا أيضًا كل العبوات هناك ولكن كوربل كان موجودًا في الكشك الثالث فقط.
اشترى لي أبي ٧٢ عبوة وعندما رأت أمي كل هذه الصور التي أحضرتها للمنزل في شنطة بلاستيكية وكومتها فوق المكتب قالت: *أنتما والكرة. كما لو أنه لا يوجد شيء أهم من ذلك في العالم*.
أحضرت هذا الألبوم معي في أحد الأيام بعد الظهر بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على ذلك ووضعته على طاولة الطعام في مطبخها. *كرة القدم ٧٨\٧٧ ألبوم صور بيرجمان الحديث*، النسخة الأولى من ألبومات *بانيني* وقد تكلفت العبوة الواحدة من الصور وقتها 30 بفينيج. لم تكن الصور ذاتية اللصق لذلك كنت أحتاج أنبوبًا لاصقًا للصقها. أريتُ أمي الألبوم، وكانت تلك المرة الأولى التي أمسكته فيها بيدها وتفحصته، لا بدَّ أنها رأت كيف أنه تلف من كثرة القراءة وكيف كان رقيقًا من الأطراف من كثرة تصفحه، معظم الصفحات كان بها ثنايا في طرفها، وقد تفككت أوراقه من الدبابيس، لم أكن أتوقع اهتمامًا كبيرًا من جانبها ولكني كنت سعيدًا أنها رأته. أغلقت أمي الألبوم بعد ذلك وتركته أمامها فوق المنضدة والغلاف الخلفي لأعلى، فرأيت صور فريقَي بطولة العام السابق: *بروسيا مونشن جلادباخ* والفريق الفائز بالكأس *إف سى كولونيا ١*.
استطعت بعد مرور كل هذه الأعوام أن أتعرف على نحو نصف اللاعبين بنظرة سريعة. *ربما*، قالت أمي: *كنت أشعر بالغيرة*. استمرت في التحديق في الصورتين ولكني شعرت أن اللاعبين فقدوا ملامحهم وبدأ قلبي في الخفقان وحلقي يضيق ونفسي يتحشرج وبدأت يداي في الارتعاش رغمًا عني في انتظار ما سوف يحدث.
فقد أردت أن أسمع منها أنها كانت تغار من كرة القدم لأنها تعبر عن مدى ارتباطي بأبي وبسعادتي في طفولتي التي لم تشاركني فيها أمي إلا قليلًا، أردت أن أسمع أنها شعرت بالندم أنها فوتت الكثير من لحظات السعادة

معي. لكنها أوضحت لي أنها لم تقصد كرة القدم التي ربطتني بأبي وإنما كرة القدم بوجه عام، ثم أكملت: *كنت أشعر بالغيرة من ذلك الحماس*.
ثم استرسلت: *كل هؤلاء الناس الذين يجلسون في نهاية الأسبوع أمام التلفاز أو الراديو أو يذهبون إلى الاستاد، لو توجهت كل هذه الملايين أو المليارات بنفس الحماس ضد الفساد في مجتمعنا وفي العالم لكانت البشرية قد أنقذت، ولكن الكرة صرفتهم عن ذلك وأصبح اللاعبون أنصاف آلهة لأنهم استطاعوا في إحدى المرات إصابة هدف ما. عليك أن تعترف أن هذا غير عقلاني ومحبط. إنه من المحبط أن يصبح لاعب الكرة أهم من رجل ضحى بنفسه لكي نعيش بأمان*.

***

كلما تفكرت في هارتموت وأمي تفهمت بصورة أفضل لماذا فشلا أو لماذا كان يجب أن يفشلا. فقد كان تفكيرهما يرتكز على قاعدة خاطئة.
كان هارتموت ينطلق من أن الإنسان الذي يرى طفلًا يغرق في النهر لا بدَّ له وأن يقفز في الماء لينقذه كرد فعل طبيعي. وبناءً على ذلك فإن استشعار التعاسة أو الوضع السيئ يجب أن يدفع الناس للعمل. ولكن هناك بالطبع اختلاف في رد الفعل تجاه إنقاذ طفل يغرق ورد الفعل تجاه خطر مجرد. كما أن أكثر ما أدهشني كان أن لا هارتموت ولا أمي أدركا لماذا لم يجتمع الناس على الخروج للشارع لمواجهة الطاقة النووية. لأن الخطر كان ببساطه غير ملموس، بالإضافة إلى أن الناس قد عايشوا قبل فترة وجيزة تجربة التعلق بالبترول. ففي نوفمبر ١٩٧٣ يوم *أحد الموتى* صدر قرار بمنع القيادة، واتبعه ثلاثة آحاد مسموح فيها بالقيادة بسرعة محدودة بلغت ٨٠ كيلومترًا في الساعة على الطرق الداخلية و١٠٠ كيلومتر على الطريق السريع.
أتذكر ذلك الموقف جيدًا لأنه بدلًا عن أن يقوم أبي بجولة، أخذ يغسل سيارته، التي كان يسميها *إلهته*، أمام الجراج وكلفني بتلميع مقابض الأبواب والمصدّات. كان الراديو يذيع وأبي يسب العرب وإسرائيل المتنازعين في الحرب التي بسببها حُرم هو من القيادة في ألمانيا. وأتذكر أيضًا كيف بدأ أبي هجومه على هارتموت أمام المنزل حين سأل هارتموت كيف يتصور الحياة دون الطاقة النووية حينما يغلق العرب صنبور البترول، عندها سنضطر في المستقبل للسير على الأقدام وإشعال النار مجددًا، وسأله إذا كان يريد العودة بنا بذلك إلى العصور الحجرية مرة أخرى. تحدث هارتموت حينها عن إمكانيات أخرى، عن خيام، خيام ضخمة في الصحراء يتم فيها تسخين الهواء ثم تولد الطاقة من خلال فتحة في السقف وبهذه الطريقة يتم توفير الطاقة للجميع، كما تحدث عن إمكانية توليد الطاقة من خلال ظاهرتي المد والجزر.
عندها هز أبي رأسه *لم يكن أبي في ذلك الوقت يُطيق الحديث عن هارتموت* وقال: *فلتبدأ إذًا في نصب خيامك*. وقال لي بعد ذلك ونحن في السيارة: *هانو، هؤلاء الناس أمثال جروندلر مجرد متوهمين خضر، لذلك كان شميدت محقًّا. لو اضطررنا لتتبعهم لركبنا جميعًا الدراجات في المستقبل*.

أما أمي فقد كانت تطلق على هارتموت لقب مُستبصر. وهكذا كان الاختلاف في التصورات.

***

لم تكن *فوكوشيما* أولى الكوارث فقد سبقها *تشيرنوبيل* وعندما حدثت الكارثة النووية الكبيرة في ٢٦ أبريل ١٩٨٦ قالت أمي إن هذا كان يجب أن يحدث لأن الناس لم يريدوا أن يقتنعوا قبل وقوع حادثة، وانطلقت من أن الناس سيطالبون الآن بإلغاء استخدام الطاقة النووية مرة واحدة وللأبد. ولكن حتى بعد الكارثة النووية الكبيرة عاش الجزء الأكبر منهم كما كانوا يعيشون من قبل. كان يجب على أمي أن تدرك في هذا التوقيت أن البشر لا يريدون عالمًا آمنًا ويفضلون القبول بالمخاطر وأن هارتموت ضحى بحياته هباءً وأن أمي أهدرت طاقتها دون جدوى. كان بإمكانها أن تتوقف ولكن ذلك لم يكن موضع نقاش بالنسبة لها وأكملت بمنتهى العناد.

مثلما كانت تفعل قديمًا ظلت أمي تخرج بانتظام بالرغم من أنها كانت بالتأكيد تتألم، واعتقدتُ أن مشيتها البطيئة كانت بسبب التقدم في العمر، ولكن بعد أن أقنعتها أخيرًا بزيارة الطبيب شخّص حالتها بالتهاب في مفصل الحوض. وجدتُ حبوبًا مسكنة في دولاب الحمام وسألتها عن ذلك. ولكنها قاومت في البداية فكرة استخدام مشاية كبار السن، كما رفضت أي مساعدات للمشي أو حتى أن أسندها وقت السير. ثم اهتدت إلى فكرة أن تستغل مشاية كبار السن لخدمة أهدافها.

في الحقيقة لقد تحولت مشاية كبار السن إلى *مظاهرة على عجل*. لقد قامت بإعادة بنائها -كما كانت تفعل دائمًا-. على اليمين والشمال ثبتت دعامات خشبية مقاسة بدقة بحيث يناسب حجم المشاية المصعد ولصقت على الدعامات صورًا لهارتموت وبعض الملصقات الصغيرة المكتوب عليها أن هارتموت قد ضحى بحياته بسبب أكاذيب غرق *أسّه* وسياسة الطاقة النووية.

ضد الأكاذيب النووية هذا ما كتبته وأيضًا: *بلوتونيوم؟ لا، شكرًا!*، بالإضافة إلى ذلك ثبتت في الأمام سلة وضعت فيها منشورات كتبتها بنفسها. لم تخطُ أمي خطوة واحدة دون المشاية الخاصة بها فكانت تدفعها كل يوم عبر الحي حتى في الشتاء ولم تردعها الأرصفة المكسوة بالجليد مما سبب لي كثيرًا من القلق.

لم أستطع منع نفسي من أن أحضر لها مسامير مانعة للانزلاق تُثبّت أسفل الحذاء، بعدما نصحتني صديقة بذلك فقد أقسمت إنها كعدّاءة تركبها أسفل الحذاء. كانت أمي متشككة في البداية ولكنها سعدت بها بعد ذلك، لأنها وإن كانت مهووسة، فهي ليست بالغباء لتعرف أن أي كسر في سنها هذا سيؤدي إلى مضاعفات كبيرة فلم تكن تريد بأي حال من الأحوال أن تظل على كرسي متحرك مثل جارتها التي في الدور الأرضي والتي وقعت فكُسرت لها فقرة.

رأيتها لأول مرة على مشاية المظاهرات المتحركة عشية الكريسماس في الشارع حيث أثلجت طوال الليلة السابقة وسجلت درجة الحرارة أربع عشرة تحت الصفر. انشغل الناس في الصباح بإزالة طبقات الثلج البالغ علوها سنتيمترات من فوق سياراتهم، ولم تستطع القطارات مواصلة السير لأن القضبان كانت مغطاة بالثلج، وقد توفى أحد المشردين متجمدًا في *نيوكولونيا*، وفي أفنية المدارس كان كل طالب من ثلاثة يلتصق لسانه بالسور الحديد ويقوم طبيب الطوارئ بإنقاذه، أما في موابيت فقد تعطلت التدفئة واضطروا إلى نقل السكان إلى صالات الرياضة، بينما كانت أمي تدفع مشايتها عبر الشوارع الخالية.
اكتشفتها بينما كنت أجلس بعد الظهر في المقهى الذي أحب التواجد بها دائمًا لأنها كانت تقع على ناصية مجمع المكاتب حيث أمتلك مكتبًا هناك في نفس الحي الذي تعيش فيه أمي، بينما كنت أنتظر الحساء نظرت إلى الجانب الآخر من الشارع فوجدتها تدفع مشّايتها وحيدة ولم تكن ترتدي قفازًا ولا غطاء للرأس، كانت بطيئة جدًّا وكما يبدو أنها استغرقت وقتًا طويلًا وكانت بالتأكيد تتجمد فقد قاومت الثلج، كانت الوحيدة في الشارع، وللمرة الأولى أسأل نفسي ماذا سيفكر هارتموت إذا ما رآها من فوق الآن، هذا إن كان في الجنة وليس في الجحيم، ربما كان سيتضح له ما الذي جره علينا بموته: حياة في ظل ذكرى دائمة لتضحيته. كيف كان سيفسر سير امرأة في السبعين من عمرها تدفع مشّاية متحركة مليئة بالملصقات في شارع خالٍ من الناس ولا ترتدي قفازات في درجات حرارة تحت الصفر.
أصابتني رؤيتها بالكآبة، فمن ناحية لي أم لا أستطيع أن أحكي عنها دون إثارة السخرية. لقد كان لجميع أصدقائي قصص يحكونها عن والديهم، قصص عن علاقات صعبة، عن صراعات سرعان ما تُنسى في اليوم التالي على الأكثر من الزيارة.
كنت أعرف قصصًا عن أصدقاء لا يتحدثون أو لا يستطيعون التحدث مع والديهم، وآخرين يجرون مكالمات هاتفية معهما عن الطقس أو عروض السوبر ماركت، أو بعضهم الذي يعود إلى حجرة الطفولة لينام في سرير الأطفال ويشغلون جهاز الآي بود خاصتهم حتى لا يستمعوا إلى حديث والديهم في المطبخ.
أعرف قصصًا كثيرة عن آباء وأمهات، ولكن في ما يخصني، عندما يحل عليَّ الدور كي أحكي يشعر المستمعون لي بالحيرة، لأن موقف الراوي غير واضح كما أعتقد. فما يحيرهم هو عدم معرفتهم إذا ما كنت أسخر من والدتي -وهو ما كنت أقوم به أحيانًا بالفعل، فموقف مشاية كبار السن المعاد تركيبها وحده غريب بما يكفي- أو إذا ما كنت أتعجب من إصرارها وإيمانها بقدرتها، أو إذا ما كنت أتعاطف مع حالي لأني اضطررت طوال حياتي أن أساند حدثًا عظيمًا.
وحتى لا أظهر بهذا الشكل كنت أبحث عن قصص عن عمل المخبوزات معها أو عن مواساتها لي، وأتذكر كيف وضعت لي الضمادة فوق الجرح، وأشجار

عيد الميلاد التي زيناها معًا. لقد كانت تلك هي أمي التي تقرع الجرس وتأخذني في حضنها حتى أكون أول من تتمنى له عيدًا سعيدًا، ولكنها كانت هي أيضًا أمي التي تركتني يوم حفل عيد ميلادي التاسع لتضع مع هارتموت في البدروم المنشورات في الأظرف، حيث كان من الضروري إرسالها. لكني لم أقص على أحد أني رأيت أمي وحيدة تدفع مشايتها عبر الحي في أصقع يوم في العام لأني لم أعرف كيف أحكي مثل هذا الحدث. هل يُحكى بمرح: سيدة عجوز مجنونة. أم يُحكى بمأساوية، لأنها كانت الوحيدة التي كانت لا تُدرك عدم جدوى فعلها. أم لا أحكي ببساطة، لأنها كشفت لي عن عجزي عن أن آخذ منها موقفًا.

كم شعرت بأني فارغ. كنت أستطيع أن أدعوها للمقهى وأؤمن لها الدفء بشرب الحساء، كنت أستطيع أن أقطع الطريق أمامها، وأسألها ماذا تنوي أن تفعل، وماذا يعني ذلك، ولصالح من تقوم به، وإذا كانت تدرك كم كان ذلك تصرفًا جنونيًّا، وإذا كانت تتصور شعور مراقبة الأم تسير بمشاية، وإذا كانت قد فكرت فيَّ أبدًا من قبل. اللعنة. لقد كان لدي كل الحق الذي في العالم أن أشعر بالغيظ. كان يجب أن آخذ قرارًا، لقد تركتها ترحل وكأني لا أعرفها وبالرغم من أني لاحظت أن النادلة الشابة لاحظت أمي وهي تقف بجانبي ترتب الطاولة المجاورة وتراقبها وهي تهز رأسها غير مصدقة وربما مشفقة عليها.

إنها أمي، كان يجب أن أقول ذلك، وبماذا كانت ستعقب؟ ستسألني كيف أتركها هكذا بمفردها في البرد. ستسألني ما الذي حدث بيننا. وماذا يجب عليَّ أن أجيب؟ إنها حكاية قديمة طويلة؟ وكانت ستومئ بصمت، أو ستسألني كيف كانت العلاقة مع والدتي وكنت سأجيب: *صعبة*. وعندما تسألني إذا ما كنت أحبها ماذا كنت سأجيبها؟ سأقول لها: *بالطبع*. فكل طفل يحب والديه، أو ربما يجب أن أفكر قليلًا لأقول إني كنت أطمع في استرعاء انتباهها، وإذا كان ذلك علامة على الحب فأنا أحبها إذًا.

ربما كان الاشتياق للاهتمام مجرد تعبير عن وجود نقص، مثل تلك البقع البيضاء الصغيرة التي تظهر على أظافر الأصابع: كانت هناك أوقات في طفولتي اعتدت فيها على النظر إلى أظافري يوميًّا لأن أمي أخبرتني أن البقع تدل على نقص الكالسيوم. لم يكن لدي أظافر دون بقع بيضاء وبالرغم من أني عرفت أن الحليب غني بالكالسيوم إلا أن أمي لم تكن تحب أن أشرب الكثير منه. ربما كان هذا مشابهًا للحب.

***

يجب أن أفكر في سؤال طرحته عليّ الطبيبة، معالجة الهينكلشتاين، إن لم يكن في أثناء الجلسة الأولى فكان على الأكثر في الجلسة الثانية للعلاج، والتي ذكرتني بسؤال في مادة المقال الألماني: *ما هو أجمل حدث يجمعك/ جمعك/ جمع حضرتك بوالدتك/ والدة حضرتك؟*.

لم أكن مضطرًّا للتفكير طويلًا وحكيت فورًا عن ذلك الأسبوع في شهر مايو

عام ١٩٨٦ حين قضينا وقتًا طويلًا معًا لأننا بالكاد كنا نستطيع ترك المنزل بسبب الخوف من الأمطار الحمضية. كنت أبلغ من العمر وقتها ١٨ سنة حين انتهيت للتو من الامتحانات التحريرية للشهادة الثانوية وكنت ما زلت أعيش مع أمي. بخلاف *فوكوشيما* لم يعد لأمي بعد حادث *تشيرنوبيل* مزاج للاحتفال، ربما كان السبب أن الانصهار النووي لم يكن في الجهة الأخرى من العالم وإنما كان يبعد أقل من ألف وخمسمئة كيلومتر، مما جعلنا نشعر بعواقبه سريعًا. وكانت أمي على دراية منذ البداية بما يعنيه هذا الحدث حتى وإن حاول السياسيون في البداية تهوين مداه، فقد أكل ألفريد ديك وزير البيئة أمام الكاميرا الحليب المجفف المليء بمادة السيزيوم وقال: *لم يحدث لي شيء*. وكان هذا يخالف بالطبع كل ما تعلمته عن مادة السيزيوم في حصص الكيمياء بالمدرسة.
أتذكر كيف شاهدناه في التلفاز وقتها حين فضحته أمي على الفور. *هل رأيت ما الذي فعله؟* سألتني أمي. *لقد وضع إصبعه الأوسط في الحليب المجفف ولعق إصبعه السبابة*.
كانت أمي تتسم بالهدوء بشكل يدعو للدهشة بينما أصبح الناس مذعورين من حولنا يومًا بعد يوم. هناك مقولة في عالم الرياضة تقول: إن الضربة التي لا يراها المرء يمكن أن تطيح به. ولكن أمي رأت الضربة وكانت مستعدة لها فوضعت في حجرة الخزين بعد انتقالنا مخزونًا أخذت تجدده كل فترة، العشرات من علب الطعام المحفوظة، عدة صناديق من زجاجات المياه، دستة من أرغفة الخبز، مكرونة من القمح الصلب، مناديل للحمام وأدوية. لم يكن علينا القلق من التحذيرات من استهلاك الخضروات الورقية التي يمكن غسلها جيدًا بماء فاتر، كما تم التحذير من أكل لحوم أي حيوانات أو طيور برية.
أصبحت هناك قيود على استيراد اللبن والفاكهة والخضروات واللحوم من أوروبا الشرقية، كما وجب على الأطفال تجنب صناديق الرمل المخصصة للعب الأطفال، وأغلقت أماكن اللعب والرياضة في معظم المدن. وتحت أي ظرف من الظروف كان يجب على المرء عدم الخروج في المطر، وقد علمت من بعض أصدقائي أنهم ابتلعوا حبوب اليود، كما كان يطلق عليها، حتى يمنعوا تخزين اليود المشبع بالراديوم في الغدة الدرقية. أصبح كل شيء في تلك الأسابيع يدور حول تشيرنوبيل، وتحدث الجميع باستمرار عن تهديد الخطر غير المرئي القادم من الشرق، ذلك الخطر الذي لا يستطيع المرء رؤيته أو تذوقه.
وأتذكر أيضًا ذلك السلام الداخلي الذي كسا أمي عندما نهضت من على كرسيها بعدما سمعت في نشرة أخبار *تاجيس شاو* للمرة الأولى عن حادث محطة الطاقة النووية. ذهبت وقتها إلى حجرتها وأحضرت بكرات من الشريط اللاصق وسدت شقوق النوافذ. وكانت عند رحيلها من المنزل -الأمر الذي ندر حدوثه في تلك الأسابيع- تبدو كما لو كانت ذاهبة إلى الصيد حيث كانت ترتدي

رداء مضادًّا للماء وفوقه مِعطف ذو قلنسوة وحذاء ذو رقبة من المطاط. لم يكن ينقصها سوى الصنارة، وبعد عودتها للمنزل كانت تذهب مباشرة إلى الحمام لتغسل عدتها تحت الدش.

***

لم أقضِ في حياتي من قبل أو من بعد كل هذا الوقت مع أمي مثلما حدث بعد حادث *تشيرنوبيل*. حتى إني كنت نادرًا ما أترك البيت لأني كنت على وعي كامل بالخطر المنبعث من الراديوم النشط، فقد اهتم هارتموت وأمي بأن أنشأ على ذلك على الأقل.

حتى أبي الذي كان مؤمنًا بالتكنولوجيا طوال حياته وبأن التفاعل النووي لا يقهر دحضَ تشيرنوبل رأيه. حقيقة أني كنت أُفضل في بعض الأحيان، عندما كانت أمي تجبرني على الاشتراك في الكفاح ضد الطاقة النووية، أن أظل في المنزل وأشاهد التلفاز إلا أنه من الحقيقي أيضًا أن الأمر كان بمثابة مغامرة بالنسبة لي فقد كانت هناك أحداث مثيرة، بالرغم من أن السؤال قد يطرح نفسه إذا ما كانت قد أثقلت عليَّ وأنا طفل في مثل ذلك العمر آنذاك، على سبيل المثال عندما رأيت رجال الشرطة في مدينة *كالكار* عندما اصطفوا أمامنا صفًّا كثيفًا أمام السور الشائك للناتو وهم مسلحون بالدروع والخوذات الواقية.

أو في *جروندا* على سبيل المثال حينما رأيت كيف مر رجال الخيالة، الذين كانوا على بُعد أقل من ٥٠ مترًا منا، بأحصنتهم فوق المتظاهرين. اشتعلت كل تلك الذكريات في ذاكرتي تمامًا مثلما أتذكر رعب أمي مما حدث وقتها، والذي لم ترد أن أراه لذا أخذتني بين ذراعيها وأخفت وجهي في جسدها، ثم أوضحت لي في أثناء رجوعنا أن هارتموت يرفض أي شكل للعنف ولكنه ليس بالأمر السهل لأن هناك أناسًا يعتقدون أنهم لن يصلوا لشيء إلا من خلال العنف.

تجنبت أمي بعد ذلك المظاهرات الكبيرة وأعتقد لأنها لم تكن تشعر بالراحة بالتواجد على الجبهة. لم تحتفظ ذاكرتي بهذه الصور التالفة فقط وإنما أيضًا بذلك الشعور بالقرب من أمي والذي يرجع سببه لهذه الظروف غير الاعتيادية. لقد رعتني أمي، وبالطبع سيقال إن ذلك أقل ما يجب عليها فعله عندما فرضت عليَّ مثل تلك الأحوال غير المستقرة، لكنني لم أربط هذا بذاك في الماضي ولكني شعرت بما لا يستطيع المنطق تفسيره: وهو أني كنت بمأمن معها، فقد كانت تمسك بيدي وعندما كان ذلك لا يكفي كانت تضمني إليها وإذا لم يكف ذلك كانت تأخذني وتعود بي لننتظر هارتموت في السيارة. وحتى لو بدا ذلك متناقضًا فأنا لم أشعر أبدًا بالاهتمام كما شعرت به في ذلك الوقت عندما كنا نواجه الأخطار بسبب المظاهرات القليلة المناهضة للطاقة النووية التي كنت أحضرها. كنت أشعر بالوحدة أكثر وأنا في المنزل، حيث كنت أقضي معظم الوقت في حجرتي أو كانت أمي تقضي وقتها في حجرتها، فقد كانت تبدو غائبة وصعبة المنال داخل المنزل أكثر منها عندما تكون غائبة

وهي خارجة. ربما كان منزلنا بالنسبة لها مكانًا يجب أن تتجنبه فبحثت لنفسها عن دور آخر يعوضها عن الدور الذي كان عليها أن تقوم به فيه، والذي كان عدم تقبلها له يتزايد مع الوقت، هذا كان تفسيري لوضعها في الماضي.

لم يتفهم أبي رسالة أمي التي وضعتها لنفسها كما لم يتفهم تواجدها خارج البيت طوال الوقت، وأعتقد أنه كان يأمل أن تكون هذه مجرد نزوة مؤقتة، كما حاول أن يتجاهل مغامراتها إلى حد كبير، مما أدى إلى تفاقم الأمور المسكوت عنها في حياتنا اليومية حتى صارت واضحة وشبه ملموسة. لقد أدركت منذ كنت طفلًا كيف تغير الجو العام بالمنزل وكيف كانت أمي هي التي غيرت الأوضاع، لذلك ارتبطت بوالدي وتقربت منه أكثر من أمي وتعمدت أن أظهر لها ذلك.

***

يجب على المرء معرفة كل ذلك ليفهم لماذا كان الأسبوع التالي لحادث *تشيرنوبيل* مميزًا، لأن الخطر هذه المرة كان يحبسنا داخل البيت. لقد دعمنا بعضنا بعضًا، ولأن أمي كانت هادئة تمامًا ومعتنية بنا بشكل جيد شعرت في ذلك الأسبوع بالأمان والاطمئنان في البيت أكثر من أي مكان آخر. بدا الأمر مثل أيام انقطاع التيار الكهربائي حيث يجلس المرء مع أسرته على منضدة المطبخ ويبدأ في لعب ألعاب جماعية أو يقص الحكايات على ضوء الشموع. وهكذا كنا نشاهد التلفاز ونجلس على الأريكة سويًّا ونقرأ الجريدة ثم نفكر ماذا يمكن أن نطهو من المخزون لدينا وأحيانًا كنا ننظر من النافذة لنشاهد المارة الذين خرجوا للشارع، كان بعضهم يجر عربات المشتريات المكدسة بمشترياتهم الكثيرة، رأينا أناسًا يرتدون قبعات وملابس بأكمام طويلة لكننا لم نر أي شخص يرتدى رداءً واقيًا، وللمفاجأة كان هناك الكثير من الناس في الشارع. وأعتقد أننا كنا الوحيدين الذين استمروا في تحصين أنفسهم داخل البيت. كنت نادرًا ما أترك المنزل ليس خوفًا من نشاط الراديوم وإنما لأنني كنت أجد أنه من الجميل أن أظل بالقرب من أمي لهذه الدرجة؛ فقد تولد بيننا قرب لم أشعره من قبل ولا من بعد، وقد نشأ ذلك القرب نتيجة لأنها كانت مُحقة ولأنني اعترفت بذلك، ولم أسخر من تصرفاتها. فقد كنت راشِدًا وكنت أستطيع الاعتراض، فقد أمضيتُ طوال تلك السنوات خاضعًا لأوهامها.

ثم حدثت الكارثة النووية الكبيرة، وربما لم تكن لتواجه شيئًا أكثر صعوبة من لو كنتُ رفضت الاعتراف بالخطر واعتبرته مجرد وهم، وتشاركت الرأي مع وزير الداخلية الذي ادعى عدم وجود أي أخطار على السكان. لو كنت اتهمت أمي بالمبالغة المفرطة لكان الأمر انقضى ولكنت قوضت الأمر الذي سخّرت له كل حياتها بتصرفي ذلك، والذي كان سيؤثر فيها للغاية، خاصة أن الخطر المزعوم قد وقع بالفعل. ولكني لست بالإنسان المتمرد، فأنا أهاب الصراعات دائمًا وكنت دائم البحث عن التناغم ولا أستطيع أن احتمل أي تنافر. وما كان من أسباب سعادتي هي تلك البداهة في طريقة تعاملنا والتفاهم الذي نشأ

بيننا في ما يخص التصدي لتلك المخاطر. فلأول مرة منذ سنوات كنت أساعدها مرة أخرى في إرسال الخطابات حيث اتخذت من حادث *تشيرنوبيل* ذريعة لتُذكِّر بهارتموت، فكتبت خطابًا لبريد القراء وطبعت منه مئات النسخ لتوزعه على جميع الجرائد الممكنة. ساعدتها في إيجاد العناوين، الأمر الذي كان غاية في الصعوبة في زمن ما قبل الإنترنت. كما قمت بإجراء مكالمات عديدة مع مكاتب الاستقبال والمعلومات، واشتريت نسخة من كل الجرائد الموجودة. ثم جلسنا في حجرة المعيشة حول المنضدة وطوينا الخطابات ووضعناها في الأظرف التي كتبنا عليها العناوين بخط اليد لأننا لم نكن نمتلك آلة الكتابة على الأظرف. *أتعلم*، قالت أمي: *إن كلاوس ترامبيتس أجبر أولاده على تعبئة النشرات؟* رغبت في معرفة كيفية حدوث ذلك، فقالت لي إنه حبسهم في حجرتهم عندما رفضوا، وكان ذلك أيضًا سببًا جعل زوجته تطلب الطلاق.

كنت أتساءل لماذا حكت لي أمي هذه القصة، لأن الأمر بدا لي وكأنها تريد أن تخبرني أن إقحامي في صراع الطاقة النووية صار على أحسن وجه حتى إن أحدًا لم يجبرني عليه، وفي الوقت نفسه أشعرتني بأنها كانت تدرك أني كان يمكن أن أحظى بشيء أفضل من أن أرسل خطابات معها هي وهارتموت أو أوزع منشورات.

لقد فعلت ذلك من أجلك، هكذا عقبت على كلامها، *لم أكن أريدك أبدًا أن تفعل ذلك من أجلي، ولكني أردت أن أكون لك قدوة مثلما كان هارتموت بالنسبة لي. الموضوع يتعلق بالتفاني، مثلما عايشه هارتموت من قبل، وأنا أعتقد أنه لا يوجد ما هو أكبر من التفاني. والتفاني قد يكون حماسًا، شغفًا، تضحية وأيضًا تواضعًا وحبًّا. لم يكن لدي أبدًا مثل ذلك التفاني الذي تحلى به هارتموت وهذا ما أدركه تمامًا، ولكن قليل جدًّا من الناس من يمتلكون تلك المنحة. هل تعرف أني كنت فخورة جدًّا بك عندما عبأت المنشورات ولصقت الطوابع بكل تركيز. كنت راكعًا على الأرض وقمت بالأمر بكثير من الاهتمام الذي أنساك من حولك. كما كنت فخورة بك أيضًا لأنك لم تكن تقف بجانبي فقط، وإنما كنت تسلم الناس في منطقة المشاة النشرات بيدك. لقد كنت فخورة لأنك لم تفعل ذلك من أجلي، كما قلت، وإنما من أجل القضية نفسها*.

لو كنت رددت على أمي في ذلك الوقت لكنت خيبت ظنها، فرغم أني كنت أجد الكارثة النووية الكبيرة سيئة ومثيرة للرعب، إلا أني لم أنشغل بالجلوس إلى الطاولة وبتعبئة الخطابات حتى أمنع كارثة أخرى.

أنا لست ولم أكن ذلك الشخص الذي يفرض على نفسه التفاني في شيء، أو على الأقل ليس بتلك الدرجة التي ألزمت بها أمي نفسها. فأنا لم أتبع شيئًا في حياتي بمثل هذا العناد والشغف مثلما فعلت أمي في كفاحها للحفاظ على إرث هارتموت. ربما لأني لم يكن لدي الأمر الهام بما يكفي، أو ربما لأن أمي لم تكن قدوة جيدة، لأن ما كان يعنيها في آخر الأمر لم تكن السياسة النووية بقدر ما كان اهتمامها بأمر هارتموت نفسه، بعكس ما فعل هو، حيث لم يهتم

بأمر أي أحد أكثر من اهتمامه بالقضية نفسها. سعدت جدًّا في ذلك المساء بقربي لهذا الحد من أمي، ولم أكن أريد أن أضعها موضع تساؤل من خلال طرح أي موضوع، وواصلت تعبئة الخطابات لأجل خاطرها وخاطري أيضًا.
عندما ذهبت أمي بالخطابات إلى مكتب البريد غضبت جدًّا لأن اثنتين فقط من أكثر من مئة جريدة هما من قاما بالرد عليها وبشكل مقتضب وأبديا استعدادهما لنشر الخطاب. وبالرغم من وقوع الكارثة النووية بالفعل إلا أنهم استمروا في محاولتهم أن يخرسوا هارتموت تمامًا، وكان هذا بالنسبة لأمي إثباتًا كافيًا لأنهم كانوا خائفين من إظهار هارتموت حقيقة الطاقة النووية، وتحريض الناس ضد السياسة النووية بأفعاله. لكني بعكسها رأيت أن السبب في ذلك كان يكمن في طول خطاباتها الموجهة التي كانت تبلغ ثلاث صفحات من الخط الصغير المكتوب على الآلة الكاتبة.
***
تحدثت أمي عن التفاني. مما يثير تساؤلي إذا ما كان التفاني يعني الهوس: كيف استطاعت أن تتغاضى عن كل صفاته الأخرى. فقد كان هارتموت إنسانًا انطوائيًّا إلى حد ما، لم يكن اجتماعيًّا، واعتبره الكثيرون مفسدًا للبهجة بل ومتذمرًا، علاوة على ذلك كان يقف موقف المعارض دائمًا، ولا يقبل أن يتنازل عن رأيه، كما كان يصر على مبادئه بعناد حتى إنه فقد إنسانيته. أعرف رسالة، كانت حتى بالنسبة لأمي مبالغًا فيها، بالرغم من أنها كانت موجهة لأصدقائه، وكانت بعنوان *كذبة مقديشيو*. تطرق هارتموت في تلك الرسالة إلى مشكلة تحرير الرهائن، واتهم الحكومة الألمانية بخداع محتجزي الرهائن، لأنها تفاوضت معهم طويلًا مستخدمة معهم الأكاذيب حتى أصبح فريق القوات الخاصة التابع لحرس الحدود الألماني مُستعدًّا لاقتحام الطائرة، كما كتب أيضًا: *إن بديهية الأكاذيب الرسمية آنذاك تخطت بوضوح أكاذيب الإرهابيين القادمين من موطن ألف ليلة وليلة*. وأضاف: إذا كنا سنتقبل تلك الأكاذيب فلن يتقبلها الإرهابيون أبدًا، *لأن لديهم شرقًا يجري في أجسادهم أكثر منا*. تم في أكتوبر ١٩٧٧ تحرير الرهائن. وقد كتب هارتموت هذا الخطاب قبل إشعاله النار في نفسه بوقت قصير.
حكت لي أمي أيضًا أن بعض حُماة الحياة من دائرة العمل بدؤوا يبتعدون عن هارتموت بعد كتابته ذلك الخطاب، حيث كان لديهم الشعور بأنه يفرض مبادئه على كل شيء وأنه على استعداد بالتضحية بالناس لكشف الحقيقة.
ولكن أمي اعترفت بأنها لم تكن تشاركه الرأي في مسألة تحرير الرهائن، لأنه كان يجب الكذب طالما الأمر يتعلق بحياة البشر. ولكنها قالت في الوقت نفسه إن ذلك كان يوضح منطقه في التفاني من أجل الحقيقة.
وحكت لي عن تجربة مُحزنة جدًّا جسدها هارتموت من موقف عاشه في طفولته حين قام بنقل صورة لحصة الرسم بالمدرسة وقدمها على أنها من رسمه هو فكان جزاؤه من المعلم صفعة على وجهه عندما اكتشف الكذبة وقال له: *هذه من أجل الكذب*. حينها كان هارتموت في نحو التاسعة أو

العاشرة من عمره، وقد هزته تلك الصفعة لدرجة أنه أصبح في حياته كلها منذ ذلك الوقت ضد الكذب وضد العنف أيضًا.
ولكن المأساة في هذا الموضوع أنه في نهاية كفاحه ضد الكذب قام بأسوأ أنواع العنف. *أعتقد أنه كان أعظم منا جميعًا لذلك لم يستطع كثير من الناس فهمه*، هكذا عقّبت أمي. ولكني سألت نفسي إذا كانت أمي في الحقيقة كانت تحبه ولكنها آثرت التحدث عن التفاني فقط. لأن من وجهة نظرها كان التفاني والحب متقاربين، إن لم يكونا نفس الشيء، لكنني لا أعتقد هذا لأنني لم ألحظ أنهما كانا متقاربين، وإلا لما كنتُ لأغفل عن ذلك بالتأكيد، وقد كنت قادرًا في ذلك العمر الصغير وقتها أن ألاحظ أي شيء غير مضبوط في زواج أمي وأبي.
لقد كنت على يقين من أنني كنت سأستشعر أي تقارب، أي توتر، أي فكرة اشتياق ولكن لم تكن هناك أي قبلة، ولم أضبطهما حتى في أي موقف، أو حتى أشعر بأنهما شعرا أني كان يمكن أن أضبطهما في موقف ما. ربما كان هناك شيء ما يدعو للدهشة من جهة والدتي في الطريقة التي كانت تتحدث بها معه. فقد كانت تتحدث معه بصوت أكثر انخفاضًا وأكثر تحفظًا وتفهمًا بعكس ما كانت تفعل مع أبي. لم تكن تعارضه أبدًا، إلا مرة واحدة وكانت لها عواقب فادحة وهذا ما أدركته بعد موتها.
***
لم أضبطهما في أي وضع مخل، مما لا يعني أن أمي لم يكن لديها الإمكانية لتعيش ما يمكن أن يُسمى بعلاقه مع هارتموت، لكني لا أستطيع أن أتصور مثل هذا الأمر لأني لا أستطيع ببساطة تخيل لا هارتموت ولا أمي في مثل تلك العلاقة. فلم يقيما أي علاقة شخصية لأن هارتموت كان يتحدث عما أبعد من العلاقة الشخصية، وكان يعني بذلك الأشياء الأهم من العلاقات التي بين البشر، وذلك لأن المشاعر كانت ستحيد به عن طريقه. حسب ما أتذكر سألته أمي في إحدى المرات عندما كنا في الطريق بالسيارة أين كان يسكن سابقًا في بيت الطلبة عندما كان طالبًا. وأعتقد أنها أرادت أن تتجول في ذاكرته بعض الشيء، ولكن هارتموت لم ينبس بكلمة حيث كان يجلس في المقعد المجاور لعجلة القيادة وينظر من النافذة ثم التفت أخيرًا إلى أمي وأكد لها على أهمية أن تبقى ثابتة ولا تخبر أحدًا أنها تمتلك المفتاح وخاصة الشرطة، إذا ما أصبحوا قُساة ومارسوا العنف. يجب أن تستوعب أن الأمر لم يكن يخصه شخصيًّا وإنما يخص القضية. وبهذه الطريقة يمكن للفرد أن يتحرر من الاهتمام بالآخرين كأفراد طالما الفرد ينظر للأمور العامة.
في ذلك اليوم من عام ١٩٧٧ كنا في الطريق إلى كولونيا حيث خطط هارتموت بدء حدث ما، وكنت مكلفًا بالتقاط الصور، بحيث لا يستطيع أحد لاحقًا ادعاء أن شيئًا لم يحدث هناك. أخبرتني أمي بما سيحدث ونحن في الطريق، في حين كانت أخبرتني قبل ذلك بأنها تريدني لأمر هام. وكانت تعلم أني أستطيع استخدام الكاميرا فقد كنت ألاحظ أبي في كل عطلة حيث كان

هو المسؤول عن التصوير في كل الرحلات. ولكنه حاليًا لم يعد لديه موضوعات جديدة للتصوير وإنما فقط اللقطات التقليدية لي أنا وأمي على الشاطئ أو حمام السباحة أو في أثناء التلويح من السيارة، أو جالسين في بلكونة منزل العطلات. كان أبي يلتقط الصور حُبًّا في كاميرته الـ*لايكا إس إل* التي اشتراها قبل سنوات لأنه كان يرى أن أفضل الكاميرات هي فقط المناسبة لالتقاط الصور لابنه. وحين كبرت أصبحت أنا أيضًا ألتقط الصور من وقت لآخر. وشرح لي كيف أتعامل مع الفلاش وضبط حدة الصورة، ولذا فرحت عندما اقترضت الكاميرا لألتقط الصور.

لم يكن مسموحًا لي بمغادرة المكان بكاميرته *اللايكا*، إلا أنني كنت أصور كثيرًا في المنزل والحديقة. ولأن الكاميرا كانت مزودة بمؤقت ذاتي كنت أمضي أمسيات كثيرة في تصوير لقطات رياضية لنفسي مشابهة لتلك التي في الجرائد، فمثلًا كنت أصور ضربة بالرأس أو ركلة نحو المرمى، وكنت أنزلق أرضًا وأنا أحاول أن ألاقي الكرة في اللحظة التي ينطلق فيها الفلاش. الشيء المزعج هو أني لم أكن أستطيع أن أختبر إذا ما كانت الصور قد التُقِطت كما كنت أتخيلها، فقد كان عليَّ أن أنتظر حتى يتم تحميض الفيلم فأجد الصور قليلة الشبه بتلك التي في الجرائد لأنني لم أضبط الوقت المناسب ولا المقطع المناسب، فبدلًا من ضربة الرأس يظهر جسم دون رأس وبدلًا من انزلاقه يظهر رأس دون جسد، لكنني على الأقل استطعت التعامل مع الكاميرا إلى حد ما، وهو السبب الذي جعل أمي كانت تُصر على اصطحابي معها دائمًا. وبالطبع لم تسمح لي أن أخبر أبي أي شيء مثل إني كنت أترك المدرسة بإذن أمي ولا إني كنت أساعدها في استخدام كاميرته سرًّا لصالح أهدافها.

كان هارتموت يخطط لشيء سري كما أخبرتني أمي وسوف تكتب عنه كل الجرائد لذلك كانوا بالطبع يحتاجون الصور التي ستطبعها الجرائد، ولأن لا أحد غيرنا كان يعرف ذلك كنا الوحيدين المسموح لهما بالتقاط الصور. *نحن؟* سألتها *ولكنك لا تعرفين على الإطلاق كيف تعمل الكاميرا الخاصة بأبي*. فقالت: *لذلك أحتاجك*. لم أتمكن ليلتها من النوم بسبب التوتر، وأخذت أسأل نفسي ماذا يمكن أن يكون ذلك الحدث السري. بعد أن خرج أبي من المنزل صباحًا أخذنا هارتموت من البدروم وسافرنا سويًّا إلى *كولونيا*. نحو ٤٠٠ كيلومتر. وكانت أمي تتولى القيادة. كنت أقضي السفريات مع هارتموت وأمي صامتًا ومن وقت لآخر كان هارتموت يتذكر أنه ليس بمفرده مع أمي في الأمام وإنما كان هناك أحد آخر على الكنبة الخلفية فيستدير ليسألني عما أفكر فيه في تلك اللحظة، ودائمًا ما كنت أجيب بأني أفكر في نادي *شتوتجارت* لكرة القدم، وكنت أعلم أنه ليس بالفريق الذي يمكن التحدث عنه مع هارتموت. في البداية حاول هارتموت أن يحكي أنه ذهب يومًا ما للاستاد وعندما سألته أي استاد لم يتذكر، لكنه في تلك المرة سألني إذا ما كنت أعرف إلى أين سنذهب فأجبته أننا ذاهبون إلى *كولونيا*. ثم سألني إذا

ما كنت أعرف بما تشتهر *كولونيا* فأجبته: *بفريق إف سي*، عندها بدأ هارتموت يحكي عن *كاتدرائية كولونيا*.
الكاتدرائية هي ثالث أطول كنيسة في العالم واستغرق بناؤها أكثر من ٦٠٠ عام، وتعادل أهميتها بالنسبة للمدينة أهمية برج إيفل لباريس أو أهمية تمثال الحرية لنيويورك، لذلك اختارها لتكون موقع الحدث الذي سيقوم به لأن هذه الأعمال تستدعي جذب الأنظار في المقام الأول.
على الأقل عرفت أننا سنتجه إلى *كولونيا*، حتى وإن لم يتضح لي ماذا ينوي هارتموت أن يفعل في الكاتدرائية. ربما أراد أن يبدأ إضراب الطعام مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع، والذي كسره من قبل في *كاسل* لأن هيلموت شميدت تنازل قليلًا ووعد هارتموت أن يناقش سياسة الطاقة النووية مع الشعب. وكما فهمت قديمًا يجب أن يكون لكل فرد رأيه، حتى هؤلاء أمثال هارتموت الذين كانوا ضد سياسة الطاقة النووية، وهذا ما كان يطلق عليه الحوار الشعبي. لكن الأمر لم يسِر بالشكل الذي تصوره هارتموت لأن هيلموت شميدت لم يكن موجودًا ولم تكن الفكرة نابعة منه وإنما من مستشاره. كما لم يتحدث كل النقاد وهو ما اعتبره هارتموت خيانة وخداعًا *ربما عالج هذا الخداع في رسالته *كذبة مقديشيو**.
عندما وصلنا إلى *كولونيا* ركنا السيارة بالقرب من الكاتدرائية، والتي كانت بدورها قريبة من محطة القطار، وكان هذا جيدًا لأننا وجدناها على الفور حيث كان يجب أن نتبع اللافتات حتى المحطة، حيث أخذ هارتموت حقيبة ظهر من مكان تخزين الحقائب هناك وقال: *لننطلق الآن*. فالتفتت إليّ أمي وسألتني: *هل لديك كل شيء؟ هل أنت متأكد أن الكاميرا بها فيلم؟* فعلقت شنطة الكاميرا على كتفي واتبعت أمي التي اتبعت بدورها هارتموت.
لقد كانت الكاتدرائية ضخمة جدًّا حقًّا، ومؤثرة إلى حد ما حتى ولو لم أخبر أمي وهارتموت بذلك سابقًا. قمنا بالدوران حولها مرتين بينما كنت أتلكأ في المشي وراءهما وكما بدا فإن هارتموت كان يبحث عن شيء ما لأنه كان يتوقف قليلًا ويتأمل بعض مواقع المبنى ثم دخلنا ووقفنا أمام المقاعد ونظر هارتموت حوله ثم رجع وخرج منها ثم أنزل الحقيبة من فوق كتفه أمام المدخل وأخرج منها أساور لليدين، وتساءلت هل يريد أن يقبض على أحد؟ بعدها رأيته أخرج مفتاحًا صغيرًا وأعطاه لأمي فوضعته في جيب بنطالها على الفور.
بعد ذلك وضع هارتموت أحد أساور اليد حول معصمه الأيسر ولف السلسلة حول السور الحديدي المحيط بالسلم الذي يقود للكاتدرائية ثم وضع الأسورة الأخرى حول معصمه الأيمن وأغلقها. وبذلك قام بتقييد نفسه، فسألت نفسي كيف يكون الإنسان بهذا الغباء ليقيد نفسه.
ثم أخرجت أمي ورقة من الكارتون وضعتها أمام أقدام هارتموت مكتوبًا عليها: *من أجل حوار مجتمعي حقيقي* و*ضد السياسة النووية* بعد ذلك ابتعدنا نحو بضع مترات وقالت أمي: *الآن*، فأخرجت الكاميرا من الحقيبة

ونظرت إلى السماء كما علمني أبي حتى أحدد موقع الشمس فقد كنا في وقت الظهيرة والسماء مليئة بالغيوم إلا أن الشمس كانت تظهر من خلالها. أدرت العدسة الشيئية حتى ضبطتها ثم نظرت في العدسة ورجعت عدة خطوات للوراء حتى ألتقط صورة هارتموت بكامل هيئته. وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي ألتقط فيها صورة وثائقية تاريخية كما أطلقت عليها أمي: صورة هارتموت في أساور الحبس أمام *كاتدرائية كولونيا*، والتي كان من الصعب التعرف عليها في الصورة لأني التقطت فقط صورة السلالم والسور الحديدي وجزءًا من المدخل وليس الكاتدرائية نفسها لذا كانت تبدو كـ*كولونيا* فقط وليس كـ *كاتدرائية* كولونيا في حد ذاتها. كان أكثر ما يحزن في هذه الصورة الوثائقية أن لا أحد غير هارتموت اعتبر أن حدث تقييد هارتموت لنفسه حدث تاريخي. فلم يظهر في نشرة الأخبار اليومية ولا في نشرة أخبار الراديو ولا حتى في الجرائد الوطنية.
الوحيدة التي نشرت الخبر كانت جريدة *كولنر شتادت أنتسايجر* المحلية وأرفقته بصورة لكنها لم تكن تلك التي التقطتها، وإنما صورة التقطها صحفي كان هناك بالصدفة عندما جاء اثنان من رجال الشرطة ليتحدثا مع هارتموت. كُتب سطران تحت تلك الصورة يتحدثان عن احتجاج وحيد انتهى بعد ساعتين *وطبعًا احتفظت أمي بهذا الخبر أيضًا*. وأخيرًا اقتربت فرق المطافئ ولكن ليس بصافرات الإنذار وسيارات الحريق ولكن في عربة فولكس فاجن حمراء نزل منها اثنان يحملان حقيبة معدات. ولم يبد هارتموت أي مقاومة عندما قضم الشاكوش السلسلة التي كانت بين الأساور المثبتة في يديه. حتى إني شعرت أن هارتموت كان سعيدًا لأنه لم يبق مقيدًا بالسور أكثر من ذلك.
بالرغم من أن لا هارتموت ولا أمي نطقا كلمة عن فشل العملية وأن هيلموت شميدت لم يتراجع تقريبًا عن سياسة الطاقة النووية، فقد استطعت أن أشعر بهزيمتهما بوضوح، لأني كان لدي خبرة في التعامل مع الهزائم، فأنا لا أذكر أننا كسبنا أكثر من مرتين خلال السنوات الطويلة التي قضيتها في اللعب في اتحاد كرة القدم، بعد الانتهاء من اللعب كان أبي يأخذني مع اثنين أو ثلاثة من اللاعبين ويستضيفنا في المنزل. كانت للهزائم ثلاث مراحل:
المرحلة الأولى: لم نكن ننطق ولا بكلمة، فكل منا كان مشغولًا بنفسه.
المرحلة الثانية: كنا نتصرف كما لو كان شيئًا لم يحدث، ونتحدث عن أشياء أخرى، مثلًا كيف كنا نجد المعلمين سخفاء أو عن لوكاس الذي قفز ضد الحاجز بدلًا عن أن يقفز فوقه في حصة الجمباز.
المرحلة الثالثة: كنا نبحث عن مذنب، وفي حالتنا كان غالبًا ما يكون الحَكم الذي تغاضى عن الأخطاء ولم يعترف بالأهداف التي سجلناها.
في طريق العودة إلى *توبينجن* جلست مع هارتموت وأمي في السيارة وكانا صامتين، ثم سألتني أمي عما أخطط له في الأيام القادمة وإذا ما كنت أريد الارتباط بأي مواعيد فأجبتها: *لا أعرف*. بعدما تركنا كوبلنز قالت أمي: *إنهم الناس يا هارتموت. الناس جاهلون. إنهم أنانيون يبدؤون في الدفاع عن

أنفسهم عندما يتعلق الأمر بمصيرهم ولن يهتموا بمحطة للطاقة النووية إلا إذا بنيت أمام منازلهم -البعيد عن العين بعيد عن القلب- وشخص مثلك يخيفهم لأنهم لا يفهمونك*. كان هارتموت ينظر باستمرار من النافذة ويبدو عليه التفكير، وكان كما لو كان غائبًا، مما لفت نظري لأني لم أعتد أن أراه هكذا. سرنا لفترة ونحن صامتون، وكانت أمي تسير على الطريق الصحيح فلم يكن هناك شيء على الطريق السريع يمكن أن يربك أمي كأن تضطر مثلًا لتخطي شاحنة على الطريق.
إن العالم بحاجة إليك. قالتها أمي فجأة، حتى إني للحظة لم أعرف إذا كانت تقصدني أم تقصد هارتموت. ثم أضافت: *يجب أن تستمر، يومًا ما سيشكرونك. يومًا ما سيعطلون المُولد، وستعرف وقتها أن ما فعلته كان يستحق*. لا أعرف إذا كانت أمي وقتها مقتنعة بأن محطات الطاقة النووية سوف تغلق يومًا ما. أعتقد أنها كانت في حالة من خيبة الأمل في ذلك اليوم لدرجة أنها لم يخطر ببالها شيء تواسي به هارتموت غير ذلك.
وللمرة الأولى عايشت أمي فشل هارتموت فشلًا ذريعًا، واستطاعت أن تُحمل الناس مسؤوليته ولكن ذلك لم يحسن من الأمر شيئًا، فبرغم كل شيء كان من المهم أن نكسب هؤلاء الأشخاص في المعركة. بالعودة للنهاية وبمعرفة بداية القصة كان من السهل بالطبع إدراك العلامات التي دلت على نهاية هارتموت المأساوية. مرة واحدة أصبحت متأكدًا من أني كنت أستطيع التنبؤ بالنهاية المحسومة من خلال تلك الصورة التي التقطتها لهارتموت حينما كان عمري تسع سنوات. التصور بأن هارتموت قد أخذ قراره وهو في رحلة العودة من *كولونيا* جعلني أنظر للأمور نظرة أخرى. ترى هل شعرت أمي بذلك وقتها؟ أم أنه أخبرها بذلك لاحقًا؟

***

ظلت الصورة دائمًا على طاولة مكتبها، مُزاحة قليلًا للخلف، وفي واحد من تلك البراويز ذات الداعم الخلفي، وقد وجدتها في أحد الصناديق التي أخذتها معي إلى منزلي: هارتموت بجانب السور الحديدي والأسوار لا تخطئها العين، بينما لم يكن وجهه واضحًا للأسف لأني كنت حريصًا وقتها على أن أظهره كاملًا في الصورة وتمنيت لو كبرتها حتى أتمكن من التعرف على شكل عينيه، بينما بدا جسده مُرتخيًا ورأسه مائلًا. لم يبد في وقفته كجندي فخور، وإنما كجندي أسير، وللعجب أيضًا بدا ضعيفًا كما لو كان خسر معركته وسمعته أمام نفسه.
لو لم أكن مُدركًا للموقف جيدًا لظننت أنه سيجلس في اللحظة التالية على الدَّرَج ساندًا رأسه على يده اليسرى، وهو الأمر الذي كان غير ممكن. لقد شعر المرء بوجود هارتموت في تلك الظهيرة في *كولونيا* بالفعل، ولكنه لم يؤخذ مأخذ الجد ولا حتى من رجلي الشرطة اللذين ظهرا فجأة. فقد قاما بشكل روتيني بتسجيل الإثباتات الشخصية الخاصة بهارتموت واتصلا بالمطافئ كما لم يتلوا عليه الادعاءات وإنما قاما بإثبات حالة تقييد هارتموت

لنفسه، لدرجة أنه لم يرتبك عند توضيح موقفه ولا حتى وضح شيئًا من الأساس.
ربما كان من الأفضل لو أن أمي أخرجت المفتاح من جيبها وفتحت الأساور ورحلت معه دون أي كلمة. ولكننا بدلًا عن ذلك اضطررنا لانتظار المطافئ بينما كان يتحدث رجلا الشرطة عن شيء ما حدث في دائرة الشرطة، وكانت الناس تمر بنا ثم تختفي داخل الكاتدرائية، في حين تصرفت أمي كما لو كان ليس لها علاقة بالموضوع وأخذتُ أنا ألتقط صورًا للكاتدرائية حتى امتلأ الفيلم.
بعد فترة، حينما نضجتُ قليلًا، اتهمتني أمي بأنني أخذت اللقطة الخاطئة للمشهد: *لقد ظهر هارتموت وحيدًا في الصورة*، هكذا قالت لي. *كان يجب أن تبتعد عنه أكثر لتلتقطها*. كنا نقف وقتها في حجرتها أمام مكتبها متأملين الصورة، فدافعت عن نفسي قائلًا: *أنت تعرفين كما أعرف أنه كان وحيدًا. لقد كنتِ موجودة معه*.
فقالت لي: *لقد كان هناك الكثيرون الذين شاهدوه*، ثم أضافت: *حتى لو لم يساندوه في مكان الحدث فقد غيّر وعيهم على كل حال وهذا هو المغزى*.
هل تعتقدين ذلك فعلًا؟ ثم سألتها أيضًا: *هل تعتقدين أن أحد هؤلاء الناس ذهب إلى بيته وفكر في حياته بشكل مختلف؟*. *تغيير الوعي يحتاج إلى مناسبة وإلى وقت ولا يتم بين لحظة وأخرى*. ثم سألتها إذا ما كانت تأملت الصورة من قبل ولاحظت كيف بدا هارتموت ضائعًا في الصورة، ثم أخذت الصورة بيدي ووضعتها أمام وجهها مباشرة.
أنا على يقين تام أنه أدرك في تلك اللحظة أنه لم يغير وعي أحد وأنه قد بدد جهده، وأنه لو كان قيد نفسه مئة مرة أخرى في مكان آخر لما غير ذلك شيئًا، حتى لو أنكرت ذلك. انظري إلى الصورة بدقه: الرجل يبدو يائسًا.
لم يكن هارتموت يائسًا. لقد كان يعرف أنه سيواجه انتكاسات، فالأمر لا يخلو منها، ولكنه كان يعرف أيضًا أنه يجب أن يكمل. وقد فعل. *لقد أحرق نفسه بعد سبعة أشهر*. أخذت أمي الصورة من يدي وأعادتها على المكتب، ثم بقيت واقفة هناك تستند بيديها إلى سطح المكتب، ولا أدري أين كانت تنظر ولكنها لم تكن تنظر للصورة على أي حال. كانت تقف صامتةً وحسب.
***
قمنا سويًّا في شهر يونيو قبل وفاتها برحلة، فقد أرادت أمي الذهاب إلى *فرايبورج* حتى تشاهد مسرحية تعرض هناك. كانت المسرحية تسمى: *الخُضر. قصة نجاح*. وكانت تلك المسرحية تدور بشكل أو بآخر حول هارتموت، ولم تكن أمي بالطبع لتفوت مشاهدة قصة هارتموت تُعرض لأول مرة على خشبة المسرح. حدث ذلك بعد ثلاثة أشهر من حدوث *فوكوشيما*، حيث مر العام بشكل جيد بالنسبة لهارتموت وبالتالي بالنسبة لأمي.
كنت واثقًا من أني لن أستطيع أن أثنيها عن تلك الرحلة، وإلا لكانت ركبت السيارة الـ*بولو* القديمة الأتوماتيكية وحدها، تلك السيارة التي اشترتها

لنفسها قبل سنوات، ثم تركتها لي منذ فترة طويلة في مقابل أن أقلّها من وقت لآخر. كان عنادها يدفعني إلى التنازل، كما كان يحدث كل مرة.
عندما اتصلت بي أخبرتها على الهاتف بأنها ستسافر وحدها لأنه من الجنون أن أقود ألفًا وستمئة كيلومتر لقضاء ليلة واحدة في المسرح، فردت بأنها ستسافر وحدها. فقلت لها: *ولكنك لم تسافري منذ سنوات، كما أنك لا تستطيعين المشي على قدميك*. وكان ردها أنها لن تسير حتى *فرايبورج* وإنما ستقود والمرء لا ينسى أبدًا قيادة السيارة ولا قيادة الدراجات.
حين ذهبت للفراش في المساء كان واضحًا لي أن الأمر لن يمر بخير فقد كانت بمثابة المعجزة أن ظلت أمي طوال حياتها دون التسبب في حوادث، وكان ذلك يرجع إلى حكمة سائقي السيارات المحيطة. تخيلت أني أرى أمي خلف عجلة القيادة تواصل القيادة رغم كل الصعاب، فوضعت أمام عيني كل لحظات الرعب التي عايشتها في أثناء الركوب معها، كيف تخطت الدوران باختصار عبر الجزيرة الوسطى، وكيف قادت في الاتجاه المعاكس على الطريق السريع لدرجة أن السيارات المقابلة كانت تُطلق آلة التنبيه وتتنحى إلى الخط الجانبي من الطريق.
كما تذكرت رحلات وأنا صغير، كان سخان تدفئة الهواء يعمل فيها على أقصى درجة، لأن أمي كانت تركز في القيادة لدرجة أنها كانت لا تستطيع ضبط منظم التدفئة فكانت الحرارة في السيارة ترتفع أكثر وأكثر لدرجة لا تحتمل. في معظم الأوقات كنت أتسلق بين المقاعد من الكنبة الخلفية إلى الأمام لأضبط التدفئة.
بالطبع لم أستطع تركها تقود بمفردها.
في وقت ما بالقرب من *لايبتسج* قالت لي: *أنا أتشوق لمشاهدة المسرحية. هل قلت لك إن مخرجًا كتب لي من فترة قصيرة ليصنع فيلمًا عن هارتموت؟ كان رجلًا صغير السن، طالبًا، لقد قلت لك إن الوقت قد حان للحدث. فرجل مثل هارتموت لا يمكن إسكات صوته*. قلت لها: *إذًا فقد استحق بالنسبة لك التزامك كل هذا العناء*. *لم يكن من أجلي، لم يكن الأمر يتعلق بي وإنما بهارتموت، وموته لا يجب أن يذهب هباء، فلم يمت من أجل نفسه وإنما..*.
...وإنما من أجلنا كلنا، أعرف ذلك، ولكني لم أطلب منه أن يضحي من أجلي وكذلك باقي الناس لم يفعلوا.
لا يطلب أحد من الآخر أن يضحي من أجله. الأمر أكبر من ذلك، هل تعرف أن الرهبان البوذيين الذين أحرقوا أنفسهم في فيتنام اعتبروا ذلك حدثًا يعبر عن التعاطف؟.
لم أرد أن أبدأ مرة أخرى في اعتبار مقتل هارتموت نوعًا من اليأس فهذا النقاش كان لا يؤدي إلى شيء. تحدثت أمي عن التعاطف وهي صفة لم أكن أراها تتسق مع شخصية هارتموت، وأيضًا إلى درجة محدودة مع أمي. فكرتُ كيف يمكنني أن أنكر التعاطف على شخص ضحى بنفسه في سبيل الآخرين.

ألم يكن ذلك تناقضًا؟ ربما يرجع ذلك لأني كنت أربط بين التعاطف والمودة. احتضان شخص في حزنه، والتعبير له عن تعاطفنا معه. الإنسان المتعاطف قادر على أن يضع نفسه مكان الآخر وهذه المقدرة كانت تنقص هارتموت أو أنه كان يخفيها جيدًا. أعتقد أنه كان منشغلًا بنفسه بدرجة جعلته غير قادر على التعاطف. وأمي؟ لسبب ما كنت أعتقد دائمًا أني مكثت فترة طويلة بالحضّانة بعد ولادتي. تسللت تلك الصورة إلى خيالي، وكلما حاولت أن أبحث عن السبب في ذلك، وإذا ما كان أبي قد لمّح لذلك أو أي أحد من الأسرة، لا أتذكر شيئًا؛ كما كنت أستبعد أن تصور الحضَّانة هذا يستند إلى خبرة أصلية مررت بها، لأني لا أعتقد أن شخصًا بالغًا قد يتذكر تجربة قد حدثت له عند مولده.
عندما تحدثت أمي عن التعاطف في أثناء الرحلة إلى *فرايبورج* أتت إلى ذهني صورة الحضَّانة فسألتها إذا ما كنت وضعت في الحضَّانة عند مولدي آنذاك. توقعتُ سرًّا أنها حتى لن تتذكر ذلك مطلقًا لأنها كانت نادرًا ما تحكي لي قصصًا عن طفولتي. لكنها أرادت أن تعرف ما الذي دفعني للسؤال. فقلت لها هكذا فقط ثم سألت نفسي إذا ما كانت تربط بين التعاطف والحضَّانة.
عرفت أن الولادة كانت سهلة دون تعقيدات، حيث أتيت للعالم بعد ست ساعات من أول ألم وذهبت للمنزل بعدها بيومين.
لم يخطر ببالي أن أسألها من قبل إذا كانت أرادت يومًا أن تصبح أمًّا، ولا أعرف ما الذي دفعني لأن أسألها في أثناء الرحلة عن ذلك، ولا سيما أن الإجابة قد تكون مخاطرة.
بالنسبة لأمي بدا السؤال مفهومًا، فبدأت تحكي عن الولادة بحماس، وقالت إن إنجاب طفل كان جزءًا من ذلك الزمن، لذا لم تكن تحتاج لتفكر كثيرًا في ذلك الأمر.
وفي عالم أبي كان من الواضح تمامًا أن الزوجة يجب أن تهتم بالبيت والطفل. ولكنه كان بالشيء القليل بالنسبة لها حتى يملأ محتوى حياتها على الدوام.
كانت أمي تنظر إلى الشارع طوال الوقت من خلال زجاج السيارة، وبدا لي كما لو كانت تقود السيارة معي، فقد جلست مستقيمة ومنحنية بعض الشيء للأمام وكانت أحيانًا عندما تومض إضاءة الفرامل تتعلق بكلتا يديها بلوحة القيادة. فجأة التفتت ناحيتي، فقد أحسست بنظرتها لي من الجانب.
سألتني: *هل تعتقد أنني لم أكن أريدك؟ كيف وصلتَ إلى هذه الفكرة؟ أنت تعتقد أني لم أكن أمًّا جيدة، أليس كذلك؟ هل بسبب أني تركت أبيك؟*
تمسكت بتلقائية بعجلة القيادة جيدًا ونظرت للأمام وتمنيت لو قابلنا زحامًا أو أن سيارة فرملت فجأة أو أي شيء يدفعني لرد فعل ما أو أن أجد إجابة.
*والدك لم يتقبل حقيقة أنني وجدت مفهومًا آخر للحياة بعيدًا عن حدود العائلة. لقد كان مستاءً مني لأني لم أكن أريد أن أكون متواجدة فقط من أجله ومن أجلك. لقد كان لديه شركة ولم يتفهم فكرة أنني كنت أستطيع أن أعمل بالرغم من أن لديَّ طفلًا. كان يرى أنها ميزة ألا تكون المرأة مضطرة

للعمل. والدك تربى على ذلك ولم يستطع العيش بطريقة مختلفة لقد كان سجينًا داخل معتقداته، وكان يحتاج إلى زوجة تدلك له ظهره وتطبق قمصانه. هل تتخيل أنني كنت أنتقي القمصان لوالدك سنين طويلة، بل وكنت أنتقي له الجوارب المناسبة للبنطلونات؟*.
كان من الصعب عليَّ أن أتخيل أمي وهي تطبق القمصان لأبي، خاصة أنها كانت مجردة من كل ما يتعلق بالأمومة، حسب ما كنت أراها دائمًا.
-*لم يكن اختيار الجوارب لزوج هو ما أردته. وفي وقت ما ضاق بي العالم داخل المنزل، في حين فتح لي هارتموت نافذة. ولكن كل هذا لم يكن له علاقة بك*.
-*لقد كان الأهم بالنسبة لكِ أن تقضي عيد ميلادي في إرسال منشورات مع هارتموت. لقد كان لهذا علاقة بي*.
ـ *ما زلت تحمل تلك الذكرى لي. لقد حدث ذلك مرة واحدة، هانو، لأن الأمور لم تكن لتسير بطريقة أخرى، ولو كانت محطة الطاقة النووية بُنيت في *ريدريش*، لكنا وجدنا المُولد أمام بيتنا، لأن *ريدريش* تبعد عن *توبينجن* مسافة ٢٠ كيلومترًا فقط*.
لم أدر ماذا يجب أن أقول، فقمت بالقيادة فترة ونحن صامتون. وفي وقت ما انعطفت نحو استراحة الطريق السريع، وسألت أمي إذا ما كانت تود النزول أو أن تطلب شيئًا من محطة الوقود، ولكنها لم تكن تريد هذا ولا ذاك. تزوّدتُ بالبنزين، ثم توجهت إلى الاستراحة ماشيًا، في حين ظلت أمي جالسة في السيارة. صعدت فوق جسر صغير مغطى بالعشب ونظرت وراء السور الذي يفصل الاستراحة عن المكان المحيط بها، ثم التفت لأشاهد أمي وهي جالسة على المقعد المجاور للسائق فرأيتها تجلس مستقيمة وكأن ظهرها لم يلمس البلاستيك فتساءلت كيف تستطيع أن تفعل ذلك وهي في سن الـ 71 وبعد خمس ساعات من السفر.

***

في أكتوبر 1977 وقبل فترة قصيرة من موت هارتموت أخذتني أمي مرة أخيرة باسم القضية وسافرنا إلى *دورتموند*، حيث كان سيقام رالي في صالة *وستفاليا* والذي أتى إليه نحو أربعين ألف شخص من جميع أنحاء ألمانيا. لم أكن قد سافرت إلى *دورتموند* قبلًا، ولكنني كنت أعرف المدينة من خلال ألبومي لكرة القدم، كانوا يرتدون الفانلة الصفراء. فقد لعب كل من فيلي ليبينس ومانفريد بورجسموللر مع فريق *بروسيا* وكان المدرب هو أوتو ريهاجيل. خسر فريق *دورتموند* وقتها مباريات محلية ضد *دوسلدورف*.
أخبرتني أمي أننا سنذهب لحضور مظاهرة، ولم يكن هذا شيئًا جديدًا بالنسبة لي وقتها، فقد كنت أعرف ما هي المظاهرة، لأني عاصرت مظاهرات في أشكال عديدة: مظاهرات صغيرة مكونة من خمسة إلى ستة مشاركين أعرفهم كلهم لأنهم من دائرة عمل *حُماة الحياة*، كما كنت أعرفهم أيضًا من مظاهرات أخرى بها تجمعات أكبر. كنت موجودًا عندما احتل مئات الطلاب

جسر *النيكار*، ورأيت ذلك التجمهر على جانبي النهر. كما كنت في *جرواندا* مما ترك في نفسي أثرًا كبيرًا حيث أخذت أرسم بعدها بأسابيع صورًا لرجال شرطة يحملون دروعًا واقية وخوذات وعصي. حينما كان صوت المروحيات يطقطق فوقنا كنا نقف في صف مع باقي المتظاهرين، وأنا في الوسط بين هارتموت وأمي. من يرى الصور كان سيعتقد أننا أسرة واحدة: أب وأم وطفل، ولكن من يشاهد الصور بدقة فسوف يجد أن الطفل يمسك بيد واحدة: يد أمه.
لم أكن أعرف إذا كان هارتموت وأمي كانا يعرفان ما الذي ينتظرهما في *دورتموند* فقد كان الصمت يخيم على السيارة في أثناء الرحلة وبدا الأمر كما لو أن كلًّا منا كان في عالمه الخاص. كنت أود لو أعرف ما الذي يدور في رأس هارتموت وإذا ما كان من داخله قد ودّع الحياة، تمامًا كما يفعل مريض السرطان الذي لديه ورم في المخ غير قابل للعلاج والذي يعلم أنه لم يعد لديه وقت كافٍ ليعيشه، كما لو كان ليس هناك مخرج آخر للحياة وكما لو كان لا مفر من مواجهة الموت. عندها قرر هارتموت الموت بمفرده، وكان قرارًا بإمكانه التراجع عنه في أي وقت ولكنه لم يستطع، كما لو كان زرع لنفسه ورمًا في المخ؛ ولم يكن ليدهشني أن يكون ما عايشناه في ذلك اليوم في *دورتموند* قد فاقم ذلك الورم.
بدأ اليوم في *دورتموند* على مقعد في حديقة لأنني كنت جائعًا، وكنت أتمنى أن آكل نقانق، نقانق مع بطاطس مقلية، غير أني استهنت بعناد أمي لأنها كانت تحاول أن ترضي هارتموت في ما يتعلق بمسائل التغذية.
قمنا بركن السيارة بالقرب من محطة القطار وبحثنا عن مكان للجلوس وفي أثناء ذلك مررنا بأكشاك كثيرة لبيع النقانق، حتى وجدت أمي مقعدًا فأخرجت معدات الرحلة ووضعت ساندويتشًا في يدي: خبز كامل الحبوب محشو توفو، فقد كانت متأثرة بكتاب قد اشترته من قبل *كتاب التوفو* مما كان عاقبته أنني كنت اتعامل مع التوفو أكثر مما كنت أود أن أفعل.
لم أكن كثير الأكل وما زلت كذلك، وكنت قديمًا أهدي ساندويتشاتي لجوستاف الذي كان دائمًا ممتنًّا لحصوله على وجبة إضافية، وكان الوحيد الذي لا يمانع أكل ساندويتشات قد قضمت من قبل. كان يرسب دائمًا في مادة الرياضة البدنية لأنه كان سمينًا جدًّا. سجل مرة في الوثب الطويل نصف متر، كما استغرق في العدو السريع لخمسين مترًا نصف دقيقة. استحضرت صورة جوستاف في ذهني لأنني تذكرت اليوم الذي أعطتني فيه أمي ساندويتشًا من التوفو للمرة الأولى وأنا ذاهب إلى المدرسة وبمجرد أن وضعته على المنضدة طلبه جوستاف؛ وأخذت أراقبه وهو يقضمه ويمضغ ما لديه في فمه حتى اختنق وصار غاضبًا بجنون لأنه اعتقد أنني كنت أخدعه. سألني: *هل تريد أن تسخر مني؟ ماذا يفترض أن يكون هذا؟*، ثم ترك الساندويتش الذي قضمه على المنضدة، ورميته عندما غادرنا الفصل في سلة المهملات، والتي أرسلت بعدها بعدة أسابيع لمحطة التخلص من التوفو.

وفي المنزل كنت أجيب دائمًا عن السؤال بأنني أكلت الساندويتشات، ولكي أجعل الإجابة مقنعة كنت أدعي أن طعمها أعجبني بالرغم من أني أكلت أشياء أخرى ألذ طعمًا إلا أني مستعد أن آكلها مرة أخرى، مما كان يسعد أمي لأنها كانت تعتقد أن لا شيء صحي أكثر من التوفو وأن اليابانيين لم يكن لديهم أعلى متوسط للعمر على مستوى العالم من فراغ. قال أبي إن أمي تعني هذا جيدًا فهي تعتقد أن الطفل الذي يعتاد على طعم التوفو والغذاء بنظام *فيرلاند* فإنه سوف يعيش عمر متوشالخ.
لقد بحثت فوجدت أن متوشالخ عاش لعمر ٩٦٩ عامًا مما يعني إن لم أخطئ في الحساب أنه يمكنني أن أعاصر ٢٤٢ بطولة لكأس العالم وكأس الأمم الأوروبية و٩٦٩ بطولة للدوري الألماني البوندس ليجا -لا أعرف كيف يستطيع المرء حسابها بدقة- وحين أذكر أوتمار هيتسفيلد سيعتقد المتلقي كما لو أنني أتحدث عن إل. سيد أو فيلهيلم المستعمر اللذين عاشا في القرن الحادي عشر، مع الفارق أني سأدعي أنني رأيت الاثنين بعيني.
كانت المشكلة هي أنني لو لم أكن مضطرًّا لما كنت أكلت التوفو. ولكن في ذلك اليوم في *دورتموند* كان يجب أن آكله، لأن أمي كانت تجلس بجانبي ولم يكن لديَّ إمكانية أخرى حتى أخفي الساندويتش. والذي لم يجعل الأمر سهلًا هو أنني كنت أنظر إلى محل النقانق بالجانب المقابل بينما كنت مضطرًّا لمضغ التوفو. لم يكن هارتموت يأكل التوفو، وبدلًا عن ذلك كان يمسح اللبنة على شريحة من الخبز ويشرب المياه بجانبها. وكانت هذه وجبته دائمًا في الرحلات لأنها كانت تحتوي على كل ما يحتاجه الجسم: البروتين، الكربوهيدرات والمياه. وهكذا قوينا أنفسنا في الطريق نحو قاعة *وستفاليا*.
لم نكن الوحيدين، فبجانب القاعة كانت تقف صفوف كثيرة من الأتوبيسات، كنت أعرف ذلك المنظر من أيام المباريات الخارجية. كما كانت هناك حشود من البشر تتجه نحو القاعة. قالت لي أمي إن أربعين ألف متفرج أتوا من جميع أنحاء البلد إلى *دورتموند*. أربعون ألف متفرج كان عددًا كبيرًا، أكبر بكثير من أعداد المتظاهرين في *توبينجن*. كم كانت أمي وهارتموت سيفرحان لو أن كل هؤلاء الناس قد أتوا لـ *دورتموند* متظاهرين ضد سياسة الطاقة النووية وتكلفوا عناء السفر لمدة عشر ساعات كما أخبرتني أمي بعدها.
هل تتخيل، قالت لي أمي، *إنهم أخذوا إجازة من رؤسائهم في العمل حتى يحتشدوا*. لقد كان هذا رائعًا من رؤسائهم وحتى إنهم لم يتكبدوا ثمن تذاكر السفر وأخذوا فوقها وجبة غذائية وعشرين مارك لمصاريف السفر حتى يأتوا لـ*دورتموند*.
عندما حكت لي أمي ذلك في اليوم التالي كانت غاضبة بسببه، وربما كنت أعرف أيضًا السبب، فلقد شاهدته بعيني في اليوم السابق واندهشت كثيرًا. أربعون ألف شخص، على خلاف هارتموت وأمي وأنا، لم يكونوا ضد الطاقة النووية وإنما معها. كانوا يرفعون لافتات كتب عليها: *الكهرباء = حياة. يجب

أن توجد كهرباء في المستقبل*. أو: *هيلموت! حتى أنت تستخدم ماكينة الحلاقة الجافة* أو: *دون طاقة نووية سنعود بالتأكيد للعصور الوسطى*. كنت أعرف بالطبع أن هناك أناسًا مع الطاقة النووية، وكان أبي واحدًا منهم، ولكنني لسبب ما لم أكن لأتخيل أن كل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يلتقوا في مظاهرة، وكان واضحًا كيف أنهم كانوا منظمين.
لم أكن أعرف ما الذي كان ينوي هارتموت وأمي عمله في ذلك اليوم، ولكن ربما كانا يفكران في مظاهرة مضادة أو شيئًا من هذا القبيل، ذلك لأن شنطة السيارة كانت مزدحمة بطاولة مبطنة وحقيبة بها منشورات ولافتات مكتوب عليها: *دائرة العمل. حُماة الحياة* لا أدري ماذا يمكن أن أتصور من وجهة نظري الحالية أسوأ من ذلك، نحن الثلاثة في وسط كل هذا التجمع من المؤيدين لسياسة الطاقة النووية، نقف خلف طاولتنا ونحن نشعر كما لو كنا قرودًا ذوي مؤخرة حمراء كبيرة في حديقة الحيوان -إذا كانوا قادرين على التأمل الذاتي- أو حقيقة أننا تركنا الطاولة في شنطة السيارة لأن حتى هارتموت رأى أنه لن يستطيع تغيير فكر هؤلاء الناس.
وقفنا تائهين في الميدان الأمامي وتخيلت كما لو كنا أخطأنا في منطقة المشاهدين في الاستاد ووقفنا فجأة بين المشجعين الملوحين بالأعلام والهاتفين الذين يرتدون الفانيلات الخاطئة وينشدون النشيد الخاطئ. لا أدري لماذا أراد هارتموت التواجد هناك. ولكننا أخذنا نتحدث قليلًا عن التجمهر ووقفنا على جانب. لم أستطع بالكاد أن أتعرف على خشبة المسرح لأنني كنت كما تراءى لي الطفل الوحيد، وهارتموت لم يخطر بباله أن يرفعني فوق كتفه كما كان أبي ليفعل. سمعت كيف تحدث رجل ما عن المستقبل التكنولوجي وعن قصة النجاح وأماكن العمل فهتف له كل الأربعين ألف، في حين وقف هارتموت صامتًا. وقف طويلًا ووقفنا بجانبه ثم دس رجل ما في أيدينا ملصقًا بالألوان الأسود والذهبي والأحمر مكتوبًا عليه *إمدادات الطاقة الآمنة/ الفحم والذَرّة*، وبدا هارتموت كما لو أن الرجل قد قال له خبرًا سيئًا. ولكن هذا الملصق في حد ذاته كان خبًرا سيئًا. كان يستطيع ببساطة أن يسقطه أو يرده للرجل أو يرفضه ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا وهكذا ظل كل منا يحمل ملصق بيده حين تركنا القاعة.
في اليوم التالي قارنت أمي هذا الحدث بيوم الحزب في *نورنبرج*، والذي لم أتخيله ولا تخيلت أن يكون مثل ذلك الحدث في *دورتموند*. وبعد ذلك بفترة طويلة فكرت أنه ربما كانت هناك مظاهرة مؤيدة للطاقة النووية في *نورنبرج*. كانت أمي غاضبة بسبب ما حدث في *دورتموند*. وقالت لي بعدها بعدة سنوات إن *دورتموند* لها ذنب في موت هارتموت، *دورتموند* وهيلموت شميدت. لم تكن إقامة ذلك الرالي في ذلك التوقيت مصادفة لأنه كان يجب أن يؤثر على الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني.
كان يُفهم من المقالات التي جمعتها أمي أن مجالس إدارات شركات الطاقة كانت مسؤولة عن تغيير توجهات النقابات. فقد قرروا الاتحاد معًا من أجل

خلق مناخ مؤيد للطاقة النووية؛ فقاموا بعمل إعلانات وقدموا محاضرات عن الطاقة، وعندما التقى الآلاف من مجالس الإدارات في *دورتموند* في أكتوبر١٩٧٧ حتى يخططوا لحدث كبير، خشيَ اتحاد النقابات أن يكون هذا الحدث موجه ضد أعضائه وسياستهم النووية الحذرة. مما أدى إلى أن النقابات قامت بإخراج المناسبة، بينما تكفل أصحاب شركات الطاقة بنقل المشاركين ذهابًا وإيابًا. وفي نهاية المطاف كان الموضوع يدور حول العمل وليس من الخطأ قول إن مؤيدي الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني هم من نظموا المظاهرة لصالح الطاقة النووية، كما قدم هيلموت شميدت عرضًا جيدًا.

احتاجت أمي وقتًا طويلًا كي تستريح من تلك التجربة، وربما كان موت هارتموت هو الذي جعلها تشعر بالالتزام وقوّى عنادها مُجددًا، إذ لم يعد كفاحها ضد الأربعين ألف مشارك وإنما أيضًا ضد الملايين المؤيدين للطاقة النووية في البلد.

***

لو كنتُ مكانها لأصبت بالإحباط، ولكن أمي لم تكن كذلك. جلسنا ساعة ونصف الساعة في المسرح الذي لم يكن ممتلئًا، ساعة ونصف الساعة كانت تدور حول الخُضر وصعودهم إلى حزب حاكم. قاموا بتجسيد عمدة *فرايبورج* على أنه إله الشمس. بينما هتف المشاهدون وغنوا لريو رايزرس *لا سلطة لأحد* و*ما الذي دمرك هكذا؟* لفريق *دي شتيرنه*. كانوا يحملون كرة منفوخة على شكل الكرة الأرضية على أكتافهم وكانت أقنعة أكسجين تتساقط من السقف بشكل فوضوي. ما يخص هارتموت جاء فقط في المقدمة حيث حمل أحد الممثلين عبوات بنزين فوق رأسه وأخذ يستشهد بمقولات من بعض خطابات هارتموت الموجهة لرئيس وزراء الحكومة الألمانية قبل أن يختفي من فوق خشبة المسرح ويظهر بعد ذلك في دور جديد.

كما قلت من قبل لو كنت في مكانها لخاب أملي بسبب قلة أهمية دور هارتموت في المسرحية، مكثنا ثماني ساعات في السيارة حتى نشاهد الدور الهامشي لهارتموت. على النقيض تركت أمي المسرح وهي متحمسة، بالقدر الذي يناسب ضعف حركتها وذلك لأننا تركنا المشاية في *برلين*، لأنها أرادت التحرك دون مساعدة، إلا أنها وافقت أن تتخذ من ذراعي مسندًا. مجرد ذكر هارتموت كان دليلًا من وجهة نظرها على أهمية هارتموت بالنسبة للخضر، حتى إنها أطلقت عليه لقب أحد الآباء المؤسسين، حتى وإن كان هارتموت لم ينضم أبدًا للخضر.

***

كنتُ مستلقيًا على الفراش، بينما كانت أمي في الحمام تتجهّز للنوم. عندما رأيتها في قميص النوم تغيرت نظرتي لها، مما يبدو غريبًا بعض الشيء، ولكنني كنت أراها للمرة الأولى في لباس خفيف نادرًا ما كانت ترتديه في ضوء أو بالأحرى في ظل عمرها. سيقان رِفيعة، جلد أبيض، ودوائر من

العروق البنفسجية فوق قصبة الساق تتلألأ عبر الجلد. ما أفزعني في الحقيقة كان ذلك الجزء الناقص من الفم فقد تركت ثلاثة أسنان في الحمام. شاهدتها وهي تعبر الغرفة *والتي لم تكن كبيرة بشكل ملحوظ* بخطوات قصيرة وتبذل جهدًا حتى تزيح غطاء الفراش الذي كان مثبتًا تحت المرتبة. كنت أشاهدها وأرى كم بذلت من جهد حتى استلقت على الفراش وسحبت الغطاء إلى ما بعد كتفيها وأغمضت عينيها. شعرت بالسعادة لأنها كانت صامتة فلم أكن مستعدًّا لسماعها تنطق بأي جُمل وهي دون أسنان.
لا بد أنها استسلمت للنوم في وقت ما، حيث كنت أسمع صوت شخيرها المنخفض. مكثت مستيقظًا لفترة طويلة أتخيل كيف لو ساعدت أمي في خلع ملابسها وفي اغتسالها وفي إعداد الشاي وفرش السرير لها. كنت أعرف أن ذلك لن يكون بالشيء اليسير بالنسبة لي، وكنت سعيدًا لأن أمي كانت تجد صعوبة في تقبل المساعدة أو حتى في طلبها.
كنت أعي أن أمي لم تطلب مني أبدًا المساعدة، المساعدة لها شخصيًّا، ولكنها فعلت حينما كان الموضوع يتعلق بالقضية.
***
ضغطت على نفسي كثيرًا في السنوات الأخيرة كي لا أدخل حجرة مكتبها، تلك الحجرة التي أصبحت نصبًا تذكاريًّا لهارتموت. ولكن بعد موتها لم يكن هناك مفر من ذلك لأني كنت آخر من تبقى من ناحية أمي فلم يكن لديها أشقاء ووالدي كان قد مات قبل فترة طويلة.
كان عليَّ أن أفرغ محتويات الشقة، وبالطبع كنت أفكر في أن أحرر نفسي من كل ما يتعلق بهارتموت. كم تمنيت لو أني حملت الملفات والكمبيوتر والكتب وأوعية البنزين التي احتفظت بها إلى ساحة إعادة التدوير أو مباشرة إلى محطة توليد الحرارة والطاقة من المخلفات، ثم تخيلت كيف أني ألقي بها في المحرقة وأشاهد كيف تلتهمها النيران.
وهكذا كانت حياة هارتموت ستشتعل للمرة الثانية. وكانت ستكون نهاية منطقية في الواقع، ولكنني كنت أعي أني لن أتخلص منه بهذه الطريقة، كما لم ينجح ذلك في المرة الأولى. غير أن تخيل إلقاء كل ما عاشت عليه أمي في النيران لتلتهمه كان سيجعل حياتها تبدو أقل أهمية بصورة أكبر مما كانت تبدو عليه بالفعل من عدم الأهمية.
باستثناء ثلاثة مقالات صحفية لم يكن أي شيء سيبقى، ولم يكن ذلك عادلًا بالنسبة لأمي، فقد ماتت على افتراض أنه قد يوجد أحد الصحفيين الذين سيكتبون قصة حياة هارتموت التي كانت تتمنى تأليفها بنفسها ولكنها لم تستطع لأنها لم يكن لديها القدرة على تأليف كتاب أو حتى أي شيء قد يجد قراء، ولا يصبح مثل كتبها الأخرى المنشورة ذاتيًّا دون جمهور. كانت حريصة جدًّا على كتابة كل ما تعرفه عن هارتموت ودعمه بالمصادر حتى لا تدع للقارئ مجالًا للشك في الحقيقة، لدرجة أنه كان يمكن أن يصبح كتابًا مكونًا من عدة آلاف من الصفحات غير القابلة للقراءة. لكنها لم تصل حتى لهذه

المرحلة لأنها لم تصل لحد المعرفة المناسب لطموحاتها لتأليف كتاب عن هارتموت.
كان دائمًا ما يتبادر إلى ذهنها اسم أحد الأشخاص الذين قابلهم هارتموت أو رآهم مرة في أحد المظاهرات العامة؛ وكانت تحاول دائمًا أن تتصل بذلك الشخص وتكتب له بريدًا إلكترونيًّا وخطابات على أمل أن تساهم في رسم صورة دقيقة عن هارتموت. أما نتيجة كل ذلك فكانت أنها لم تكتب أكثر من مقدمة على الورق قرأتها لي في إحدى زياراتها.
على الأقل كانت ثاقبة النظر بما يكفي لتقبل فكرة أن كل هذا كان جهدًا ضائعًا وذلك بالرغم من أني كنت حذرًا جدًّا في نقدي. أمي كان عندها أمل كبير جدًّا في هذا الصحفي وكانت متوترة جدًّا عندما حكت لي عنه في المرة الأولى. ولأنه كان صحفيًّا في مجلة *دير شبيجل* فذلك جعلها غاية في السعادة، لأن هذه كانت مجلة *دير شبيجل* التي لم تهدِ هارتموت سطرًا واحدًا بالرغم من أن دار النشر كانت على بعد خطوات على الأقدام من موقع الحدث، حتى إن المرء -تبعًا لحسابات أمي- كان يمكن أن يرى النار من إحدى النوافذ في الدور العلوي.
أرادت أمي أن توجه الصحفي في أرشيفها الإلكتروني حتى يعرف كيف يجد معلومات معينة، لكن لأنه كان لديه الكثير ليفعله -أو على الأقل كما ادعى هو ذلك- علمتني كيف أريه ذلك بنفسي لاحقًا. وبالرغم من كبر سنها إلا أنها كانت على دراية مذهلة بالكمبيوتر وربما أكثر مني في بعض النواحي.
طلبت مني أن أساعدها في إنشاء الأرشيف فقد كانت تريد أن تحفظ وترتب كل شيء جمعته من هارتموت وعنه. سألتني كيف يمكن للمرء إنشاؤه وكيف يبحث عن المادة والمعلومات عن طريق الكلمات الرئيسة. فشلت في هذا التكليف لأني لا أستخدم في الكمبيوتر الشخصي أكثر من برنامج الكتابة وباحث الإنترنت. لذلك أعطيتها رقم تليفون صديق لي على دراية كبيرة بالكمبيوتر والذي تواصلت معه كما أخبرني بذلك لاحقًا بالمصادفة ولكن بحماس كبير. *لديك أم مُنفتحة*. قالها في وسط اندهاشي. *يجب أن أقول إن عقلها راجح* ثم أضاف: *كم تمنيت لو كانت أمي منفتحة هكذا*.
كان عليها أن تجلس أسابيع وإن لم يكن شهورًا طويلة أمام شاشة الكمبيوتر تنشئ ذلك الأرشيف الذي كانت فخورة به جدًّا وعرضته عليَّ بعد انتهائها منه.
سألتني: *ماذا تريد أن تعرف؟ أي شيء عن هارتموت. متى كانت أول زيارة له في *ويهل*؟ تستطيع أن تسألني أيضًا: متى ذهب هارتموت إلى *جبال الألب* في *شفيبين* للتسلق. هل كنت تعلم أنه كان متسلق جبال؟* .
ـ *نعم كنت أعرف ذلك لأنه خرج من المنزل في صباح أحد الأيام حاملًا حقيبة على ظهره وعندما لاحظ وجودي قال لي إنه سيذهب لعدة أيام إلى الجبال*.
قالت لي أمي: *ماذا تريد أن تعرف؟ اسأل، ما تريد أن تعرفه؟*. ففعلت فيها معروفًا وسألتها في أي يوم انتقل هارتموت إلى عندنا. نظرت إليّ أمي وكنت أعتقد أنها سوف تبدأ في نقاش حول لماذا طرحت هذا السؤال بالتحديد بينما

هناك الآلاف من الأسئلة الأهم، ولكن فخرها بما قامت به غطى على تلك النقطة وقامت بعرض مهارتها البرمجية عليَّ فكتبت كلمتي البحث *انتقال* و *شارع أوستربرج*.
عند ذلك فُتح شباك به رابط يقود لمخطط زمني أظهر أن هارتموت انتقل إلى شارع *أوستربرج* في ٢٤ من مايو عام ١٩٧٧، وكُتب تحتها: *العثور على السكن عن طريق كيلرمان. التعرف على كيلرمان قبلها بشهرين في محاضرة بجامعة *توبينجن* عن *الجدلية في النقاش السياسي حول السياسة النووية**.
لم تكتف أمي بذلك وأصرت أن أطرح سؤالًا آخر، فقمت بعمل معروف آخر من أجلها وسألت شيئًا آخر ولكن ليس عن طريق كلمة بحث وإنما عن طريق تاريخ، ١٦.١١.١٩٧٧. وفورًا كتبت التاريخ عند موضع البحث فظهرت عدة نتائج.
*ظهرًا في كنيسة بيتريك: خطبة *مدينة دون خوف* – *إحراق هارتموت جروندلر لنفسه وفقًا لتقاليد الكهنة الفيتناميين *إحياء المقاومة** – 14.30* اتصال من مستشفى سان جورج إذا كنت أعرف هارتموت جروندلر* – *كان من بين الأحراز: حقيبة ملفات محترقة + منشورات، عبوة ٥ لتر سوداء* – *توزيع المنشورات مع هانو*.
***
أعتقد أنه لا يوجد يوم في حياتي، أستطيع تذكره بهذا الوضوح أكثر من ذلك اليوم: السادس عشر من نوفمبر. وإذا ما عدت بالذاكرة، فإن هذا اليوم يعد هو نقطة الانطلاق للتحول الحقيقي في حياتي. فكل خيوط رحلة حياتي تمتد إلى هناك، حتى وإن لم يكن هذا واضحًا بالنسبة لي في هذا الوقت. كيف هذا؟ بالنسبة لي كان *هارتموت* هو الأول.
لم أكن أعلم أن هناك آخرين قد سبقوه: فأمي لم تذكر لي يان بالاخ من براغ، ولا أوسكار بروزوفيتس سوى لاحقًا. لو أنني كنت قد سمعت بهما من قبل، كان من الممكن أن أفهم على الفور، حينما دخلت عليَّ أمي الغرفة لتخبرني بأن هارتموت قد احترق، كنت سأعي أي الأفعال البطولية أتى بها. ولكن هكذا بدأ كل شيء بسوء تفاهم.
في الوقت الذي أصبح فيه هارتموت بطلًا في *هامبورج*، كنت أجلس أمام مكتبي غاضبًا بسبب الكروت التي تكررت ثلاثًا. لم أنتبه مرة أخرى وأنا أستبدل الكروت، فحصلت على ثلاثة كروت لكل من Hölzenbein و Höttges في حين أنني كنت أحتاج لـ Hattenberger. رقم 80 في الألبوم. كان موسم 1977/ 1978 قد انطلق، وانهزم فريق *فاو إف بيشتوتجارت* في *دوسلدورف* في عطلة نهاية الأسبوع واحتل المركز السابع في جدول الدوري في اليوم الخامس عشر من انطلاقه. ويوم السبت المقبل سيلعب فريق *كولونيا* الذي يحتل المركز الأول في *شتوتجارت*. كان أبي قد وعد باصطحابي إلى الاستاد لمشاهدة المباراة. لم أكن أدرك بالطبع في هذا المساء، أننا لن نستطيع القيام بذلك بسبب ما وقع لـ هارتموت.

كان *ألبوم بيرجمان* مفتوحًا أمامي، وإلى جواره كومتان من الكروت المكررة مرتين أو ثلاث مرات. كنت أفكر فيمن يمكنني أن أستبدل معه الكروت المكررة ثلاثًا، حين باغتتني أمي، ودلفت إلى الغرفة. ووقفت إلى جواري. أعتقد أنه كان ينبغي أن أدرك من نبرة صوتها، مدى جدية الأمر الذي كانت تتحدث إليَّ فيه، ولكنني، حتى أكون صريحًا، لم أنصت لما تقوله، ولم آخذ نبرة صوتها مأخذ الجد.
ففي ذاكرتي، أسمع صوتها مكتومًا، مثلما كانت الحال في طفولتي، حينما كانت تجلس على سريري، بينما كنت أرقد تحت الغطاء الدافئ الثقيل. مدت يدها إلى مسند ظهر كرسي المكتب الأصفر الليموني، ولفتني ليصبح وجهي في مقابلتها، ثم انحنت تجاهي. وباليد الأخرى كانت تثبت ذقني، لتتأكد، من أنه لن يفوتني شيء مما تقوله. لم يتبق أمامي أي خيار آخر، سوى أن أنظر إليها، عينيها الواسعتين اللتين تحملان أحد ألوان المياه.
سرحت في صندوق الألوان الخاص بي، عندما كنت أمزج اللون الأزرق الغامق بمياه أزيد عن اللازم، ثم أقوم بعد ذلك بجره بالريشة على شكل خط فوق الورقة، حتى يختفي اللون تمامًا، في البداية يكون قويًّا وفي النهاية لا يكاد يُرى. إذا كان عليّ أن أصف لون عيني والدتي، فكنت سأقول، إنه يقع في الثلث الأخير من هذا الخط.
سألتني أمي قائلة: *هل سمعت ما قلته؟* هززت رأسي موافقة، وكان عليَّ أن أعرف أنني لن أستطيع خداع أمي بمجرد إيماءة من رأسي. وهنا سألت مستطردة: *ماذا سمعت إذًا؟*.
قلت: *لقد قام أحدهم بحرق نفسه*. ردت قائلة: *ليس أحدهم بل هارتموت*. كان كل فريق كرة يملك أكثر من هلموت، ولكن كان هناكهارتموت واحد فقط، كان يلعب لفريق *فاو إف إل بوخوم*، هارتموت فروم، رقم ٣١٠ في الألبوم. لم أذكر لأمي قط أنني فكرت في البداية في *هارتموت فروم*، الذي لم يلفت نظري قط كلاعب مميز، والذي عرفت اسمه فقط بفضل الألبوم. لم تكن أمي لتغفر لي هذا أبدًا.
عندما ترقرقت الدموع في عينيها، اتضح لي، أن هارتموت فروم لم يكن هو من حرق نفسه، وإنما هارتموت الذي نعرفه، والذي كان يطلق عليه أبي في البداية لقب جروندلر ثم لاحقًا جروندلر المجنون.
رددت على أمي قائلًا: *لا بأس، الوضع ليس بهذا السوء*، لأنني كنت أريد أن أواسي أمي، وتخيلت أن هارتموت قد استند بيده إلى سطح الموقد الساخن. فقد كانت الغرفة التي يسكنها آنذاك تعج بالكتب. على الأرض، على الحوائط، في كل مكان، كانت تصطف الكتب، حتى إنه كانت لديه أرفف للمكتبة فوق الموقد. لهذا تصورت، كيف أنه أراد تناول كتاب معين، وكيف استند في أثناء ذلك إلى سطح الموقد، دون أن يفكر، أن هذا السطح كان ساخنًا، وكنت أعرف أن أمي تحتفظ من أجل تلك الحالات بمرهم خاص بالحروق، في الخزانة الصغيرة الموجودة بالحمام.

لم تكن أمي سعيدة على أي حال بألبوم التجميع الخاص بي. وكانت لا تحب كرة القدم على الإطلاق، لهذا لم تكن تلك هي المرة الأولى، التي تسحب فيها الألبوم مني، ثم قامت وانصرفت من الغرفة. ظللت جالسًا فوق كرسي المكتب الخاص بي، وسرحت في كومة الكروت المكررة، ولم أكن أعرف فيم أخطأت؟ لم أعرف سوى بعد الظهيرة، أن أنبوبة مرهم الحروق تلك، لم تكن لتسعف الوضع في حالة هارتموت، لا هي ولا حتى برميل منها.
فقد قام هارتموت بسكب البنزين على جسده، وأضرم فيه النار. ليصبح ذكرى من نار. احتجاجًا، كما قالت أمي، احتجاجًا على السياسة النووية. ما فعله هارتموت كان غير مسبوق، من حيث الحجم والبطولة. لأنه فعل ذلك من أجلنا، من أجلنا جميعًا. لنتمكن من العيش في عالم أفضل، لا نخشى فيه الوفاة بسبب المفاعلات النووية. جاءت أمي إلى حجرتي في المساء، وقالت إنها تحتاج إلى مساعدتي، حيث إننا يجب أن ننجز شيئًا. كنت سعيدًا، لأنها لم تعد غاضبة مني، ولم أكن أريد بالطبع أن يتغير ذلك مرة أخرى. ولم تكن هي المرة الأولى، التي احتاجت فيها إلى مساعدتي.
وفي السيارة، قامت أمي بوضع صندوق مليئ بالمنشورات الصغيرة إلى جواري في المقعد الخلفي. يبدو أنها قد صاغت نصها، بعد أن تركت غرفتي على عجل. فقد كانت تملك آلة كاتبة في غرفتها، وكانت كثيرًا ما تجلس إليها، كما كانت توجد ماكينة تصوير مستندات في غرفة أبي، كثيرًا ما كانت تستخدمها، في أثناء غيابه. كنت أعرف جيدًا ما كتب في تلك المنشورات، لأنني وجدت نسخة، من بين كل النسخ التي جمعتها والدتي: *حول انتحار أحد حماة الحياة حرقًا. الطاقة النووية تطلب قرابينها*.
كان هناك خط موضوع تحت ذلك العنوان. أما باقي المنشور فقد كتب فيه الآتي:
*قام هارتموت جروندلر بإحراق نفسه في هامبورج، بمناسبة انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي في يوم التوبة والفراش من أجل الحقيقة، من أجل الحقيقة في السياسة الذرية للحكومة الفيدرالية، والصدق الذي يجب أن يكون متوافرًا بين الحكام والمواطنين. لقد ضحى بنفسه، لكيلا نصبح ضحايا. تقدر رابطة *حماية الحياة*، وتحترم عملية الشاهد ضد المخاطر التي تتعرض لها الحياة من جراء التكنولوجيا الخارجة عن سيطرتنا*.
وكان مكتوبًا بالأسفل: رابطة *حماة الحياة*. وعنواننا السابق في شارع *كيبلر*. وتحتها كُتب:
باسم هارتموت جروندلر نطلب منكم دعمنا بالتبرع لصالح الكفاح ضد الأسلحة النووية. الكلمة التعريفية: هارتموت جروندلر.
تبع هذا ذكر رقم حساب لدى بنك الادخار الخاص بالمدينة.
كنت أحصل في هذا الوقت على خمس ماركات كمصروف، ليس مصروفًا شهريًّا، وإنما كنت أحصل عليها يوم الإثنين من كل أسبوع. عندما كنت أحضر لتناول طعام الإفطار في المطبخ، كنت أجد قطعة نقود معدنية لامعة من فئة

الخمس ماركات إلى جوار صحني. كان هذا أكثر بكثير مما يحصل عليه أصدقائي، وكان هذا سببًا كافيًا بالنسبة لأمي لتغضب من أبي. لأنه من وجهة نظرها، سيعطيني المال وجهة نظر خاطئة حول قيمة الحياة. شرحت لي ذات مرة قائلة: *الأمر لا يتعلق بالحصول على أكبر قدر ممكن من المال. الفضائل الحقيقية تكمن في التواضع والزهد. يمكنك أن تأخذ هارتموت مثالًا يحتذى به*.
وفي كل مرة، أحصل فيها على تلك العملة المعدنية، كنت أعاني من معركة داخلية. كنت أحسب عدد مظروفات الكروت اللاصقة التي يمكنني شراؤها بتلك الماركات الخمس. ومن ناحية أخرى، كنت أعرف جيدًا مدى السعادة التي ستصبح عليها أمي، إذا ما رفعت العملة النقدية عاليًا وقلت: *هناك ما هو أهم من المال*. هنا تقوم بالتمليس على شعري بيدها وتقول: *أنا فخورة بك. وتذكر جيدًا: ستصبح غنيًّا فقط، بالأشياء التي لا تريدها، وتسعى إليها*.
لم يكن الأمر سهلًا بالنسبة لي، أن أفترق عن ماركاتي الخمس، وكنت أفعل هذا فقط، حينما لم يكن والدي جالسًا معنا إلى طاولة طعام الإفطار. ففي هذه الحالة أستطيع أن أذهب إليه مساءً، وهو جالس في غرفة مكتبه، فأقف إلى جواره، حتى يرفع رأسه من فوق أوراق الحسابات -التي كان عادة ما يغرق فيها- وينظر إلى وجهي الحزين، ثم يسألني عما حدث، فأحكي له، كيف أن أمي قد استولت على مصروفي، وأنها في الأغلب تخوض به الآن إحدى حروبها النووية. كان أبي يطلب مني حينها أن أذهب لأحضر له حافظة نقوده، التي كانت توجد عادة في الجيب الداخلي لسترته، التي كانت معلقة في الخزانة في الردهة. فيقوم بوضع قطعة أخرى من فئة الماركات الخمس في يدي، وينصحني بأن أحتفظ بها لنفسي. وبهذا تعلمت منذ طفولتي، كيف أن يكون لي صندوق *أسود* للنقود، لم تعرف أمي شيئًا عنه. قلت لها، بعد أن رجعنا بالسيارة إلى الخلف خارجين من المرأب: *يمكنك أن تحصلي على مصروفي* توقف المحرك من أمي، وأدارته مرة أخرى، وتركته يصرخ بصوت عالٍ، في الوقت الذي كنا نتحرك في الشارع، وعندما وجدت أخيرًا المسار الصحيح للسيارة، سألتني: *ماذا قلت؟ يمكنك أن تحصلي على مصروفي*. إما أنها لم تفهم كلامي في المرة الأولى، أو أنها كانت منشغلة بالانعطاف، لأننا كنا قد اقتربنا من شارع *هولدرلين*.
قلت لها: *أقصد أنه يمكنك أن تحصلي عليه كتبرع من أجل هارتموت، مكتوب في الأوراق أنه يجب أن نتبرع*.
لم يكن على أمي أن تفكر في العرض. فلم يبد بالنسبة لها من غير اللائق أو غير المريح أن تقبل تبرعي بمصروفي. بل قالت: *أنا سعيدة، بدعمك لنا، وكان هذا سيسعد هارتموت أيضًا. يمكننا أن نستغل كل مارك*. أطلقت إشارة الانحناء. وبعد أن انحنينا داخلين في شارع *هولدرلين*، قالت: *إنه لمن واجبنا، أن نستكمل الكفاح، على الأخص الآن، بعد كل ما قام به هارتموت من أجلنا. علينا أن نسدد هذا الدين له*. بالطبع ندمت على الفور على كرمي هذا. فأنا

أحتاج لمئة وعشر صور أخرى لاستكمال الألبوم، وكان بكل مظروف أشتريه أربع فقط. قال أبي، الذي كان يجيد الحساب، إنه بحسب نظرية الاحتمالات، كان عليَّ أن أشتري خمسة أضعاف تلك الكمية. إلا إذا، قمت باستبدال الكروت المكررة.
إلا أنني لم أتصرف في هذا الموضوع بذكاء. قلت: *يمكنك أن تحصلي على مصروفي*. إلا أنني لم أقل: *يمكنك أن تحصلي على مصروفي للأبد*.
وفكرت إن لم يكن من الذكاء أن أتحدث عن عرضي مرة أخرى. وقررت بسرعة أنه ليس من الحكمة أن أتحدث الآن، على الأقل هنا في السيارة.
وأخيرًا، كنت سعيدًا لأن والدتي لم تكن تحمل لي أي ضغينة، كما أنها لم تشعرني بأنها لا تزال غاضبة مني في شيء، على الرغم من أن والدتي نادرًا ما تكون غاضبة، يمكن أن نصف شعورها بأنها كانت تشعر بالأذى، وكانت تفضل أن تعطيني شعورًا بأنني خذلتها، ويبقى هذا الشعور في العادة، حتى أعي خطئي جيدًا وأعتذر لها عنه.
قلت: *خمسة ماركات ليست مبلغًا كبيرًا على أي حال* واستطردت قائلًا: *أعني أنها مبلغ كبير بالنسبة لطفل مثلي، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأشخاص البالغين. لماذا لا يستطيع كل فرد أن يتبرع بخمسة ماركات من أجل هارتموت؟ كنا سنحصل عندئذ على مبلغ..*. كنت أعرف، أن عدد سكان ألمانيا الغربية يبلغ ستين مليونًا، إذا ما ضربنا هذا العدد في خمسة، تكون النتيجة. للأسف لم أكن أجيد الحساب، وكان والدي يقول في كل مرة أفشل فيها في إجراء عملية حسابية، إنني يجب وأن أكون قد ورثت شيئًا من أمي.*... في كل الأحوال أكثر من ثلاثة ملايين مارك، في هذه الحالة ستصبحون أغنياء، ويمكنكم الانتصار في تلك الحرب النووية. لم أدرك سوى بعد فترة طويلة، أنني بهذا قد أعطيتها كلمة محورية، وأنها لن تضيع تلك الفرصة، دون أن تفصح لي عن وجهة نظرها في الأمور، وكانت وجهة نظرها تتطابق عادة مع وجهة نظر هارتموت.
كان شارع *هولدرلين* يقود إلى وسط المدينة، ولم تكن به أي منحنيات خطرة أو تقاطعات تستدعي أن ترفع أمي من درجة انتباهها. ففي الوقت الذي كنا نزحف فيه بنفس سرعة الماشي على قدميه، أمام حديقة النباتات، قالت: *للأسف، لا يفكر كل الناس نفس تفكيرك، إلا أن هذا يرجع أيضًا إلى أن درجة وعيهم لم تصل إلى درجة وعيك*.
كانت في تلك اللحظة تنظر في المرآة الخلفية، لترى وقع كلماتها على وجهي. *معظم الناس، تصدق القصص الخرافية، التي يحكيها لهم الساسة. تلك القصص الخرافية تدور حول أن الطاقة النووية، لا يوجد بها أي أخطار. في قصة *سنووايت* يعرف الجميع، أن الأمر يدور حول قصة خرافية، أما القصص الخرافية التي يحكيها الساسة، فلا يعي الجميع تلك الحقيقة.
كل سارد قصة يحتاج إلى مستمعين. ومع الوقت فإن كل شعب يحصل على نوعية الساسة، التي يستحقها. إذا لم يلزم الشعب ساسته، بقول الحقيقة،

فإنه يستحق إذًا العقاب الذي سيقع عليه لاحقًا. لقد حاول هارتموت حتى النهاية، لهذا قام بحرق نفسه، حتى يعي الناس في النهاية، ماهية الأمر*.
سألتها قائلًا: *وإن لم يعوها على الرغم من ذلك؟* كنا قد وصلنا إلى إشارة مرور، واستغلت أمي تلك الفرصة لتلتفت لي، في أثناء حديثها. وقالت: *مسؤوليتنا، أن نوعيهم ونوضح الأمور لهم. يجب أن نشرح لهم، لماذا أضرم هارتموت النيران في نفسه. سترى، الناس ستعرف في النهاية، ستكون هناك وقفات احتجاجية، وفي النهاية، إن لم يتغير شيء، سوف ينزل كل الناس إلى الشوارع، ستكون انتفاضة شعبية*.
وحتى في ذلك الوقت كانت لدي شكوك، لأنني علمت من خلال تجربتي الخاصة أنه في بعض الأحيان لم يكن الاستيعاب سهلًا.
أسوق هنا على سبيل المثال: الرياضيات. كم مرة حاولت أن أستوعب، عندما أجمع رقمين مكونين من أكثر من خانة، أنه عليَّ أن أحتفظ برقم في ذهني، ولكنني في كل مرة كنت أكتب رقمًا تحت الخط، غير الذي يجب أن يكون موجودًا. لم أستوعبه حقًّا إلا مع مرور السنوات. لم يكن إذًا من المستبعد، أن تكون هذه هي الحال بالنسبة لمعظم الناس، وهنا يكون هارتموت قد ضحى بحياته سدى.
تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، إلا أن أمي لم تستوعب الأمر على الفور. توقفنا هناك لمدة أطول من اللازم بكثير، وإن لم نكن نحن السيارة الوحيدة هناك، كان السائق في السيارة التي تقف خلفنا سيقوم بإطلاق آلة تنبيهه منذ فترة طويلة، ثم يقوم بتجاوزنا وربما كان قد نعت أمي بالجنون، كما حدث من قبل.
كانت أمي قد تحدثت ووضحت كيف ضحى هارتموت بنفسه. لا أعرف لماذا، لم أفكر كثيرًا في معنى فكرة، أن يضحي الإنسان بنفسه. وما مدى آلام التضحية بالنفس، التي ارتبطت بها حادثة هارتموت. ربما يعود ذلك، لأن أمي لم تلمح إلى فكرة الألم من قريب أو بعيد. كذلك أعتقد أنها حاولت السيطرة على نفسها إلى أقصى درجة، أو أنها لم تكن تشعر برغبة في البكاء.
شعرت، بأن شيئًا ما قد حدث في حياة عائلتي، شيئًا خارجًا عن المألوف، ولكنني لم أكن أعرف آنذاك، تبعات هذا الموضوع، وبأي آلام ارتبط هذا الموضوع بكل فرد منا، آلام نفسية، مقارنة بالآلام الجسدية التي كان على هارتموت أن يتحملها. بدأت أعي تلك الآلام بعد عدة أسابيع، عندما قام صديقي باول بإطفاء شمعة باستخدام سبابته وإبهامه. قام بترطيب أطراف أصابعه باستخدام لعابه، ثم وضعها حول الفتيل، أصدر هذا صوتًا قصيرًا للاحتراق، ثم انطفأت الشعلة. جاء عليَّ الدور لأقلده، ترددت، فقال إنني إن لم أفعل سأكون جبانًا. وفي أثناء حماستي، نسيت أن أبلل أطراف أصابعي، فاحترقت. وكان عليَّ أن أحكم إغلاق أسناني جيدًا، حتى لا تصدر عني صرخة. إلا أنني لم أستطع أن أتحكم في تصاعد الدموع في عينيّ. للمرة الأولى سألت نفسي، عما إذا كان هارتموت قد بكى، بكى من الألم. فالطريقة التي

حرق بها، ليس فقط أطراف أصابعه، وإنما جسده بالكامل، يجب أن يكون شعور الألم فيها يعادل ألم مئة شعلة شمعة، إن لم يكن مئتين مرة واحدة على جلده.
هنا سألت نفسي، وما زلت أسأل نفسي هذا السؤال، لماذا يختار الإنسان تلك الطريقة الأكثر إيلامًا في الانتحار؟ كان أسوأ ألم تصورته وأنا طفل، هو الألم الذي كان على يسوع أن يعانيه. عندما تخيلت أن يقوم أحدهم بدق مسامير في جسدك، شعرت بالغثيان الشديد، ولكن على الأقل لم يقم يسوع بدق تلك المسامير لنفسه. إلا أن هارتموت قد قام بسكب البنزين على نفسه، وأضرم النار. وكان قد قام قبل ذلك بملء أكمام معطفه الشتوي بأوراق الصحف، حتى يساعد هذا في اشتعاله.
توجد دراسة حول الانتحار حرقًا، تظهر تلك الدراسة، أن كل عام يوجد نحو مئة شخص يشعلون النيران في أنفسهم، يتوفى منهم الثلث جراء الحروق التي تلحق بهم. عندما يقوم الشخص بإشعال النار في نفسه، فإن الأمر يتعلق بالإهانة، والتي يتفاعل معها الشخص عن طريق شعوره بالخزي الذي يجب أن يثأر له، ليلحق ما تبقى له من حقه في تقرير مصيره، وكرامته، ونزاهته. هذا الخزي يجب أن يتم تجاوزه من خلال فعل شجاع أخير، فعل يدل على شجاعة لامتناهية. لأن الإنسان يتغلب على الخوف الموجود بداخله من خلال الشعور بالمعاناة والألم الفائق لقدراته، كما لو كان يتخلص منهم عن طريق العذاب. وقد ورد هناك، أن حرق الذات، هو عرض عام. فالشخص لا يقوم بحرق نفسه في الخفاء، فهو يبحث عن متفرجين ويحصل على أقصى درجات تركيزهم: فهو يضيء ويحترق في الوقت نفسه. مثل نجم الشهاب.
إلا أنه بالنسبة لأمي لم يكن هارتموت نجم الشهاب، وإنما كان بطلًا، يجب أن يعرف قصة موته البطولي الكثير من الناس. لهذا كنا نحمل الصندوق المليء بالمنشورات معنا في ذلك اليوم.
لم تكن الحركة في الشوارع كثيرة، ربما كان يرجع هذا ليوم الإجازة. كان يطلق على هذا اليوم يوم التوبة والراحة، كما قرأت في مقدمة الأوراق الموجودة أمامي. لم أهتم قبل هذا بمعنى أيام الإجازات، كان كل ما يهمني، هو أنني لا أذهب إلى المدرسة. كان أبي قد منع أمي من اصطحابي معها في سيارتها، لأنها -على حد قوله- كانت تعرضني لخطر لا داعي له. إلا أن أمي لم تستمع إلى تحذيره. وكان عليَّ فقط ألا أخبر أبي، لأن هذا سيضر بصحته، كما قالت أمي. كان عليَّ ألا أخبره في كل الأحوال، إذا ما قمنا بتوزيع المنشورات، أو كنا نرافق هارتموت في أي مشوار.
بفضل يوم الإجازة، كان الشارع هادئًا جدًّا، وكان هذا مفيدًا جدًّا بالنسبة لأمي. كنت عادة أقوم بمهمة توزيع المنشورات، في الوقت الذي كانت تنشغل هي فيه بقيادة السيارة، والتركيز في الطريق.
أما أنا فكان لدي حس جيد أحفظ عن طريقه الطرق بكل سهولة، وكان أبي يقول، إنني ورثت هذا منه. فعندما أذهب إلى مكان مرة واحدة، يكون من

السهل عليَّ الوصول إليه مرات أخرى. كنت أعرف الكثير من الطرق: الطريق إلى ملعب كرة القدم، الطريق إلى المدرسة، وإلى وسط المدينة، وللسينما، وللجامعة، لأننا نقوم بتوزيع المنشورات هناك بين الحين والآخر وكذلك نقابل بعض الطلاب، كما كنت أعرف الطريق إلى المستشفى، حيث زرنا والدي، حينما كان يعاني من حصوات في الكلى، وأعرف الطريق إلى باول، الذي كان يسكن للأسف في الطرف الآخر من مدينة *توبنجن*، وكذلك الطريق إلى شارع *أوستربرج* حيث كان هذا آخر مكان سكن فيه هارتموت. لو أخبرتني بوجهتنا، لكنت وفرت عليها الإثارة الزائدة، عند الحاجة إلى الاستدارة للاتجاه المعاكس على جسر *النيكار*.
انحرفنا إلى شارع *أوستربرج*. كان الطريق به مرتفع، قامت أمي بتغيير وضع ناقل الحركة، وزأر المحرك. كنت سعيدًا، لأنه في هذه المرة لم تقف سيارة أمامنا فجأة، مثلما حدث في المرة الماضية، عند زيارتنا لـ هارتموت. كان على أمي أن تتوقف هي أيضًا، وعندما أرادت التحرك مرة أخرى، انطفأ المحرك، وانحدرت السيارة إلى الخلف إلى أسفل الشارع، وكنا محظوظين، أنه لم يكن هناك أحد خلفنا.
ثم حاولت أمي إدارة المحرك أكثر من مرة بطريقة، جعلت المارة يتوقفون، واقترب رجل وطرق نافذة المقعد المجاور لأمي، ربما جاء ليعرض مساعدته. وفي تلك اللحظة تحركنا مرة أخرى، وصاح قائلًا شيئًا بعد أن تحركنا.
في تلك المرة، مر كل شيء بلا مشاكل، وكان هذا يرجع إلى أننا وجدنا مكانًا كبيرًا للانتظار أمام المنزل رقم ٧، بحيث إنه كان من السهل على والدتي أن تدخل فيه بمقدمة السيارة. هارتموت كان يقطن في غرفة في الطابق الثاني. حضرت إلى هنا مرة واحدة فقط، كان هذا بعد أن انتقل هو للعيش هنا وترك منزلنا.
أطفأت أمي المحرك. إلا أنها لم تنزل من السيارة، وظلت جالسة، وبعد لحظة أدارت محرك السيارة مرة أخرى وقالت: *يجب علينا أن ننجز أمرًا آخر أولًا. في هذه المرة مررنا فوق جسر *النيكار* وتوقفنا أمام محطة القطار.
سألت أمي: *ماذا سنفعل هنا؟*.
قالت: *سنحاول أن نجعل تضحيات هارتموت لا تذهب هباءً*.
ثم فتحت باب السيارة الخلفي، وتناولت الصندوق من فوق المقعد. لم يكن الجسر بعيدًا عن المكان الذي توقفنا فيه، هذا الجسر الذي طالما وقفنا عليه لنقوم بتوزيع منشوراتنا. لم يكن هناك مكان أفضل من هذا. فكل من يريد أن يعبر من إحدى ضفتي النهر إلى الجهة المقابلة، كان يتعين عليه أن يمر بنا. لا يوجد أي طريق بديل في الدائرة المحيطة، إلا إذا قام أحدهم بالقفز إلى الماء وسبح، إلا أن هذا لم يحدث حتى الآن، على حد علمي.

***

ومع الوقت تكون لدي شعور داخلي تجاه الناس، الذين نقوم بالتحدث إليهم. كنت أعرف عادة مسبقًا، ردة فعل كل منهم. كان بعض الناس يسهلون علينا

مهمتنا، لأنهم كانوا يعلقون شعارات مناهضة للطاقة النووية، مكتوبًا عليها: *الطاقة النووية؟ كلا، شكرًا*، وكان لبعضهم شعر طويل. كان أغلبهم من الشباب، وكنت أعرف بعضهم شكلًا. كانوا يرون في مشاركتي أمرًا جيدًا، على الرغم من صغر سني.
كانوا يومئون، أو يضعون أيديهم فوق كتفي، عندما كنت أردد تلك الجمل، التي لقنتني أمي إياها: *هيلموت شميدت كاذب!*، *نحن نطالب بالحقيقة في ما يخص سياسة الطاقة!*، *نحن نحتج على الكذبة النووية!* وكان هناك أيضًا أناس مختلفون، في الأغلب سنهم أكبر، رجال يرتدون الصديري، كما كان والدي يحب ارتداؤه. كانت أمي تلقبهم بالمواطنين غير المثقفين، وكانت تنزعج للغاية عندما تراهم، لأنهم كانوا يلقبون الناس ذوي الشعر الطويل بـ*اليساريين*، ولم يريدوا أن يفهموا، أنهم كلهم تم خداعهم من قبل هيلموت شميدت، ولم يستوعبوا كذلك خطورة المفاعلات النووية. كان هؤلاء الناس لا يرغبون في تناول ورقة من منشوراتنا، أو كانوا يأخذونها فقط من أجل تمزيقها أمام أعيننا. وفي بعض الأحيان يسب أحدهم أمي ويعنفها، لأنها تستغل طفلًا بريئًا في إثارة الرأي العام، في الوقت الذي كان يجب أن تحافظ عليه في البيت وتتركه يمضي وقته في اللعب.
كنت آنذاك لا أعرف معنى هذا: *إثارة الرأي العام*. على أي حال، لم يكونوا مخطئين كلية، حيث إنني كنت أفضل البقاء في المنزل. إلا أنني لم أقل هذا لأمي ولو مرة واحدة.
عندما سألتها، لماذا يريدني هؤلاء الناس، أن أبقى في البيت، ردت قائلة: *هم يعتقدون، أنني أجبرك على الحضور إلى هنا، كما لو كنت لا تعي جيدًا، مدى سوء الطاقة النووية، فقط لكونك لا تزال طفلًا*. بالطبع كان هؤلاء الناس مخطئين: فقد كنت أعرف بالطبع مدى ضرر الطاقة النووية. وكنت أعرف كذلك أن هيلموت شميدت كاذب.
كانت أمي قد شرحت لي الأمر في إحدى المرات. حكت لي عن هذا الـ هيلموت وكيف سمح ببناء المفاعلات النووية، على الرغم من معرفته بمدى أخطارها. إلا أنه كان يكذب على الناس. كان هيلموت هذا مستشارًا لألمانيا، وبهذا فقد كان أكثر رجال الدولة نفوذًا. كتب له هارتموت الكثير من الخطابات. كان يريده فقط، أن يخبر الناس بالحقيقة. كنت قد علمت من هارتموت أن القضبان التي يتم إشعالها للحصول على الوقود النووي، لا يمكن إطفاؤها بسهولة، كما هي الحال في حالة استخدام الخشب أو الفحم، بل تظل مشتعلة، ولا يمكن لأحد أن يطفئها. لا يستمر هذا لعدة ساعات أو أيام، بل يستمر لقرون. ستستمر مشتعلة حتى يأتي أحفاد أحفادي إلى الدنيا.
إلا أن هذا الـ هيلموت يقول، إن الحكومة تعرف، أين وكيف تحتفظ بتلك القضبان لألف عام. إلا أن هذا كان غير صحيح. فقد اكتشف هارتموت تلك الحقيقة، وأراد تعريف الناس بكذب هيلموت. لهذا السبب كان كثيرًا ما يجلس إلى الآلة الكاتبة، ليكتب خطابات، ومنشورات، يوضح فيها حقيقة هذا

الـهيلموت وحقيقة الطاقة النووية كذلك. كان هيلموت يعتبر الناس التي على شاكلتنا مجانين بـ*الأخضر*. في حين يعتبر هارتموت هيلموت كاذبًا. ولأن كل ما كان يهم هارتموت هو الحقيقة، فلهذا صدقته.

***

كان ذلك اليوم شديد البرودة، حتى إننا أقفلنا ستراتنا حتى الذقون. وشعرت بالهواء الشديد، وأنا أقف على الجسر، وقد ساعد على تجمّد أصابعي بسرعة. حملت أمي الصندوق تحت ذراعها الأيسر، وناولتني كومة من المنشورات. ومن خلال الخبرة التي كنت قد اكتسبتها، عرفت أنه من الأفضل أن نقوم بتوزيع أنفسنا. عبرت أمي الطريق لتقف على الجهة المقابلة. إلا أننا سريعًا ما لاحظنا، أننا كنا نقف وحيدين على الجسر، وغالبًا ما كان يرجع السبب في هذا إلى يوم العطلة. كنت أتبادل حمل الأوراق في كل يد لوهلة، بينما أدس اليد الأخرى في جيب السترة. نظرت إلى أمي الواقفة على الجهة المقابلة. كيف تقف هناك، وحيدة، حاملة تلك المنشورات بين يديها، وشعرت بالأسف من أجلها.

كان ما يعنينا هنا في المقام الأول، ألا تذهب تضحية هارتموت أدراج الرياح. لقد أضرم النيران في نفسه، والآن لم يأتِ أحد. وشعرت بالأسف من أجل هارتموت أيضًا. لماذا اختار هذا اليوم بالذات: يوم التوبة والراحة؟

عندما لم أجد أحدًا على مرمى البصر، استدرت وارتكنت إلى سور الجسر. نظرت إلى نهر *النيكار*، الذي بدا مظلمًا وباردًا. وتصورت، كما أتصور دائمًا، وأنا أقف فوق أحد الجسور، التي يمر من تحتها نهر: كيف ستكون الحال، إذا ما قفزت في الماء. لم أكن أجرؤ على فعل هذا، لم أجرؤ حتى ولو لمرة واحدة، أن أقفز من منصة القفز المرتفعة لثلاثة أمتار إلى داخل المسبح، إلا أنني كنت أحب أن أتخيل، لأنه لم يكن في يدي شيء سوى التخيل. بدا الأمر، كما لو أن هناك في أعماق الماء مغناطيسًا عملاقًا، أشعر بقوة جاذبيته.

كل ما في الأمر، كان كيف أقاوم تلك القوة. كان الأمر كذلك في المسبح. إلا أن الآخرين لم يستوعبوا الأمر قط. *هل ستظل مكانك كالصخرة؟*، *هيا، أقدم*، *هل سيحدث شيء خلال هذا العام؟* كانت تلك هي كلمات من يقف خلفي في الصف وينتظرني أن أقفز إلى الماء. وعندما أستدير خلفي، كنت أرى، أن هذا الصف، أصبح مكونًا من نصف رواد المسبح. ثم أنسحب من جانب المنتظرين، وأهبط درجات السلم، وأكون في قمة فخري بنفسي، لأنني لم أدع تلك الفجوة العميقة تسحبني إلى داخلها.

عندما ارتكنت إلى سور الجسر وشعرت بقوة المغناطيس، تخيلت نفسي، وأنا أقوم بالقفز. كيف أترك نفسي تهوي من فوق السور. وكيف سيكون شعوري وأنا أسقط، لن أحاول الطيران في أثناء القفز مثل الطائر، بل سأحاول السقوط مثل الصخرة. ثم تلك اللحظة، حينما تلمس رجلي سطح الماء. ثم الغطس إلى الأسفل. ثم سحب التيار. لن تشعر أمي بسقوطي. سيكون عليَّ أن أصرخ. ستراني وأنا أنجرف بعيدًا. وستبكي. كان واضحًا

بالنسبة لي، أنني لن أتمكن من السباحة نحو الشاطئ والخروج من الماء بسهولة، لأن التيار شديد جدًّا، كما أن النهر شديد البرودة.
ولكنني كنت قد سمعت من قبل، أن الشخص يشعر بالسخونة، قبل التجمد بقليل. وأن الشخص عادة ما ينام. عندما تخيلت نفسي، وأنا أنحدر إلى أعماق نهر *النيكار* وأنا نائم، سمعت صوت أمي، وهي تصيح قائلة: *هانو! هناك!*.
استدرت للخلف. كانت هناك سيدة عجوز، تستند إلى مشاية لتساعدها على المشي، تقترب مني. أومأت لتحيتها. استغرق الأمر بعض الوقت، حتى وصلت إليّ، واستغرق وقتًا أطول، حتى لاحظتني. كانت تتحرك وهي منحنية إلى الأمام، وتوقفت فقط، عندما أوشكت أن تضع مشايتها فوق قدمي. رفعت رأسها وأومأت إليّ، كما لو كانت قد تعرفت عليَّ مرة أخرى، إلا أن هذا غير منطقي، لأنني لم أكن أعرفها. وعلى الرغم من هذا، فكرت للحظة، أنني ربما أكون قد رأيتها من قبل لدى جدتي. فقد كانت تحضر بعض السيدات من كبار السن، مرة أسبوعيًّا لجدتي، للعب الورق.
كثيرًا ما كنت أجلس إليهن على المائدة، وأتطلع للورق وأهز رأسي موافقًا أو محذرًا جدتي، إذا ما وجدتها سترمي أحد الكروت، الذي لا يجب أن تحصل عليه إحدى السيدات الأخريات، وكان يجب ألا يلاحظوا أنني أساعد جدتي. لم تكن أمي تحبني أن أجلس إليهم على المائدة في أثناء لعبهم الورق، لأنهم كانوا يحتسون الخمر ويدخنون. إلا أن والدي كان يستمتع بهذا، لأنه كان هو أيضًا يحتسي الخمر ويدخن. إلا أن تلك السيدة التي تستخدم المشاية لم تكن من ضمن مجموعة اللعب. قدمت لها منشورًا. انتصبت واقفة بعد عناء، واستندت بإحدى يديها إلى المشاية وأمسكت الورقة باليد الأخرى وقربتها من عينيها.
قالت: *آسفة يا ولدي، الخط صغير للغاية، لا أستطيع قراءته. هل يمكنك أن تقرأ عليَّ المكتوب؟*. بالطبع كنت أستطيع أن أقرأه عليها. فعلى عكس الرياضيات، كنت أحد أفضل طلاب صفي في القراءة. تناولت الورقة من يدها. ولأنني كنت أعرف أن كبار السن لا يسمعون جيدًا، بدأت في القراءة ببطء وبصوت عالٍ: *حول- انت- حار أ- حد- حم- اة- ال- حي- اة- ح- ر- قًا. ال- طا- قة- ال- نو- وية- تط- لب- قر- اب- ينها..*. هزت السيدة رأسها. ولم أعرف، إن كانت تهز رأسها، لأنني كنت أقرأ بصوت مرتفع بما فيه الكفاية، أم لأنها تدرك صحة ما تسمعه.
وأكملت القراءة: *قام- هارت- موت- جرو- ندلر- بإ- حر- اق- نف- سه- في- هام- بورج-، بم- نا- سبة- ان- عقاد- مؤ- تمر ال- حزب- الدي- مق- را- طي الا- جت- ماعي- في- ي- وم- ال- توبة- وال- فر- اش- من- أجل- ال- حقي- قة،- من- أجل- ال- حق- يقة- في- ال- سي- اسة- ال- ذ- رية- لل- حك- ومة- ال- في- در- الية..*. وعندما انتهيت، قالت لي: *لقد أجدت القراءة*. ثم أمسكت مشايتها بكلتا يديها وأرادت أن تكمل السير.
لم أكن أتوقع هذا. من الواضح أنها لم تفهم، أن الأمر يتعلق بـ هارتموت، أنه

أحرق نفسه من أجلنا كلنا. أي أنه أحرق نفسه من أجلها هي أيضًا. تلفت حولي. كانت أمي لا تزال واقفة على الجانب الآخر من الشارع، حاملة الصندوق تحت يدها، وحاملة ورقة في يدها، وكانت تنظر في اتجاهي. كان عليَّ أن أفعل شيئًا.
قلت: هيلموت شميدت كاذب. هزت السيدة العجوز رأسها اعتراضًا، وردت قائلة: *هيلموت شميدت رجل طيب*. فرددت قائلًا: *إنه كاذب*. قالت السيدة: *هو ليس فيلي براندت، فيلي براندت كان الأفضل*. كنت قد سمعت بهذا الاسم من قبل، إلا أنني لا أستطيع تذكر السياق. في الواقع كان الأمر لا يعنيني في شيء، من يكون فيلي براندت، فالموضوع يدور حول هارتموت.
قلت: *لقد أحرق نفسه*. بدا أن هذا أتى بتأثيره. فقد توقفت ونظرت إليّ وقالت: *من؟، *فيلي؟ براندت؟** قلت لها: *كلا، ليس فيلي براندت، بل هارتموت*.قالت *لا أعرف أي هارتموت*. قلت لها: *كان يسكن لدينا، جروندلر، بالأسفل في القبو، كان أحد *حماة الحياة*، وكان يضرب في بعض الأحيان عن الطعام، لكي يقر هيلموت في النهاية بالحقيقة.
كان قد شرح لي أيضًا موضوع قضبان الاشتعال. وأننا نرزخ كلنا تحت الخطر*. سألتني: *هل أنت وحدك هنا؟* قلت لها *كلا* وأشرت إلى والدتي. *نحن نقوم بجمع التبرعات من أجل هارتموت*. نظرت السيدة العجوز إلى الجانب الآخر من الشارع، لا أعرف، ما إذا كانت تستطيع أن ترى والدتي، إن كانت لم تستطع أن ترى الحروف، عندما وضعت الورقة أمام عينيها. بدا كما لو كانت تفكر. ثم قالت: *انظر في الحقيبة، لا بدَّ أن حافظة نقودي موجودة فيها، قم بأخذ مارك لك*. كانت الحقيبة معلقة على ذراع مشياتها. ترددت، وفكرت، فيما لو كان من اللائق أن أنظر بداخل حقيبة إحدى السيدات الغريبات من كبار السن. إلا أنني قررت في النهاية أن أفعلها. فتحت الحقيبة، ووجدت حافظة النقود على الفور. كانت حافظة نقودها من تلك الأنواع التي تحمل قفلًا مكونًا من كرتين، والتي من الصعب جدًّا فتحها. وتساءلت بيني وبين نفسي، كيف تستطيع تلك السيدة العجوز فتحها. أم أنها دائمًا ما تدع الغرباء يفتحونها لها؟ فكرت في هارتموت وتضحيته.
فضغطت بكل قوتي على تلك الكرات، حتى انفتحت في النهاية. تركت الكرات علامة في أطراف أصابعي، إلا أنني سريعًا ما نسيت هذا، عندما رأيت هذا الكم الهائل من العملات الورقية: أوراق من فئة العشر، والخمسين، بل وورقتين من فئة المئة مارك كذلك، إلى جانب بعض العملات المعدنية. وطرأ على خاطري في تلك اللحظة روبين هوود، وأن هناك أكثر من طريقة يمكن عن طريقها أن نصبح أبطالًا.
كانت أمي قد قالت لي أكثر من مرة، إن الدنيا لا عدل فيها، ففي الوقت الذي يمتلك فيه بعض الناس كمًّا هائلًا من النقود، يتحتم على الآخرين ألا يمتلكوا سوى أقل القليل. فالدنيا لا يوجد فيها أموال لانهائية، لهذا فإنه حين يمتلك البعض الكثير من النقود، لا يتبقى للآخرين سوى قدر ضئيل منها.

اعتبرت هذا منطقيًّا. كانت تلك السيدة العجوز بالطبع أحد هؤلاء الذين يمتلكون الكثير من المال. فإذا كنت قد قمت أنا بالتبرع بمصروفي، فإنه من العدل، أن تقوم تلك السيدة بالتبرع بعملة من فئة المئة، من أجل كفاحنا ضد الخطر النووي. فقد كان الخطر يحدق بها هي أيضًا تمامًا كما كان يحدق بالآخرين. كان الموضوع يتعلق أيضًا بحياتها.

كان عليَّ أن أقوم بإلهاء السيدة بأي طريقة. فقد قمت من قبل بسرقة عشرة ماركات من حافظة النقود الخاصة بجدتي، كانت موضوعة على البوفيه الموجود بالممر، ولم يكن هناك أحد موجود بالقرب من المكان آنذاك. إلا أن الوضع هنا مختلف تمامًا. كانت السيدة تحدق بأصابعي، التي كانت تبحث بين العملات المعدنية عن عملة من فئة المارك. تركت حافظة النقود تسقط. واعتذرت لها قائلًا: *أعتذر عن هذا*، قلت هذا في أثناء جمعي للعملات المعدنية التي تناثرت. وتظاهرت كما لو كانت هناك عملة معدنية قد وقعت بعيدًا، وانحنيت لالتقاطها بحيث أحجب الرؤية عن السيدة العجوز، وكنت لا أزال أحتفظ بحافظة النقود في يدي. سحبت ورقة نقدية من فئة المئة ودسستها سريعًا في جيب سترتي. ثم نهضت، وأقفلت حافظة النقود، وأعطيتها للسيدة العجوز مرة أخرى. وقلت لها *شكرًا*، وأريتها العملة من فئة المارك التي أخذتها. قالت السيدة: *يجب أن أستكمل طريقي، حظًّا سعيدًا لك ولـ هارتموت براندت*. رددت قائلًا: جروندلر، هارتموت جروندلر. ولكني لا أعرف إن كانت قد تمكنت من سماع ذلك.

عندما ابتعدت، أقبلت أمي من على الجانب الآخر من الطريق، وأخرجت لها المئة مارك، واحتفظت بالمارك لنفسي. وقلت لها: *من أجل هارتموت*.

تناولت أمي الورقة النقدية من يدي، ورفعتها لأعلى، كانت لا تصدق أنها عملة حقيقية. *هل ترى، لا يزال هناك أناس يعني لهم هارتموت شيئًا*.

أومأت. ودست أمي الورقة النقدية في جيب سترتها. وقالت: *هيا، هذا يكفي بالنسبة لليوم*. تبعتها إلى السيارة.

وعلى الرغم من أن النية وراء ذلك كانت طيبة، إلا أنني -وبخلاف روبين هوود- كان عليَّ أن أصارع ضميري الذي آلمني كثيرًا. فسرقة جدة شبه عمياء، كان من الصعب جدًّا اعتباره عملًا بطوليًّا. لهذا لم أقم بسرد تلك القصة لأي شخص في يوم من الأيام. إلا أنني كنت عندما أفكر في الأمر، أدرك أنني منذ الطفولة أعيش في شعور أنني يجب أن أحافظ على رضا أمي، وسعادتها، وحبها كذلك. كان هذا أيضًا يتعلق -مثله مثل الكثير من الأشياء الأخرى- بـهارتموت.

***

عندما كنا نجلس مرة أخرى إلى طاولة المطبخ، بعد أحداث *فوكوشيما*، عندما كانت تتحدث عن هارتموت سألتها *هل تتذكرين المئة مارك؟*. نظرت أمي إليّ، وبدا أنها لم تستوعب قصدي. *ذلك التبرع، الذي جمعته، عندما كنا نقف على الجسر ونوزع المنشورات، في نفس اليوم الذي قام فيه بإضرام

النار في نفسه*.
قالت: *كثيرًا ما قمنا بتوزيع المنشورات*.
*ألا تستطيعين تذكر هذا؟ عندما كنا نقف على جسر *النيكار*، حينما حضرت السيدة العجوز. هي لم تعطني المئة مارك، بل قمت بسرقتها منها. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أسرق فيها. لقد فعلت هذا من أجلك*.
رمقتني أمي بحدة، وقالت: *أتلوم نفسك؟ كان هذا من أجل هدف نبيل، والغاية تبرر الوسيلة. كان الموضوع يتعلق بإرث هارتموت وحياة أفضل. إنه لشرف لك، أن يشغلك هذا الموضوع حتى الآن. لو كان لدى هيلموت شميدت ضمير، لما غمضت له عين طوال حياته*.
يجب أن نتعاطف مع الأناس الذين على شاكلة هيلموت شميدت. على الأرجح كان هارتموت على حق، في أننا يجب أن نحزن في المقام الأول على الأشخاص، الذين لا يشعرون بأي تأنيب ضمير نهائيًّا. يجب أن نحزن على هؤلاء الناس، لا أن نحزن عليه، كان قد كتب هذا في خطاب وداعه، وأثبت بذلك عظمته مرة أخرى. هل أريتك هذا الخطاب من قبل؟ لقد كان موجودًا في صندوق البريد لدينا، بعد يومين من إضرامه للنار في نفسه. أعتقد أن هارتموت قد أرسله من *هامبورج*.
بالطبع كانت أمي قد احتفظت به، وكان موضوعًا، مثله مثل كل الوثائق الأخرى التي كتبها هارتموت في حافظة أوراق شفافة.
*عزيزتي مارتا،
عندما تتلقين المكالمة الهاتفية من رجال الشرطة، في الأغلب ستفكرين: إنها مصيبة مريعة. كلا يا مارتا. إنها احتياج. إنه لمن الصعب عليَّ ألا أكون سببًا في رفع بعض العناء عنكم، بل على العكس أن أكون سببًا في إضافة عناء جديد عليكم. لقد بدأت ملامح قراري هذا تتضح خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، ثم بدأ القرار ينضج بعد ذلك. بالنسبة لكم قد يكون هذا القرار مفاجئًا، لا أتوقع سوى أن يكون مفاجئًا بالنسبة لكم. سامحوني.
إذا كنتم تريدون... إذا كنتم ترغبون في عمل شيء ما، والاستفادة من الموقف، إذا كنتم ترغبون في دفع العاصفة إلى الأمام بعد سقوطي، مثلما هي الحال في المواقف الأخلاقية في الحروب، فعليكم مراعاة أمرين. الأول: يمكنكم أن تنأوا بأنفسكم، بالقدر الذي يبدو لكم ضروريًّا، كما يمكنكم أن تنأوا بأنفسكم تمامًا. لكم حرية الاختيار تمامًا. الثاني: لا تبالغوا في الحزن. واحزنوا عليَّ أقل بكثير من حزنكم على أشخاص مثل ألبيرت أينشتاين الذي يعاني ليلًا ونهارًا من وخزات الضمير، واحزنوا بقدر أكبر على الأشخاص الذين حتى لم يعودوا يشعرون -أم هل لنا أن نأمل: ألا يكونوا قد وصلوا لتلك المرحلة حتى الآن؟- بوخزات الضمير على الإطلاق. كنت قاسيًا معكم، أنا أعلم. ولكن هل بإمكانكم أن تلتمسوا لي أعذارًا أقوى بخصوص ما كان يحركني؟ أجرؤ أن أتمنى هذا.
ألا تستطيعون أن تروها بطريقتي: أنا أعطيكم بوقًا، كورقة رابحة في أيديكم؟

أتريدون أن تذكروني بخير، إذًا من الممكن أن تقولوا هذا: لقد وضع نفسه في خدمة الحاجة؟ لقد تحمل مشقة صغيرة وقصيرة، للقيام بدوره في تغيير مشقة كبيرة وطويلة. أتمنى أن تروها بهذه الطريقة. كنت أعني هذا. الوداع. هارتموت*.
عندما أرتني أمي الخطاب، لم تتضح لي عظمة هارتموت، بقدر ما ظهر لي عدم اهتمامه بنا تمامًا. كان خطابه مكتوبًا على الآلة الكاتبة. على الرغم من أننا نتعلم ونحن أطفال، كيف أنه علينا أن نكتب بخط أيدينا إذا ما كان الأمر يتعلق بمسألة شخصية. فالكلمات المطبوعة، في الوداع، كانت تعني بالنسبة لي: أنه لم تكن لنا قيمة شخصية عنده. كان الأمر سيان بالنسبة لي، إلا أنني كنت أرثي لحال أمي. فهو حتى لم يكلف نفسه عناء كتابة اسمه بخط اليد. كان بالنسبة لي مجرد خطاب وداع مصطنع. مصحوب بإرشادات الاستخدام.
- *مجرد خطاب مكتوب بالآلة الكاتبة؟ لم يترك شيئًا سوى ذلك؟*.
-*كلا، لا شيء سوى ذلك*.
-*هل أصبت بخيبة الأمل؟*.
-*هانو، الأمر لا يتعلق بي. من الواضح أنك لا تستطيع فهم ذلك. إذا كان الأشخاص يعنون شيئًا بالنسبة لـهارتموت لم يكن قد أتى بفعلته هذه قط. فالشخص لا يملك الطاقة لذلك، إلا إذا نظر إلى المنظور الأوسع. كان يرى الإنسانية جمعاء أمام عينيه، وليس الأفراد*.
سألتها عن مصير النقود، التي كنا قد جمعناها من أجل *هارتموت*، وماذا فعلت بها. فعلمت أنها استخدمتها في إصدار كتيب تذكاري لتخليد ذكرى هارتموت.

***

في طريق العودة مررنا مرة أخرى بالمنزل الواقع في شارع *أوستربرج*، وكادت أمي أن تعطل المحرك مرة أخرى. ومن الحظ الطيب أن مكان الانتظار أمام البيت كان لا يزال خاويًا. ولكننا في هذه المرة قمنا بالنزول من السيارة. تفاجأت حين أخرجت أمي مفتاحين من جيب سترتها، كان أحدهما مناسبًا تمامًا للقفل. لم أكن أعرف أنها تمتلك مفاتيح شقة هارتموت. صعدنا درجات السلم إلى الطابق الثاني. وكان من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي تفتح فيها الباب، فقد أدارت المفتاح بيدها اليمنى في حين أمسكت بمقبض الباب باليد اليسرى وضغطت في تلك الأثناء بكتفها على الباب. تصورت لوهلة، أنني سأرى هارتموت متفاجئًا، لأننا لم نطرق الباب، ثم استوعبت أنه لا يمكن أن يكون في المنزل، فقد كان في *هامبورج*.
منزل هارتموت. في الواقع لم يكن يضم سوى غرفة واحدة بها بوفيه للطهي، وحمام متناهي الصغر. لم يكن يملك حتى حوض استحمام. كانت الغرفة تحتوي على فراش، ومنضدة صغيرة، وضعت عليها الآلة الكاتبة الخاصة به، ووُضع أمامها كرسيان، وعند الحائط كانت توجد خزانة للملابس، كانت الكتب تتراص في كل مكان بالغرفة، على الأرض، وإلى جوار المنضدة كانت توجد

أكوام من الورق.
عندما حضرت إلى هنا في المرة الأخيرة، كانت أمي وهارتموت يجلسان إلى المنضدة الصغيرة، ولم يعيروني اهتمامًا. كان هارتموت يكتب على الآلة الكاتبة، وكانت أمي تجلس على مقربة منه، كانت تومئ برأسها بين الحين والآخر وتقول: *هارتموت، لا يوجد هناك من يستطيع أن يصل إلى جوهر الموضوع سواك*. وفي تلك الأثناء كنت أجلس على السرير، وأنظر في هذا الكتاب للمرة الثالثة أو الرابعة، هذا الكتاب الذي كان هارتموت قد قدمه لي في إحدى المرات. كان كتابًا مليئًا بالرسومات الساخرة، كان على الأقل من المفترض أن تكون ساخرة. ولكنني مع كل مرة أتصفح فيها الكتاب كنت أجدها أقل سخرية.
بعد فترة كنت قد أصبت بالملل، وشعرت بالجوع، مما مثل مشكلة لـهارتموت ووالدتي، فقد اتضح أن البراد شبه خاوٍ. بغض النظر عن اللبن الرائب، الذي لم أكن أحبه. وفي النهاية أكلت بعض شرائح الخبز وشربت مياهًا من الصنبور. وبعد فترة ذهبنا أنا وأمي أخيرًا، بعد أن كانوا، كما بدا لي، قد أتموا كتابًا كاملًا. إلا أن الأمر لم يعدو كونها مسودة مقال، تم نشره بعد حادثة الانتحار بقليل. وكان يحمل عنوان: *دعاية للطاقة النووية. العبوة اللغوية للطاقة النووية. من قاموس التأمل*. أتذكر عنوان المقال جيدًا، لأن أمي كانت قد أهدت لي مجموعة المقالات الكاملة عند بداية دراستي الجامعية.
حينما وقفنا هذا اليوم في غرفته، بدت لي كما هي: الفراش، الكراسي، الكتب، رزم الأوراق، كان كل شيء لا يزال هناك. كما لو كان هارتموت قد خرج لتوه من المنزل. حتى إنه كانت هناك ورقة مكتوب عليها لا تزال موجودة بداخل الآلة الكاتبة.
وقفت أمي لدى الباب، لفترة طويلة، وجعلت تنظر حولها، واغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى، كانت تلك هي المرة الثانية خلال هذا اليوم. ولكنها حينما أدركت أنني أنظر إليها، مسحت عيناها بكم سترتها، وذهبت إلى المنضدة، وبدأت في التفتيش في أكوام الورق. سحبت بعض الأوراق، كما سحبت الورقة الموجودة على الآلة الكاتبة. وفجأة أصبحت متعجلة للذهاب. ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت حقيبتين من القماش، كانتا معلقتان في مقبض الدرج، ثم فتحت خزانة الملابس، وسحبت منها بنطالًا، وزوجًا من الجوارب، وبعض القمصان، وكنزة صوفية، ودست كل شيء في الحقيبتين. ثم دست بعد ذلك الأوراق، التي انتقتها، وألقت نظرة أخيرة على الغرفة، وقالت: *هيا بنا، سنذهب إلى المنزل*.
عندما كانت قد وصلت إلى الردهة بالخارج، وجدت الكتاب موضوعًا على كرسي صغير من دون ظهر، كان هارتموت يستخدمه في الأغلب كمنضدة ليلية. فكرت، كم من الوقت قد مر يا ترى، منذ أن كنت أجلس هنا على سريره وأنظر في الكتاب. بالطبع بضعة أشهر. تناولت الكتاب، وجريت لألحق بأمي، التي كانت قد وصلت إلى الردهة، بعد أن تركت الشقة، وأغلقت الباب.

وفي طريقي للأسفل سألتني: *ماذا لديك؟* قلت لها: *الكتاب*.
-*أي كتاب؟* رفعته لتراه.
وفي السيارة وضعت الكتاب على حجري وتفقدت الغلاف: *الأب والابن. الجزء الثاني*. كان هناك أب أصلع الرأس، كث الشارب، يضع غليونًا في فمه، يجلس إلى جوار ابنه على الأرجوحة. كانا يتأرجحان في الهواء، وكانت تبدو عليهما السعادة. والسؤال الذي لم أطرحه على نفسي آنذاك، وأنا جالس على السرير، طرحته الآن على نفسي، وأنا في السيارة في طريقي إلى المنزل: لماذا كان هارتموت يمتلك هذا الكتاب؟ لم يكن له ابن. كما لم تكن له ابنة كذلك. ولكن العجيب كان امتلاكه لهذا الكتاب. كنت أستطيع أن أسأل والدتي، إلا أنني لم أفعل هذا. كنت قد نسيت، والآن أصبح الأمر متأخرًا جدًّا. في هذا اليوم، ذهبنا إلى المنزل في صمت. اختفت والدتي في غرفتها، ودخلت أنا إلى غرفتي. لم يكن هذا من غير المألوف. قضيت وقتًا طويلًا في غرفتي، رتبت الصور التي كنت قد جمعتها، واستمعت إلى الكاسيت، ورسمت أو قرأت. أما الكتاب، الذي كنت قد أخذته من غرفة هارتموت فقد وضعته على مكتبي.
جلست على الكرسي ذي اللون الأصفر الليموني، وفكرت، كيف يمكنني أن أحصل على ألبومي مجددًا. لم تكن أمي تحب أن يقوم أحد بمضايقتها، وهي جالسة في غرفتها. كانت في تلك النقطة مختلفة عن والدي، الذي لم يضايقه هذا أبدًا، والذي كان عادة ما يترك باب غرفته مفتوحًا. وقررت أن أستمر في انتظاري، وأن أنظر إلى الكروت المكررة لمرتين وثلاث مرات. قمت بتغطية وجوه اللاعبين بإبهامي، وحاولت أن أتعرف عليهم من خلال قصات شعرهم. كان هذا سهلًا عند البعض، مثل ديتر هونيس أو كارلهاينز فورستر، إلا أن الأمر كان صعبًا عند الآخرين؛ فقد قمت بالخلط بين هارلد بيك وهيلموت ديترله وبالعكس.
ثم حاولت بعد ذلك أن أتعرف على اللاعبين عن طريق أفواههم، ثم أنوفهم، إلا أنني قد انتهيت في وقت ما منهم جميعًا. فنهضت، وخرجت من الغرفة. ووقفت أمام غرفة والدتي، ووضعت أذني على الباب. كان الصمت يسود المكان. ربما كانت تجلس إلى مكتبها وتقرأ. كثيرًا ما كانت والدتي تتعمق في أحد الكتب. وكانت تمتلك مكتبة مليئة بالكتب، تحتل حائطًا كاملًا من غرفتها. كانت أمي تهتم كثيرًا بأن أقرأ. كانت قد أهدتني ذات يوم كتابًا اسمه *ساداكو ترغب في الحياة*، وكانت قصته تدور حول فتاة من *هيروشيميا*، أصابها إشعاع القنبلة النووية، وقررت أن تقوم بعمل ألف ونش من الورق، لأن هذا كان يعني، أن تسترد عافيتها مرة أخرى، كما قيل لها.
طرقت الباب، إلا أنني لم أتلق أي رد. انتظرت قبل أن أمسك بمقبض الباب. كانت أمي لا تجلس إلى مكتبها، كما أنها لم تكن ترقد على أريكتها، بل كانت تقف أمام النافذة. كانت تنظر إلى الخارج، كنت أعتقد على الأقل أنها تنظر إلى الخارج، لأنني لم أكن أرى سوى ظهرها. ناديتها *ماما؟*، إلا أنها لم تحرك

ساكنًا. ولم تلتفت إليّ كذلك. كانت تقف فقط هناك، وتساءلت بيني وبين نفسي، عما إذا كان هل من الممكن أن يتوفى الشخص وهو واقف، أم أنه عادة ما يكون راقدًا. وناديت مرة أخرى *ماما؟* إلا أنها لم تلتفت هذه المرة أيضًا. وسألت نفسي عما إذا كان هناك سبب، يغضبها مني. ربما كان عليَّ أن أسحب مئتي مارك من حافظة نقود السيدة العجوز، أم هل يرجع هذا، لأنني قلت، إن الأمور مع هارتموت ليست بهذا السوء؟ لم أكن أعرف وقتها، أنه قد أحرق أكثر من مجرد يده.

ربما كان من الأفضل أن أقول إنني أشعر بالأسف من أجله، ثم أوضح بعدها، لماذا. لأن هارتموت كان قد أتى بالكثير من الأفعال الطيبة من أجلنا، لأنه لم يكن هناك شخص آخر، قام بإرسال كل هذا الكم من الخطابات لـهيلموت شميدت، والذي لم يكن يفكر في شيء آخر، سوى في حمايتنا من الإشعاعات النووية، لأنه لم تراود أحدًا غيره فكرة أن يقوم بإحراق نفسه، لإنقاذنا، ولأنه كان يهديني الحيوانات الخشبية، والخنفساء المصنوعة من عجينة اللوز، وسألت نفسي، عن المكان الذي وضعت فيه تلك الخنفساء.

وفي الوقت الذي كنت أفكر فيه عن طريقة أعتذر بها، أتى صوتها وهي تقول: *تعالَ إلى هنا*.

فوجئت، لأنها قد لاحظتني. ذهبت إليها، وعندما اقتربت منها، وضعت أحد ذراعيها حول كتفي وجذبتني إليها. وهكذا ظللنا على هذا الوضع لفترة طويلة، ونحن ننظر إلى الخارج. كنت أتمنى، ألا ترفع ذراعها عني أبدًا. وتجمعت الغيوم.

كنا نملك حديقة صغيرة خلف المنزل: قطعة من العشب وضعنا فوقه أنا وأبي مرمى خشبيًّا به شبكة، وشجرتي تفاح، كما زرعت أمي حوضًا صغيرًا للخضروات. نظرت إلى المرمى الفارغ، وإلى الكرة التي كانت موجودة على بُعد بضعة أمتار قليلة منه. جال بخاطري، أنه حتى مانفريد دوبسكي كان سيسدد الكرة في الشباك.

لاحقًا، عندما كنت أرقد في السرير، تذكرت أنني لم أسأل عن الألبوم مطلقًا. لم تبرح أمي حجرتها في هذا اليوم. ونزلت أنا لاحقًا إلى الأسفل، لأنني سمعت أن والدي قد عاد إلى المنزل. كان مسافرًا. وكنت أريد أن أكون أول من يبلغه بما وقع لـهارتموت. هرولت في النزول إلى الأسفل، وتبعته إلى داخل المطبخ. سأل أبي: *ألن نتناول طعام العشاء اليوم؟*. فقلت له: *أمي في حجرتها، لأن هارتموت أحرق نفسه. باستخدام البنزين. تقول أمي، إنه فعل هذا من أجلنا*. ظل أبي واقفًا، والتفت إليّ ونظر لي، وما أثار دهشتي بالفعل، هو أنه لم ينبس ببنت شفة. وبدلًا عن هذا، ذهب إلى خزانة المطبخ، وأحضر بعض الخبز من صندوق الخبز، كما أحضر الزبد والجبن من البراد، وسكينًا ولوحًا صغيرًا من الدرج وقال: *يجب أن تأكل شيئًا*.

لم نتطرق في حديثنا مرة أخرى إلى هارتموت ولا إلى أمي. وإنما سارعنا في تناول طعام العشاء، حتى نجلس في الوقت المناسب أمام التلفاز، قبل ركلة

البداية. كان *المنتخب الألماني* يلعب ضد *سويسرا* في مدينة *شتوتجارت*. وكانت من أسعد أيام طفولتي، تلك الأيام التي أجلس فيها أمام التلفاز مع أبي لنشاهد سويًّا مباريات المنتخبات. وبعد ثلاث عشرة دقيقة قام اللاعب السويسري ماير بإحراز هدف في مرماه، تبعه بثلاث دقائق هدف آخر أحرزه هاينز فلوهيه، الملقب بـ*فلوكيه*، لتصبح النتيجة ٢:٠، أما البقية فقد أنهاها كلاوس فيشر. وفي الدقيقة ٦٠ رفع إحدى الكرات إلى منطقة الجزاء، نتجت عنها هجمة مرتدة، لتصبح النتيجة النهائية ٤:١. لم أرَ في حياتي هدفًا مثل هذا الهدف: فقد حلقت الكرة لتصل إلى القائم الداخلي ومنه إلى الشباك.
جلسنا لوهلة صامتين أمام التلفاز، حتى قطع والدي الصمت قائلًا: فيشر، وهز رأسه. وبعد المباراة طلب مني أن أذهب إلى فراشي. دائمًا، عندما كنت أرى هذا الهدف، يعاد على شاشات التلفاز في السنوات التالية كما كان يحدث من خلال أحد البرامج الرياضية، كنت أتذكر والدي وهو جالس فوق مقعده الوثير وهو يقول: فيشر.
دخل إلى غرفتي، وأنا راقدًا في فراشي. كان هذا نادرًا ما يحدث. كانت القاعدة أن تحضر أمي، التي تفحص كل شيء مرة أخرى. لم يوقد المصباح، ووقف في منتصف الغرفة، ينظر إليّ. كنت أستطيع أن أراه من خلال جفوني التي أغلقتها، لأن الضوء كان يقع على وجهه. بقي في مكانه لبعض الوقت. لم أعد أعرف، لماذا تظاهرت وقتها بالنوم. ولم أعرف أيضًا، لماذا حضر والدي إلى غرفتي، أكان يريد أن يخبرني بشيء، ولم يفعل، لأنه ظن أنني كنت نائمًا. خرج دون أن ينطق بكلمة، وسحب الباب خلفه، وتركني أغرق في الظلام الدامس. تكررت الدقيقة الستون أمام عينيّ أكثر من عشرين مرة. كنت أسترجع في ذهني تلك الهجمة المرتدة وأنا أتخيل، أن من قام بتمريرها ليس فيشر، وإنما كنت أنا *هانو كيلستربرج*. بعد فترة استيقظت مرة أخرى، على صوت أمي وأبي. لم أستوضح كلامهما، إلا أنه كان ظاهرًا من نبرة صوتهما، أنهما يتشاجران. ليس بصوت عالٍ، وإنما كان صوتهما مكتومًا. في تلك الآونة، كان أبي وأمي كثيرًا ما يتشاجران. في أغلب الأحيان كان الشجار بسببي، وما يراه كل طرف منهما أفضل لي، ففي هذا كانت وجهات نظريهما مختلفة أشد الاختلاف.
في تلك الليلة حلمت بدلافين. وبالطبع لم أهتم بمعنى هذا الحلم إلا بعدها بوقت طويل. فالدلافين تدل على الأمل والإنقاذ. أو ترمز أيضًا للحزن، كتعبير عن الاشتياق للمشاعر العميقة والسعيدة. تفسير الأحلام هو درب من دروب النبوءة، النبوءة المتأخرة، ولهذا فهو يحتمل التلاعب في تفسيره. لم أقض فترة طفولة تعيسة، ولا أريد أن أقنع نفسي بهذا الآن. ولكن كوني حلمت في تلك الليلة بالذات بالدلافين، أي بالأمل والإنقاذ، فهذا يحمل معنى مجازيًا بعض الشيء، فهو لم يكن نتيجة لليوم الماضي الذي عشته، وإنما كان نظرة مستقبلية لليوم المقبل، الذي قام فيه *هارتموت* مرة أخرى من بين الأموات، على الأقل في مخيلتي أنا.

***

في تلك الليلة، عندما كنت في الفندق في *فرايبورج*، لم أكن أستطيع النوم، فقمت بفتح التلفاز، وخفضت الصوت. في الصيف، بعد حادثة فوكوشيما، كانت ألمانيا ستستضيف كأس العالم لكرة القدم للنساء، وكانت وسائل الإعلام تحاول أن تزكي من روح التشجيع لدى المواطنين. وبينما كنت أقوم بالبحث في القنوات، وجدت قناة تذيع أفضل الأهداف على مدار السنوات الماضية، وبعد مرور كل تلك السنوات رأيته مرة أخرى، هدف القرن الذي أحرزه كلاوس فيشر.

شعرت أنني أعرفه جيدًا، كما لو كنت قد رأيته بالأمس فقط، مرات ومرات. تذكرت ألبومي. هذا الكتيب -الذي تمزق قليلًا- كنت لا أزال أحتفظ به في الدرج الأخير من مكتبي. كنت ألقي عليه نظرة بين الحين والآخر، وأحاول أن أتذكر أسماء اللاعبين. وكنت أحتفظ بداخل الألبوم بتلك الورقة التي خلعتها من كراس الرياضيات آنذاك، والتي دونت بمربعاتها بخط جميل أرقام الصور، التي لم أكن قد حصلت عليها بعد، والتي قمت بشطبها بعد ذلك، بعد أن قام أبي بشراء ٧٢ مجموعة لي. لا أعرف مطلقًا، ما كنت سأفعله آنذاك دون هذا الألبوم. كان هو ملاذي الوحيد.

وتذكرت والدي، الذي لم أكن قد رأيته منذ أصبحت في العاشرة من عمري، أي قبل أربعة وثلاثين عامًا. تمر تلك الذكريات مثل الفيلم السينمائي أمام عيني. أتصور أنني يمكنني سماع دوران بكرات الفيلم. كان والدي يمتلك كاميرا *بوليو*، بها مؤقت ذاتي: أراه جالسًا أمام المائدة، مرتديًا كنزته، وحليق الشارب كالعادة. أراه ممسكًا بيدي الضعيفة، النحيلة، حتى إنه بين الحين والآخر كان بعض موظفيه يتساءلون مداعبين، عمن يكون والد هذا الطفل. وكان والدي ينظر إليَّ ويقول: *أنت ملكي أنا يا هانو، أليس كذلك؟* كنت أومئ بالطبع لأنني كنت فخورًا جدًّا بأبي، الذي كان يقود سيارة سريعة، ويذهب معي لمشاهدة مباريات كرة القدم، والذي أهداني دراجة بمناسبة عيد ميلادي، لها مقود على شكل قرون الوعل، وناقل حركة ثلاثي السرعات، ومرآة للرؤية الخلفية. وكان يسمح لي بمشاهدة مباريات كرة القدم بين المنتخبات في التلفاز، على الرغم من أنه كان عليَّ الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. وكان يجلسني فوق حجره في أثناء حلقات لعب الورق، التي كانت تقام مرة واحدة كل شهر، لدينا في المطبخ، والتي كانت كثيرًا ما تعلو فيها الأصوات، حتى إن أمي كانت تنسحب إلى غرفتها. وفي فترة الإجازة كان يأخذني معه في بعض الأحيان إلى الشركة، ويدعني أجلس على أدوات الحفر العملاقة، وأعبث بروافعها بعد أن يكون قد سحب مفتاح التشغيل الخاص بها. كان موظفوه يحبونه، أو هكذا بدا لي، كان مديرًا من الطراز القديم، الذي يعتني بموظفيه، ويعطي كلًّا منهم مظروفًا نقديًّا عند رأس السنة. أعتقد أنه كان يتمنى، أن أدير الشركة بدلًا عنه في يوم من الأيام، وكان العاملون يعاملونني بطريقة مناسبة، كان الجميع يعرفون اسمي، وكان دائمًا ما يوجد

من يهتم بي، في حالة انشغال أبي.
وبالفعل أصبحت الشركة رسميًّا ملكي في ما بعد، لقد ورثتها، وتم نقل ملكيتها باسمي حينما بلغت سن الرشد. وكانت الشركة تدار بمعرفة أحد العاملين القدامى مع والدي، وكان يتم منحي ألفًا وخمسمئة مارك ألماني شهريًّا، مما مكنني من إكمال دراستي الجامعية دون عناء، ولكن أدى هذا الى أنني لم أنجح وظيفيًّا، وكنت أقوم ببعض الأعمال المختلفة التي تساعدني على المعيشة: كنت أقوم بقراءة أو مراجعة الأبحاث العلمية، أو أقوم بمساعدة أحد أصدقائي في الوكالة الإعلانية التي يمتلكها.
أعتقد، أن والدي لن يكون سعيدًا بما وصل إليه مستقبلي المهني: فلا وظيفة حقيقية، ولا زوجة، ولا أطفال. ولا حتى علاقة، استمرت لأكثر من سنة. كانت والدتي تنأى بنفسها عن حياتي، إلا في حالة أنها احتاجتني في أي أمر له علاقة بـهارتموت. كنت كثيرًا ما أفكر في شكل حياتي، إذا لم يكن فيها هارتموت.
منذ فترة قصيرة قرأت حديثًا صحفيًّا مع إحدى خبيرات العلاقات الزوجية، أمريكية الجنسية. قالت، إن القيم، هي التي تجمع الزوجين معًا. وإذا ما تغيرت فإن الهيكل المشترك سوف يذوب. وعلى الرغم من هذا فإن بعض الأزواج يمكنهم أن يظلوا مهتمين بعضهما ببعض، حتى وإن اختلفت وجهات نظرهما حول العالم. إلا أنه عادة ما يشعر أحد الزوجين بالتهديد بسبب تلك التغيرات. مما يؤدي إلى أن يشعر الشخص بالاغتراب، وهذا الاغتراب عندما يصل إلى نقطة معينة، يصبح من الصعب الرجوع منها.
إذا كان هذا صحيحًا، فإن الحياة الزوجية لأبي وأمي لم يكن من الممكن إنقاذها بأي حال من الأحوال. ولكن مع وجود أطفال، فإن الأمر هنا يشبه الكتلة والقصور الذاتي، فيكون لديهما مقاومة شديدة، فالأمر يحتاج إلى قوى خارجية قوية، لإجبارهما على الخروج من تركيباتهما المعتادة.
سألت نفسي، عما إذا كنت لم أستوعب، أم أنني لم أرِد استيعاب أنه كانت هناك صعوبات كبيرة تواجه أبويّ في التعامل بعضهما مع بعض. كانا يتشاجران بين الحين والآخر. إلا أن هذا أمر طبيعي في كل أسرة، وهو أمر معروف لكل طفل. كنت أعرف عائلات، يكون فيها الشجار أعلى وأكثر بكثير من عائلتي. كان والِدا باول يتشاجران حتى في أثناء زيارتي لهم، وفي إحدى المرات رأيت والدة باول وهي تقذف بصحن إلى الأرض، ثم جرت مسرعة خارجة من المطبخ، وأغلقت الباب خلفها بقوة.
أما والداي فكانا كثيرًا ما يصمتان، أكثر مما يتشاجران. فكانت أمي تجلس على كرسي القراءة الوثير الخاص بها، حاملة كتابًا بين يديها، في حين يجلس والدي على كرسيه الوثير الخاص بمشاهدة التلفاز ويحملق في الشريط الإخباري. كان الوضع على الأقل هكذا قبل هارتموت. أما في الوقت الذي كان فيه هارتموت موجودًا فقد بدأ الشجار.
إلا أن هناك حادثًا واحدًا، أتذكره بشكل خاص، وذلك لأنني سمعت لأول مرة

صراخ أبي وأمي. كان هذا في وقت متأخر من بعد الظهيرة. كنت لدى باول، ويبدو أن أبويّ لم يدركا أنني عدت إلى المنزل، وفتحت الباب. حتى وأنا ما زلت في الردهة الخارجية، كنت أسمع صوتيهما. كان والداي في الطابق العلوي، في غرفة النوم على الأرجح. سمعت، كيف كانت أمي تصرخ وتقول، إنها سوف تتركه، ثم سمعت الكثير من الصخب، وصرخت أمي، قائلة إنه عليه أن يتركها. وصرخ هو قائلًا، إنها لا تزال زوجته.
وقفت لوهلة في الردهة، ولم أكن أدري، ماذا عليَّ أن أفعل، ثم فعلت، ما لم أفعله من قبل: ذهبت إلى غرفة المعيشة، وأدرت جهاز تشغيل الأسطوانات. بدأ صوت ديميس روسوس يلف أرجاء المنزل، ورفعت الصوت، حتى يكون مسموعًا في كل ركن من أركانه. ثم جلست في كرسي القراءة الخاص بوالدتي.
أتى والدي إلى غرفة المعيشة بعدها بقليل، وخفض صوت الموسيقى، وسألني منذ متى وأنا موجود بالمنزل. ثم جلس إليّ، وسألني بعدها بفترة، عن عدد الصور التي تنقصني. ذهبت وأحضرت ألبومي، تصفحناه سويًّا، ثم نهض، وغادر الحجرة، وحضر مرة أخرى، ووضع لي خمسة ماركات على المنضدة وقال: *نتمنى أن يحالفك الحظ وتحصل على هاديفيز أو روليدير*.
ولم أرَ أمي في هذا اليوم سوى على طعام العشاء. كان الوضع كالمعتاد، فقد قامت بإعداد المائدة، وحكى والدي عن يومه في الشركة وعن أحد مشروعاته البنائية. بدت أمي، كما لو كانت قد بكت لتوها.
عندما حضرت في اليوم التالي من المدرسة، فهمت ما كانت تقصده، عندما كانت تصرخ وتقول إنها سوف تتركه، فهي لم تقضِ ليلتها منذ هذا اليوم في غرفة النوم، وإنما كانت تبيت على الأريكة الموجودة في حجرتها. لم أعرف ما السبب وراء ذلك، ولكنني كنت سعيدًا، أنها اختارت هذا النوع من الترك وليس النوع الآخر.

***

أيقظتني أمي في اليوم التالي لحادث هارتموت، كما كانت تفعل كل يوم، يكون عليَّ فيه الذهاب إلى المدرسة، وذهبت إلى المطبخ، لتعد طعام الإفطار، في حين اغتسلت أنا وارتديت ملابسي. وعلمت لاحقًا، أنها قد أبلغت العمل بمرضها في هذا اليوم. تلكأت في الحمام كالعادة. فيوم الخميس كنا ندرس في الدوام الأول مادة الرياضيات، ولهذا كنت كثيرًا ما أتلكأ وآخذ وقتًا إضافيًّا في الاغتسال وتصفيف الشعر. وفي العادة كانت أمي تطلب مني أن أسرع.
ولكن ليس في هذا اليوم. فكرت، في أن أستغل الفرصة، وأتأخر وأوفر على نفسي على الأقل حضور جزء من درس الرياضيات، إلا أنني قررت، أن أهرول مسرعًا إلى المطبخ، لأنني كنت أريد أن أعرف أيضًا، لماذا لم تطرق أمي باب الحمام عليَّ كالمعتاد لتستعجلني، كما كانت تفعل في الأيام الأخرى. وفي طريقي إلى المطبخ رأيت حقيبتين ممتلئتين، وموضوعتين في الردهة.

كانت أمي تجلس إلى المائدة المُعدة، وكانت قد أعدت لنفسها شطيرة وفنجانًا من القهوة، أما أبي فكان قد رحل.
قالت أمي، بعد أن جلست إليها على المائدة: *لن تذهب اليوم إلى المدرسة*. كان يبدو أن لديها خطة ما. كانت أمي تأخذ موضوع المدرسة بجدية شديدة، ويبدو أن هذا كان يرجع لكونها معلمة، ولكن كانت هناك أحداث تظهر بين الحين والآخر، تبدو أكثر أهمية من وجهة نظرها.
الحملة التي تمت في مدينة *كولونيا*، والتي قام فيها هارتموت بربط نفسه بالسلاسل في الكاتدرائية. أو حينما كنا نتظاهر في *جروهنده* و*كالكار*.
تخيلت بالطبع، أن هناك أمرًا من تلك الأمور ينتظرني، مظاهرة، أو محاولة أخرى للفت أنظار الناس لوفاة هارتموت. كانت تلك الأفكار تروق لي، وخاصة أن هذا سيعفيني من الذهاب إلى المدرسة.
حاولت، أن أخفي سعادتي؛ لأن الأهم كان هو الأمر نفسه، الذي لن أذهب بسببه إلى المدرسة، وليس عدم الذهاب إلى المدرسة في حد ذاته. قالت: *عليك أن تحزم بعض أمتعتك، فأمامنا رحلة طويلة*. استكملت إعداد شطيرتي. ثم سألت: *إلى أين سنذهب؟* قالت: *إلى *هامبورج*، إلى هارتموت*. أربكني الرد، حيث إنني كنت أتصور أن هارتموت قد مات. فقد أحرق نفسه. وسألت نفسي عما إذا كنا نريد أن نلقي نظرة على جسد هارتموت المتوفى. وما العائد الذي سيعود علينا، إن فعلنا هذا، إلا أنه خطر لي، أنني لا أعرف أصلًا أين يوجد هارتموت. أين يتم جلب الموتى؟ هل يرقد في أحد التوابيت؟
قلت: *ولكن هارتموت توفي*. نظرت إليّ، وبدا أنها فهمت في تلك اللحظة، ما كان يجول بخاطري. وردت قائلة *كلا، هارتموت لا يزال حيًّا*.
لم أكن أتوقع ذلك. في أول وهلة تساءلت، عما إذا كانت تعني ما قالته فعلًا، إلا أنني كنت أعرف جيدًا أنها لن تمزح، عندما يتعلق الأمر بـهارتموت. ثم فكرت أنها ربما كانت تعني نوعًا آخر من الحياة، فقد كان يُقال، إن الناس تحيا حياة أخرى في الجنة، أو أن أرواحهم تحيا، إلا أن تلك التصورات كانت تليق أكثر بتفكير جدتي. فقد كانت هي الوحيدة في عائلتنا، التي تؤمن بالله. أما كون هارتموت لا يزال على قيد الحياة، فهذا لم يخطر على بالي قط. وحاولت أن أتذكر، ما إذا كانت أمي قد تحدثت عن الوفاة في الأصل.
لم تكن قد فعلت. وهنا خطر لي، أنها قد أخذت بعض الملابس من خزانة ملابسه، وتعجبت أن هذا لم يلفت نظري في حينها. فسألت: *أين هو الآن؟* قالت: *في المستشفى، يرقد في وحدة الرعاية المركزة*. *وكيف سنصل إلى هناك؟* ردت قائلة: *بالسيارة، إنها رحلة طويلة، لهذا عليك أن تأخذ معك شيئًا ليسليك في أثناء الطريق، حتى لا تصاب بالملل*.
لم أشأ أن أردد على مسامعها مرة أخرى، أنني لا أصاب بالملل قط، وهي جالسة خلف عجلة القيادة. وبالأخص عندما كانت تقود على الطريق السريع. كانت تسير في معظم الأحيان في الحارة اليمنى، خلف إحدى الشاحنات.

كانت أمي تواجه صعوبة في التخطي، وكان عليها أن تسير بالسيارة لمسافة أطول لتتمكن من القيام بذلك، إلا أنها لو اتخذت قرارًا بالتخطي، وأعطت إشارة، لا يمكن إيقافها، حتى وإن استخدم أحدهم آلة التنبيه بصوت عالٍ أو حتى الأضواء المبهرة. ثم جال بذهني خاطر سريع، وقلت: *أفضل شيءٍ، يجعلني لا أشعر بالملل هو ألبومي، لو قلتِ لي أين أجده، سأحزمه في حقائبي على الفور*.
وفي طريقنا إلى *هامبورج* وجدت ألبومي موضوعًا إلى جواري على المقعد الخلفي للسيارة. لم يكن يمكن ليومي أن يبدأ بداية أفضل من تلك: سُمح لي ألا أذهب إلى المدرسة، واستردت ألبومي، وعلمت أن هارتموت ما زال على قيد الحياة. لم أكن أعرف، ما يخبئه لي باقي اليوم.
كانت المسافة بين *توبينجن* و*هامبرج* تبلغ سبعمئة كيلومتر. وعند جلوس أمي خلف عجلة القيادة، قررت ألا تتوقف إلا في حالات الطوارئ القصوى، كان هذا يعني على سبيل المثال، أن أوضح لها بما لا يدع مجالًا للشك، أنني في حاجة ماسة لدخول الحمام. وحتى عندما قلت لها هذا، كان ردها: إن الطريق شارف على النهاية، وبالطبع يمكنك تحمل المسافة الباقية.
كنت أعرف عن طريق الخبرة، أن تلك المسافة القصيرة تقترن عادة بساعة أو ساعتين، مما تسبب في حدوث بلل في إحدى المرات. كان عليَّ أن أتقلص على نفسي، وأصرخ، وأقسم لها أكثر من مرة، إنني يجب أن أذهب إلى الحمام، إلى أن استمعت إلى ندائي في النهاية وتوقفت في إحدى الاستراحات.
كانت تحاول تجنب هذا، لأنها إذا ما خرجت عن الطريق السريع، فقد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تتمكن من الصعود إليه مرة أخرى، وكانت تلك المناورة تضعها في كل مرة تحت ضغط، أما في أثناء رحلتنا إلى *هامبورج* فقد استطعت الصمود، لتسع ساعات كاملة. كنت في معظم الأحيان، أنظر إلى الطريق حولي، وأنظر إلى السيارات التي تتجاوزنا، ثم تتخطى مرمى البصر بعدها بلحظات.
كنت أعرف جيدًا كيف سيكون الوضع في حالة ما كنت أجلس مع والدي في السيارة. كنا في العادة نحن من نختفي من مرمى بصر السائقين الآخرين. كانت والدتي تطلق عليهم اسم *مجانين السرعة* أو *ملوثو البيئة*. أما أبي فكان يطلق على السائقين الذين نتركهم من خلفنا لقب *سائقو يوم الأحد*. كنت أحب فعلًا أن أكون أحد مجانين السرعة أكثر من كوني سائقًا من سائقي يوم الأحد. وسألت نفسي، هل يا ترى يعلم والدي برحلتنا إلى *هامبورج*. *هل يعلم والدي، بسفرنا إلى هامبورج؟*.
والعجيب أن والدتي وهي جالسة خلف عجلة القيادة كانت تبدو أطول من الحقيقة. وكان هذا يرجع في الأرجح لكونها تجلس مستقيمة أمام عجلة القيادة، وكان الأمر يبدو، كما لو كانت تحافظ على وجود مسافة بينها وبين مسند الظهر. وفي أثناء طريقة الجلوس هذه، كانت تحيط بعجلة القيادة بكلتا

يديها، وعندما بدأت أنا في قيادة السيارات، عرفت، كم كانت هذه الجلسة مرهقة. قالت: *نعم*. ولم تقل أكثر من هذا. ولم أطرح أنا أي أسئلة أخرى.
لم يكن من غير المعتاد، ألا أقابل والدي في الصباح، فقد كان في بعض الأحيان يخرج من المنزل قبلي، لأنه يجب عليه الذهاب إلى مكتبه أو إلى أي مكان آخر. وكان على والدي أن يقطع مسافات طويلة خلال الأسبوع.
لم نتحدث تقريبًا خلال تلك الرحلة، وكانت أمي قد طلبت مني أن أقوم بتشغيل المذياع في أثناء السفر، وفعلت هذا بأن قمت بالتسلق بين الكرسيين إلى الأمام. وعند رأس الساعة سمعنا ثلاثة أجراس تنبيهية تعلن عن موعد نشرة الأخبار. وسألتني أمي: *هل يمكنك أن ترفع الصوت؟* فقمت بالتسلق مرة أخرى إلى الأمام، لأنها كان يجب عليها أن تركز في القيادة.
المحامي الذي كان يدعى كرواسون، أستطيع تذكر هذا الاسم جيدًا، والذي كان يتولى الدفاع عن إرهابيي جماعة الجيش الأحمر، تم تسليمه من *فرنسا* إلى *ألمانيا*. بدأ مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي في *هامبورج*، و*هيلموت شميدت* قام في خطابه بتقديم برنامج بقيمة ١٦ مليارًا، يتم من خلاله توفير فرص عمل جديدة. كما تم تقديم تقرير آخر حول كأس العالم لكرة القدم. قامت أمي بهز رأسها وقالت: *يمكنك أن تخفض الصوت مرة أخرى*. وبعد مرور ساعة، كان عليَّ أن أقوم بنفس الإجراءات مرة أخرى، إلا أنه كان عليَّ هذه المرة إغلاق المذياع بعد أن استمعنا إلى النشرة الإخبارية.
قالت أمي: *قام فيشر بتسجيل هدف، وماذا في هذا؟ هدف غبي في أثناء لعب كرة القدم، هذا شيء طبيعي، والآن يجعلون منه بطلًا. مجرد لاعب كرة!* ترددت قليلًا في أن أقول لها، إن فيشر لم يسجل هدفًا واحدًا فقط، بل هدفين، وإن الثاني كان هدفًا من هجمة مرتدة، إلا أن محاولة شرح كرة القدم لأمي، كان شيئًا لا معنى له، فقد كانت لا تحب كرة القدم.
إلا أنني لم أفهم غضبها بسبب هدف فيشر سوى بعد قليل، عندما أكملت كلامها: *هل يعقل هذا؟ هدف فيشر يستحق أن يذكر في النشرة الإخبارية، وكذلك هيلموت شميدت، أما هارتموت فلم يتم ذكره بكلمة*. ثم هزت رأسها مرة أخرى، وقالت: *إن وسائل الإعلام تقوم بهذا عن قصد، فهم يحاولون، أن يوقفوا انتفاضة الشعب، ولهذا لا يذكرون شيئًا عن هارتموت. إنهم يخشون أن يستفيق الناس ويدركوا أن ما كان يتم سرده عليهم طوال تلك السنوات هي مجرد خرافات. إلا أنهم لن يستطيعوا أن يبقوا الناس في سباتهم العميق إلى الأبد، فحتى الأميرة النائمة، استيقظت في وقت ما*.
شعرت بالأسى من أجل هارتموت، وأيضًا من أجل أمي. فمن بين كل الأيام، سجل فيشر هدفه التاريخي، في نفس اليوم الذي أحرق هو فيه نفسه، ليتم اختيار هدف فيشر هدفًا للقرن، وكان من الواضح أن هارتموت قد قام باختيار اليوم الخاطئ.
مع بداية المساء وصلنا إلى *هامبورج*. وكانت أمي قد أعطتني خريطة للطرق داخل المدينة في الوقت المناسب. كان أبي قد علمني قراءة خرائط

الشوارع. كنت أجد متعة، في إعادة رسم الطريق بإصبعي. كنت لا أترك نفسي للحيرة، ولو لمرة واحدة، حينما تصيح أمي بتشكك: *إلى أين؟ أين عليَّ أن أذهب؟*. كنت أحافظ على هدوئي وأقول *إلى اليسار، ثم انعطفي في الشارع بعد القادم يمينًا، ثم إلى الأمام*. وهكذا استطعنا الوصول، على الرغم من زحام خروج الموظفين، إلى شارع *لومولن* ووجدنا مكانًا لانتظار السيارة أمام مستشفى *سان جورج*، الذي يرقد فيه هارتموت. انحنت أمي ناحية الكرسي المجاور للسائق، وأنزلت واقي الشمس ونظرت إلى نفسها في المرآة. ثم قامت برفع شعرها من فوق جبهتها بيدها اليمنى. بالنسبة لي كانت تلك خطوة غير تقليدية من أمي، فقد اعتدت أن أراها تخرج من السيارة، دون أن تهتم لمظهرها. لم تكن من السيدات اللاتي يقضين وقتًا طويلًا في الاستحمام، أو وضع الزينة بشكل مبالغ فيه. وكانت قد قامت بقص شعرها الطويل، قبل عام. وعندما حضر أبي إلى البيت في المساء، وشاهد الطريقة الجديدة لتصفيف شعرها، فُزع. ربما كان قد اعتقد في البداية أنها سيدة غريبة، إلا أنه قام بالاستناد إلى أحد المقاعد، بمجرد ما التفتت إليه وتأكد من أنها هي، تمسك أبي بظهر الكرسي جيدًا، كما لو كان قد أصيب بالدوار.
سألها: *ماذا فعلت بشعرك؟*. ردت قائلة: *حررت نفسي منه*.
لم أعرف وقتها، كما لم أعرف بعدها أبدًا، ما إذا كان أبي قد شعر وقتها، بأنه هو التالي، وأنها ستتحرر منه هو أيضًا.
نزلنا من السيارة، وأحضرت أمي حقيبة من صندوق السيارة. وعند مكتب الاستقبال سألت عن هارتموت وقالت إنها تلقت بالأمس مكالمة هاتفية، تعلمها بأنه تم نقله إلى المستشفى، وأنه يرقد في وحدة الرعاية المركزة، ثم قالت للرجل الذي كان يجلس خلف اللوح الزجاجي: *لا بدَّ أنك سمعت به، إنه هذا الرجل، الذي قام بإضرام النار في نفسه، تعبيرًا عن رفضه لسياسة الحكومة النووية*. إلا أن الرجل لم يبد عليه الاهتمام لهذا، فقد شرح لنا الطريق: خلال البهو، ثم إلى المبنى المجاور، الدور الأول. مررنا بكانتين صغير، وعندما شاهدت الشيكولاتة وهي معروضة للبيع، تذكرت كم كنت جائعًا. ظللت واقفًا في مكاني. فلم نكن قد حصلنا على طعام الغذاء، ولم يفلح التفاح، والجزر، والكرفس، الذي كانت قد أعدته أمي للرحلة، سوى في فتح شهيتي بطريقة أكبر للشيكولاتة، أو الكفتة الممزوجة بالكاتشب.
سألت أمي: *ماذا هناك؟*.
-*أنا جوعان*.
-*لماذا لم تأكل ما وضعته لك؟ كان لدينا ما يكفينا*.
-*أنا..*. حاولت أن أتصنع وجهًا يبدو عليه القهر، ساعدني على هذا تصور أعواد الكرفس: *لم أستطع أن آكل شيئًا من هذا*.
- *لماذا لا؟ لطالما كنت تأكل الجزر والكرفس في أثناء الطريق*.
قلت: *نعم، ولكن لهذا السبب تحديدًا، لم أستطع تناولها، أعني، أنها كانت

تذكرني بـ*هارتموت*، ورحلاتنا معه، كان عليَّ أن أتذكر هذا مع كل قضمة، لهذا لم أستطع ابتلاع أي شيء. والآن ببساطة أشعر بجوع شديد*.
بدا أن كلماتي قد آتت ثمارها. نظرت أمي إلى المعروض. قلت لها: *للأسف لا يوجد هناك شيء آخر*. قالت: *استثناء*، وسحبت حافظة نقودها من حقيبتها وأعطتني ماركًا في يدي وقالت: *لكن لا تحكِ لوالدك عن هذا*.
ذهبت وأحضرت لنفسي قطعة من الكفتة مضافًا إليها الكثير من الكاتشب، وتناولتها وأنا في طريقي إلى وحدة الرعاية المركزة. كون أمي قد سمحت لي بشراء الكفتة في هذا الوقت، يوضح لي الحالة الاستثنائية التي كانت تمر بها آنذاك، حتى وإن لم يبد عليها شيء آخر.
وهكذا وقفنا أمام الوحدة، بعد أن قامت أمي بضغط الجرس، وفتحت لنا إحدى الممرضات: كنت ما زلت ممسكًا بالطبق الورقي الذي لا تزال به آثار الكاتشب، وكانت أمي ممسكة بحقيبة بها أغراض خاصة بـهارتموت. قالت أمي: *نريد زيارة هارتموت جروندلر*. سألتنا الممرضة التي كانت ترتدي ملابس زرقاء وتربط شعرها على هيئة ذيل حصان خلف رأسها: *هل أنتم من أقاربه؟*.
ترددت أمي قليلًا. هل كان عليها أن تفكر أولًا؟ لم يكن هارتموت من أقربائنا، فقد كان مستأجرًا لدينا. لماذا لم تقل هذا صراحةً؟
نظرت إليها، ثم إلى الممرضة، التي كانت لا تزال تنظر في تساؤل إلى أمي. ثم قالت الممرضة: *أعتقد أنك لست السيدة جروندلر*. هزت أمي رأسها موافقة وقالت: *كلا، هارتموت ليس متزوجًا. كان يسكن لدينا في المنزل، في السنوات الماضية. تحدثت إلى أخيه، وقال لي إنه اتصل بكبير الأطباء بالأمس وأخذ موافقته على إمكانية حضورنا*.
طلبت منا الممرضة أن ننتظر لوهلة قصيرة، واختفت خلف الباب. كنت لا أزال أحمل الطبق الورقي، ولم أكن أعرف إلى أين أذهب به. وضعت أمي الحقيبة جانبًا. وظللنا واقفين في صمت، حتى انفتح الباب بعد بضع دقائق وطلبت منا الممرضة أن نتبعها. قادتنا إلى الاستراحة، وسألت أمي عما إذا كانت تريد فنجانًا من القهوة. هزت أمي رأسها موافقة. طلبت منا الممرضة أن ننتظر، إلى أن يأتي طبيب يدعى ماينهاردت، ويتحدث إلى والدتي، ثم ذهبت.
جلست أنا، في حين تجولت أمي داخل الغرفة، المؤثثة أثاثًا بسيطًا، عبارة عن منضدة وأربعة كراسي، إلى جانب بعض الكراسي المبطنة المصطفة على الحائط، كان هناك ضوء نيون صاخب في السقف، ومشمع في الأرضية، ونبات له أوراق جافة طويلة تنبت في إناء، لم يكن مملوءًا بالطمي وإنما بقطع صغيرة من الحجارة البنية، يظهر من بينها شيء يشبه جهاز قياس الحرارة. لم أكن أعرف قبل هذا، أننا نقيس الحرارة للنباتات أيضًا. كانت أمي تقطع الحجرة ذهابًا وإيابًا، وبين الحين والآخر كانت تفتح الباب لتلقي نظرة على الردهة الخارجية.

لم أعرف تحديدًا، كم من الوقت مر ونحن ننتظر دكتور ماينهاردت. إلا أنه حضر أخيرًا، كان رجلًا طويلًا، ممشوقًا، يرتدي زي الأطباء الأزرق، كان يفوق طول أمي بمقدار رأسين، ظلت أمي واقفة وقالت له: *هل نستطيع أن ندخل له الآن؟* نظر دكتور ماينهاردت من فوق كتف أمي، وأومأ لي برأسه، وطلب منها أن تجلس، وبدا أنها تفعل ذلك وهي مرغمة.

تناول الطبيب كرسيًّا لنفسه، وأشار لأمي أن تجلس. هنا فقط جلس أمامها على المنضدة، وقال: *هل تعرفين سيادتك، وضع السيد جروندلر؟* أومأت أمي برأسها إيجابًا. وبدأ دكتور ماينهاردت يوضح لنا الدرجات المختلفة للحروق.

كانت أسوأها، بحسب ما قال، الحروق من الدرجة الثالثة، استطعت أن أحتفظ بهذا في ذاكرتي. تفقد البشرة طبقات الجلد، ويصبح من السهل سحب الشعر إلى الخارج من جذوره، وفي الحروق من الدرجة الرابعة تتفحم البشرة، أما أكثر درجات الحروق إيلامًا فكانت الدرجة الثانية. قال دكتور ماينهاردت: *لقد حالف السيد جروندلر الحظ، لأنه حضر إلى هنا بحروق من الدرجتين الثالثة والرابعة. على الرغم من أن بشرته قد احترقت بنسبة ثمانين بالمئة. أقول هذا لسيادتك لكي يكون لديك تصور عما ينتظرك. أنا أعني، ما أريد أن أقوله..*. نظر إلى أمي، وانتظر، أن تنظر إليه، وهنا قال لها: *أريد أن أجنبك رؤية هذا المنظر*. قالت أمي: *لقد قطعنا مسافة سبعمئة كيلومتر من أجل أن نراه، ولن يثنينا شيء عن هذا*.

نظر الطبيب إليَّ. ولا أعرف، لماذا شعرت بالارتباك. والآن فقط أدركت أنني ما زلت أحمل الطبق الورقي بين يدي، فبحثت بعيني عن سلة مهملات، مما كان له فائدة، حيث أمكنني أن أهرب من نظرة الطبيب لي. كانت أمي تتحدث بصيغة الجمع، وضمنتني في كلامها بكل سهولة، دون أن تسألني، عما إذا كنت لا أريد أن أرى هارتموت. لم أكن في الحقيقة أتصور، كيف يبدو شخصًا سكب على نفسه البنزين وأشعل النار في نفسه، وكنت كذلك شبه متأكد، من أن تلك الفكرة لم تطرأ على خاطر والدتي.

ما زلت مندهشًا حتى اليوم، وأسأل نفسي، لماذا أحضرت ملابس لـهارتموت، ولم ألقت نظرة على نفسها في المرآة، قبل أن تغادر السيارة. سألت نفسي، عما إذا كانت تتوقع أن تقابل هارتموت وهو بكامل وعيه، أم أنها كانت تتوقع أن يخرج مرة أخرى من المستشفى. أم أنها كانت تقع تحت تأثير الصدمة، وترفض القبول بالخسارة، أو الاقتناع بأن هارتموت سوف يموت. لم أكن أشعر على الأقل أنني بحالة جيدة بعد شرح دكتور ماينهاردت للحالة، لم أستطع إبعاد صورة البشرة الخالية من الجلد، ولا الشعر الذي يتساقط بجذوره من مخيلتي.

وإذا ما كان الطبيب قد سألني، عما إذا كنت أنا أيضًا لا أريد أن أغير رأيي، في أن أرى هارتموت، كان سيكون من الصعب عليَّ أن أجد إجابة، فمن ناحية لم أكن أجد قيمة في أن أرى هارتموت دون جلد، إلا أنني على الجانب الآخر لم

أكن أريد أن أخذل أمي. ولحسن الحظ لم يسألني الدكتور ماينهاردت. فقد أومأ إليّ فقط وتوجه بالكلام إلى والدتي مرة أخرى قائلًا: *لا يجب أن يفعل الصبي هذا بنفسه. من فضلك اتركيه هنا. هذا أفضل بكثير*. بدا لي أن أمي تفكر في الأمر. ثم أومأت موافقة. وقالت لي: *سوف تنتظر هنا يا هانو، سوف ألقي أنا نظرة أولًا على هارتموت بمفردي. هل هذا مناسب بالنسبة لك؟*.

حاولت قدر المستطاع، أن أخفي شعوري بالارتياح، وقلت: *إذا كنت تعتقدين أن هذا أفضل، فسأبقى هنا*.

جيد، قالها الطبيب، ونهض واقفًا. وعندما رأى، أن أمي تهم بإمساك الحقيبة، قال لها: *لست في حاجة إليها*. بدت أمي لوهلة، كما لو كانت لم تقرر بعد، ثم تركت الحقيبة إلى جوار المنضدة، وخرجت من الحجرة بصحبة الدكتور ماينهاردت.

في البداية قمت بإلقاء الطبق الورقي. فقد كانت هناك سلة مهملات إلى جوار أصيص الزرع. واغتنمت الفرصة، ونظرت نظرة أكثر تفحصًا إلى الترمومتر، ووجدت أنه مقياس لمعرفة نسبة المياه في الأصيص. ثم أمسكت بإحدى قطع الحجارة الصغيرة الموجودة في الأصيص، وفوجئت بخفة وزنها. ألقيت نظرة على الردهة بالخارج، ثم جلست مرة أخرى. وبعد فترة، ذهبت إلى الأصيص، وملأت كفي ببعض قطع الحجارة الصغيرة، وحاولت أن أقذفها إلى داخله وأنا جالس على الكرسي. وندمت، على أنني تركت ألبومي في السيارة، ولكن أنَّى لي أن أعرف، أنه سيكون عليَّ أن أنتظر بمفردي.

في الحقيقة، كنت أجيد الانتظار. كنت أستطيع أن أقضي الساعات، وأنا أتخيل مباريات الدوري الألماني، وكان يمكنني أيضًا أن أتبنى وجهة نظر اللاعبين وأنظر من منظورهم، وخاصة هؤلاء اللاعبين، الذين يسددون لتوهم على المرمى. رأيت، كيف نهضت الجماهير الجالسة خلف المرمى، ورفعت أيديها لأعلى في فرحة، حتى قبل أن تحتضن الكرة الشباك. وفكرت في هيتزفيلد، وهولتسنباين، وهاتينبرجر، إلا أن هارتموت، الذي لم يكن يفقه شيئًا عن الكرة، كان يطرأ على خاطري بين الحين والآخر، بسرواله القصير، وسترته الكاروه المنقوشة من الوسط، وحالفه الحظ، أنه لم يصل أبدًا إلى الكرة، لأنه لم يكن يعرف، في أي اتجاه سيكون عليه تسديدها. وتنبهت للمرة الأولى، أن رأسي مليء بأسماء لاعبين، تبدأ كلها بحرف الهاء. بحرف الهاء كما هي الحال في هارتموت وهانو. وسألت نفسي، إن كان هذا مجرد صدفة. إلا أنني لم أعد أهتم لهذا الأمر الآن، لأنني كان يجب عليَّ الذهاب إلى الحمام على وجه السرعة. كان لدي في هذا الوقت مثانة لها قوة احتمال عالية، وأعتقد أن هذا كان بسبب خوفي من النهوض من سريري ليلًا، وبهذا تعلمت، أن أتحمل ضغط مثانتي، مما ساعدني كثيرًا في تحمل رحلات السيارة مع والدتي.

خرجت إلى الردهة.

ومن حسن الحظ لم يكن من الصعب عليَّ أن أجد الحمام، فهو يقع إلى جوار

حجرة الانتظار مباشرة. لم يكن هناك أي شخص بالردهة. لم أعد أعرف، كم من الوقت أمضيته وأنا أجلس وحيدًا، هل كان هذا ساعة، أم ساعتين أم ثلاثًا، لم تكن هناك ساعة، ولا نافذة، لا شيء يمكنني أن أستنتج من خلاله، كم مر من الوقت. تساءلت، هل نسيتني أمي، كيف لم تحضر حتى الآن لتخبرني بالخطوات التالية، وتخبرني بما رأت.
بعد أن دخلت إلى الحمام، وقفت مرة أخرى في الردهة، وشعرت بأنني وحيد. وكذلك، أستطيع أن أقول هذا الآن: لقد كنت أشعر بالغيرة. لقد تركتني في غرفة الانتظار وحيدًا، لتبقى عند هارتموت، مما كان يرمز لشيء في نفسي. لم تكن تلك هي المرة الأولى على أي حال. ففي الواقع، كنت كثيرًا -بالمعنى المجازي- ما أجلس في غرفة الانتظار، لأن أمي كانت منشغلة بـهارتموت. كنت أشعر منذ فترة طويلة، أنها من الواضح أن لديها شيئًا أهم مني. أن أكون هناك من أجل *الشيء*، والذي كان يعني في النهاية: أن أكون هناك من أجل هارتموت.
عندما كانت تحكي أمي وأنا طفل، كانت دائمًا ما تكون فخورة بي، كيف استطعت أن أغني أغنية *فيلبنجر* أمام المُعلمة، كانت أغنية، أثبتت على مدار أكثر من ثلاثين عامًا أنها ذات جودة عالية، وكانت كلماتها تقول: *مفاعل ذري، نحن لا نريد ذلك، سوف نقولها بكل جرأة في وجه الفيلبنجر، لا نريد مفاعلًا ذريًّا!* وكنت قد رسمت في طفولتي الكثير من اللوحات التي تحمل أفرانًا ذرية، تقف أمامها صفوف كاملة من رجال الشرطة، يحملون الدروع والعصي.
ظللت لفترة طويلة أرسم باللون الأسود فقط، وكنت أحلم ليلًا برؤوس الموتى. وفي النهاية طلب والدي، ألا تتواجد اللوحات والمنشورات في كل مكان بالمنزل. يمكنني تذكر ورقة مدون عليها أحد تلك المنشورات، والذي كان مزينًا برؤوس الموتى. كما أتذكر منشورًا آخر مزينًا بفرن ذري على هيئة رأس شخص ميت. سألت نفسي، عما إذا كان استمرار وجود هارتموت على قيد الحياة، شيئًا يدعو للفرح. لا أعرف، لماذا راودتني تلك الفكرة، وأنا موجود وحيدًا في ردهة تلك المستشفى، ربما لأنني شعرت بأن حتى الموت لن يضر هارتموت في شيء، فالموت لن يغير شيئًا، وأنه سيستمر في حياته على الرغم من هذا، ليس فقط بجسده.
في اليوم السابق كنت أعتقد أنه قد مات بالفعل، إلا أنه عاش، وكانت والدتي عنده، وتركتني خلفها وحيدًا في الغرفة، وبدا كما لو كانت قد نسيت، أنني أنتظرها في تلك الغرفة. ربما شعرت، أن هذا لن يغير في الأمر شيئًا، حتى وإن مات هارتموت حقيقة في المرة الثانية. فكرت في الخروج من الباب، الذي كنا قد دخلنا منه، إلى خارج المبنى، إلى أي مكان، وأن ألفت انتباه والدتي بهذه الطريقة. سأختفي. بلا أثر. ويكون عليها أن تبحث عني وتقلق من أجلي. لكن هذا كان مخيفًا جدًّا بالنسبة لي. كان الظلام قد حل بالخارج منذ فترة طويلة، وكان الجو شديد البرودة، ولم أكن أعرف المنطقة.

كان الخيار الآخر، هو أن أخرج من الباب الثاني، وبهذا ألفت الانتباه إليّ. لا بدَّ أن أمي هناك، في مكان ما، خلف هذا الباب، والممرضة كذلك، التي استقبلتنا في البداية، وحضرت لتطمئن عليَّ، إلا أنها لم تظهر ثانية منذ فترة كبيرة. وكان هناك جرس إلى جوار الباب. استغرق الأمر بعض الوقت، إلى أن أتى أحدهم، وظهر من وراء الباب الزجاجي المصنفر بزيه الأزرق، وفتح لي الباب. كانت ممرضة أخرى. وكانت تبدو أصغر سنًّا، وتربط شعرها أيضًا بنفس الطريقة، وكان لها وجه بشوش. سألتني: *من أنت إذًا؟*.
أجبتها قائلًا: *هانو، هانو كيلستربرج*.
-*وكيف أستطيع أن أساعدك يا هانو؟*.
-*أنا أبحث عن والدتي. كانت تريد زيارة هارتموت*.
-*ومن هو هارتموت؟*.
-*هارتموت كان يسكن لدينا، وقد حرق نفسه بالأمس*.
وبعكس موظف الاستقبال، بدا أنها عرفت على الفور من يكون هارتموت. واستدارت باحثة بعينيها عن مساعدة. ثم قالت: *تعالَ إذًا، دعنا نرى أين علقت والدتك. ولكن قبل هذا عليك أن تبدل ملابسك*. وقادتني إلى غرفة، كانت بها عدة أرفف مليئة بالثياب الخضراء. إلا أنها يبدو أنها قد نسيت أنه لا توجد من بين تلك الثياب ما يناسب مقاس الأطفال. وبحثت بيدها بين عدد من الصفوف، وأعطتني في النهاية ثوبًا كبيرًا للغاية. ثم طلبت مني أن أخلعه مرة أخرى، وأن أذهب بملابسي العادية، لأنني غير مسموح لي بالدخول على أي حال. تبعتها خلال الردهات، ومررنا بعدد من الغرف المظلمة، التي كانت أبوابها مفتوحة، ويصدر منها صوت صفير منتظم، وبعيدًا عن هذا كان كل شيء يبدو هادئًا. انحرفنا عند المنحنى، وهنا وجدت أمي واقفة أمام نافذة صغيرة، معطية ظهرها لنا. لم يبد أنها تنبهت لوجودنا. كانت واقفة هناك فقط، دون أدنى حركة، وسألت نفسي، عما إذا كانت قد أمضت كل تلك الفترة أمام تلك النافذة. لمست الممرضة كتفي برقة، وحركت رأسها، كما لو كانت تريد أن تسألني عما إذا كانت تلك السيدة هي أمي. أومأت موافقًا. فتنحنحت الممرضة، وقالت بهدوء: *السيدة كيلستربرج*. إلا أن والدتي لم تحرك ساكنًا.
-*سيدة كليستربرج، ابنك..*. هنا استدارت أمي ببطء. صُعقت، عندما رأيت وجهها، فقد كان وجهها شديد الشحوب، كما لو كانت قد وضعت مساحيق تجميل باللون الأبيض، وربما كان يرجع هذا أيضًا إلى الإضاءة، إلا أن عينيها بدتا مدمعة أكثر من العادة، وبدا أنها لم تعرفني على الفور. نظرت لنا، كما لو لم تكن قد رأتنا من قبل، وربما يكون هذا حقيقيًّا بالنسبة للممرضة، إلا أنني لم أكن غريبًا عنها. وبعد وهلة بدا أنها تعرفت عليَّ وقالت: *نعم*.
قالت الممرضة: *لقد كان ابن حضرتك يبحث عنك*.
ورددت أمي مرة أخرى: *نعم*.
*سيدة كليستربرج، هل كل شيء على ما يرام؟ يبدو أنك في حاجة للخروج من هنا، إلى حيث الهواء النقي، أو على الأقل يجب أن تجلسي، سأحضر لك

بعض القهوة*.
وعلى ما يبدو أن أمي قد عادت إلى رشدها في تلك اللحظة، فعادت لحجمها الطبيعي، كما لو كانت بالونًا، تم نفخه.
قالت للممرضة: *يجب أن تغلقي هذا*، إلا أنه من الواضح أنها لم تفهم ما عليها غلقه.
فردت متسائلة: *أُغلق؟*.
-*نعم، تغلقي. أنتم تجعلون منهم ضحية، وتبقونه على قيد الحياة ضد رغبته*.
أخرجت والدتي ورقة من جيب بنطالها، وفردتها، كانت قد احتفظت بتلك الورقة حتى موتها. قالت *إنها رغبته الأخيرة، ومكتوب هنا: *أطالبكم، من أجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية، طبقًا للمادة ١.١ من الدستور، أن تحترموا رغبتي، وأن توفروا عليَّ عناء البقاء، غير الآدمي، في المستشفى*. ليس من حقكم أن تجعلوا منه ضحية، ضد رغبته، يجب أن توقفوا الإجراءات التي تبقيه على قيد الحياة*.
بدا الاضطراب الشديد على الممرضة.
-*هذا القرار ليس بيدي. هل تحدثت في هذا مع الدكتور ماينهاردت؟*.
-*لا لم أتحدث معه حول هذا الأمر*.
-*سأقوم باستدعائه، تفضلي بالانتظار في الاستراحة، حتى يحضر*.
سألت نفسي، من أين لأمي بهذا الخطاب، ثم خطر لي في ما بعد، أنه يجب أن يكون هو تلك الورقة التي سحبتها من فوق الآلة الكاتبة الخاصة بـ*هارتموت*. إلا أنني لم أفهم، لماذا تريد أمي الآن فجأة، أن يموت هارتموت. لقد جلبت له بعض الملابس بالفعل، إلا أنها لم ترد فجأة أن يرتديها، لماذا؟
هل تحدثت معه؟ لا يمكن أن يكون هذا قد حدث، لأنها كانت واقفة خلف النافذة الزجاجية. يجب أن يكون قد حدث شيء ما، شيء ما، له علاقة بتلك الغرفة.
كنت أريد أن أعرف، ما هو هذا الشيء، وأتيت بشيء، تمنيت في ما بعد لو كنت وفرت عناءه على نفسي. عندما استدارت الممرضة لتقودنا إلى غرفة الانتظار مرة أخرى، وكانت أمي تقوم بطي الورقة، لتضعها في حقيبتها وتهم بمرافقة الممرضة، تقدمت أنا بخطوتين ناحية النافذة، التي كانت مرتفعة بعض الشيء، بحيث إنني كان عليَّ أن أتعلق بحافتها، وأرفع جسمي لأعلى، وأقف على أطراف أصابعي.
وهنا رأيت هارتموت: أو لأكون أكثر دقة، ما تبقى منه. لقد كان ما رأيته لا يمت بصلة إلى هارتموت الذي كنت أعرفه. استطعت من خلال الزجاج أن أنظر إلى داخل غرفة صغيرة، يوجد بها فراش واحد، فراش كان مغطى بصندوق زجاجي، كما نرى في حديقة الحيوان، في بيت الزواحف، حيث يمكن للمرء أن يشاهد الحشرات والعناكب.
لم يكن هارتموت مغطى. كان مستلقيًا على ظهره، وساقاه مثنيتين، ويداه

معلقتين في الهواء. لم يكن لديه شعر، ولا رموش، ولا حواجب. كان معلقًا به جميع أنواع الخراطيم. كانت بشرته شديدة البنية، لم أعرف هل تم دهنها ببعض المراهم، أم أنها قد احترقت؟ كان السرير عند الحائط المقابل، على بعد عدة مترات من اللوح الزجاجي.
لم يعد في الإمكان استيضاح ملامح وجهه. إلا أن يده اليمنى لم تكن قد احترقت، أما أصابع يده اليسرى فقد اختفى منها اللحم تمامًا أو تفحم. لم يكن هناك أي شيء، يمكن أن يذكرني بـهارتموت. وعلى الرغم من هذا لم يكن بمقدرتي أن أشيح بوجهي عن رؤيته.
كانت أمي هي من قامت بجذبي، أو أنه من الأفضل أن نقول بإزاحتي. آلمتني وهي تفعل هذا، لأنني كنت لا أزال متعلقًا بأصابعي في الإطار، وفقدت توازني، عندما جذبتني من كنزتي. وهنا التوى اثنان من أظافري. جذبتني بعيدًا، ولفتني من كتفي لأقابلها وجهًا لوجه، وقالت إنه لم يكن ينبغي لي أن أفعل هذا. وقبل أن أجيب، قالت: إن من يقبع بالداخل ليس هارتموت. ليس هارتموت الذي يجب أن أحتفظ به في ذاكرتي. فـهارتموت القابع بالداخل هو ضحية للطب، وقد ضحى هارتموت بنفسه، إلا أنه ليس ضحية. هذا هو الفرق بين الضحية والبطل، فالبطل هو شخص، ضحى بنفسه بكامل إرادته.
ولهذا يجب أن نهتم الآن، بألا يبقوا هارتموت على قيد الحياة. هذا هو واجبنا الآن. ويجب عليَّ أن أمنع نفسي من التفكير في هذا الـهارتموت الراقد بالداخل، وعندما يخطر هارتموت في المستقبل على بالي، فعليَّ أن أستحضر صورة هارتموت، الذي كنت أعرفه في السابق، لأن هذا الذي يرقد بالداخل، وأشارت بيدها إلى اللوح الزجاجي، ليس هارتموت. ثم سألتني، عما إذا كنت قد فهمت هذا؟ فأومأت برأسي إيجابًا. حتى وإن كنت لم أفهم كل شيء. إلا أنني شعرت، أن هذا شيء مهم بالنسبة لها، لذلك حاولت إقناع نفسي، أن ما رأيته لم يكن هو هارتموت.
وبعد قليل كنا نجلس مرة أخرى أمام دكتور ماينهاردت. وشرح لنا أنهم قاموا بعمل عملية شق حنجري، وأن هارتموت موضوع الآن على أجهزة التنفس الاصطناعي، وأن قلبه يتم متابعته من خلال جهاز كمبيوتر، وكذلك ذبذبات المخ، وقد تم توصيل خرطوم ببطنه، حتى يتم التخلص من البول. وأن واجبه كطبيب يحتم عليه اتخاذ كل الإجراءات اللازمة، لإبقاء إنسان على قيد الحياة، وأنه أقسم على أن يقوم بهذا. وقال: *أنا لا أستطيع، وليس مسموح لي، ولا أريد أن أوقف الأجهزة*.
قالت أمي وهي تعطي الدكتور ماينهاردت الخطاب: *ولكن تلك هي رغبته الأخيرة. ليس لك أي حق في أن تقف في طريق تلك الرغبة. هذا يعد مساسًا بكرامته. وكرامة البشر لا يمكن المساس بها. إنه حق يكفله الدستور والقانون، وهو فوق كل شيء*.
لم يقم بقراءة الخطاب، ونظر إليه لوهلة، ووضعه جانبًا.
وقال: *أعتذر منك. هذه الرغبة لن أحققها لك. وليس علينا مناقشة هذا الأمر

أكثر من ذلك، لأنه غير قابل للمناقشة*.
سألته أمي قائلة: *هل تعرف لماذا أضرم هارتموت النار في نفسه؟*.
قال الدكتور ماينهاردت: *الناس لا يمكنها استيعاب هذا، ولكن هناك الكثير من الناس تضرم النار في نفسها، ويعلم الله أن السيد جروندلر ليس هو الوحيد الذي فعلها. ومعظم من يأتي بمثل هذا الفعل، يعاني من اضطرابات نفسية واكتئاب*.
أتذكر أن والدتي قالت لدكتور ماينهاردت إنه يخطئ، إذا أراد أن يعلل إضرام هارتموت للنار في نفسه، بسبب إحباطه أو اكتئابه.
أعاد دكتور ماينهاردت الخطاب إلى والدتي، ونهض واقفًا، وقال: *قد يكون مريحًا لك، إذا عرفتِ، أن فرصة النجاة أمام السيد جروندلر ضئيلة للغاية، إنها فقط مسألة أيام*. وفي طريقه إلى الباب، استدار مرة أخرى. وألقى نظرة على والدتي، وقال: *حقيقي إن الكرامة الإنسانية لا مساس بها. إلا أن هذا ينطبق أيضًا على من يضرم النار في نفسه. لقد كان هو في الأصل من سلب نفسه تلك الكرامة. فكري جيدًا في ما قلته لك، يا سيدة كلستربرج. وإذا جد جديد، يمكنك أن تتصلي بي في أي وقت*.
كان ذلك واضحًا بما فيه الكفاية بالنسبة لي، إلا أنني قررت أن أحتفظ بوجهة نظري لنفسي. كان من الصعب عليَّ تحديد الحالة المزاجية لوالدتي في تلك اللحظة. عندما غادر دكتور ماينهاردت الغرفة، بقيت أمي جالسة أمام المنضدة، وبدت بعكس ما كانت عليه في السيارة، فهي لم تبدُ أكبر، ومعتدلة، وإنما بدت أصغر، ومنكمشة على نفسها، كانت تضع يديها على المنضدة، وتحملق في الخطاب الموضوع أمامها. لم أدرِ ماذا عليَّ أن أقول.
عندما يكون الشخص مصابًا، نتمنى له السلامة والصحة. أما أمي، فكانت تتمنى، لو أن هارتموت يموت. ولم أكن أدري ما عليَّ تمنيه في تلك اللحظة، هل أتمنى له الحياة أم الموت. لم يكن واضحًا بالنسبة لي، ما تتمناه أمي فعلًا، على الرغم من أنها قالت للطبيب، إنه يجب أن يموت. إلا أنني لم يكن يمكنني تصور هذا.
وهكذا جلسنا أنا وهي في غرفة الانتظار، ولم نكن نعرف على الأرجح، ما يجب أن نتمناه. وضعت يدي فوق يد أمي، لأنني كنت قد رأيت في أحد الأفلام من قبل، كيف فعل صبي ذلك. وكان رد فعل الأم آنذاك، أن وضعت يدها فوق رأسه، وضمته إليها. إلا أن أمي تركت يدي موضوعة فوق يدها، ثم وضعت يدها الأخرى فوق يدي، وفكرت قليلًا، هل عليَّ أن أضع بدوري يدي الأخرى فوق يدها، مثلما يحدث في تلك اللعبة، بأن يقوم صاحب اليد الدنيا، بسحب يده سريعًا، ويضعها بالأعلى، إلا أنني تركتها كما هي. ثم قامت هي بسحب يدها من أسفل يدي، ونهضت واقفة، وأمسكت بالحقيبة، التي كانت لا تزال واقفة بجوار المنضدة على الأرض، وقالت: *فلنذهب*.
تركنا وحدة الرعاية المركزة. وعندما مررنا بالمبنى الرئيس، كان الكانتين قد أغلق أبوابه. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، رأيت هذا من خلال

الساعة الكبيرة المتدلية من السقف لدى المدخل.

سألت والدتي الرجل لدى الاستقبال، عما إذا كان هناك فندق في المنطقة، ووصف لها الطريق. وحصلنا على غرفة ترى نهر *الألستر*، والذي كان واضحًا فقط، لأنه كان يمكن للمرء أن يرى بقعة كبيرة مظلمة، عندما ينظر من النافذة إلى الخارج.

جهزنا أنفسنا بسرعة للخلود إلى النوم، غسلنا أسناننا، وارتدينا ملابس النوم. ولم يكن هناك سوى فراش واحد. وكانت تلك هي المرة الأولى منذ سنوات، التي أشارك أمي فيها في فراشها. استدارت لترقد على جانبها، في الوقت الذي كنت لا أزال أرتكن فيه إلى الحائط، وأقلب في ألبومي. عندما أطفأت النور، كانت أمي ترقد هناك وهي مغلقة العينين. رقدت على ظهري، وسحبت الغطاء حتى ذقني.

إلا أنني لم أستطع النوم، فكلما كنت أحاول أن أفكر في هاتينبرجر وهيتسفيلد، كانت تقاطعني خواطر حول هارتموت، وللأسف كان هارتموت غير الصحيح، هارتموت الذي رأيته مؤخرًا. هارتموت صاحب البشرة البنية، الذي لا وجه له. ولا شعر. ولا حواجب. حاولت أن أتذكر هارتموت الصحيح، وتذكرت هذا الصباح الذي صحبنا فيه إلى المتنزه الطبيعي *شونبوخ*.

لقد تجولنا في الغابة، وقمنا بجمع الأوراق، التي قمت بوضعها بين صفحات الكتب المتراصة في منزل هارتموت. كنا نبحث عن الفراولة البرية. كنت أعشق تلك الفراولة الصغيرة، البرية، وكنت آكلها، حتى وإن كانت بيضاء، لأنني لم أكن أريد، أن يقوم أحدهم بقطف الثمار الناضجة في ما بعد. راقبنا الخنافس، وأم أربع وأربعين. تركت دعسوقًا يصعد على يدي، وانتظرت حتى طار من فوقها.

وكنت أصاب بالقشعريرة من العناكب، وجلست أتابع هارتموت بترقب، وقد ترك عنكبوتًا يصعد على يديه وذراعه. واكتشفنا سحلية من نوع السلمندر، وراقبناها وهي تتسلق جذع شجرة إلى الأعلى. وقفزت إحدى الضفادع صفراء البطن من بين العشب.

جلسنا نستمع إلى أصوات الطيور، وبدا أن هارتموت يعرف نوع كل منها من خلال صوت زقزقته. ورأينا الحمامة، ذات الرقبة الخضراء اللامعة والصدر المائل للون البرتقالي. وطائر نقار الخشب الأسود، الأكبر من نوعه في أوروبا، برأسه الأحمر.

وحكى لي في إحدى المرات عن مطار *شونبوخ*، الذي كان من المخطط أن يشيد هنا، وكان من المفترض أن يكون هنا كتل من الأسمنت بدلًا عن الغابة. وكان السلمندر والضفدع ذو البطن الأصفر سيكونون في عداد الموتى.

ولكن كان هناك أناس معارضون لبناء المطار، ونجحوا في النهاية، في منع البناء. كان *هارتموت* واحدًا منهم. وشرح لنا، أن الأمر يتعلق في الأساس بإنقاذ الأرواح. لهذا أسس مجموعة العمل هذه التي تهتم بحماية الحياة، وسألنا في ذلك اليوم في متنزه *الطبيعة* عما إذا كنا نريد المشاركة. كنت

أتخيل وقتها، كيف سأحصل على سترة فسفورية صفراء أو برتقالية، مكتوب عليها كلمة *منقذ*، وسيكون عليَّ أن أساعد السلاحف، بنقلها من أحد جانبي الطريق إلى الجانب الآخر، أو سيكون عليَّ أن أراقب أبي، في الأيام الحارة، وأثنيه عن مطاردة الذباب بمصيدة الذباب اليدوية داخل المنزل.
في هذا الوقت، كان علينا أن ننقذ الحياة، والآن يرقد هارتموت دون جلد ولا شعر في المستشفى، وتطالب أمي دكتور ماينهاردت بإنهاء حياته.
لماذا لم ينقذ هارتموت حياته هو نفسه؟ ولماذا لم ترد أمي أن تنقذ حياته؟ بدا أن الدكتور ماينهاردت هو الوحيد الذي يسعى لإنقاذ الحياة.
كانت تلك هي المرة الأولى، التي سألت فيها نفسي، عما إذا كان هارتموت صادقًا، وأمي كذلك. وطبقًا لذاكرتي فقد بقيت مستيقظًا طيلة الليل، إلا أنني على الأرجح قد غلبني النوم في وقت ما. لا أعرف، ما إذا كنت مستغرقًا في النوم، أم أنني كنت بين اليقظة والنوم، حينما سمعت أمي وهي تنطق باسمه، هارتموت، ولكنها لم تكن تناديه، بل بدا الأمر، كما لو كانت تتحدث إليه، كما لو كان موجودًا معنا في الغرفة، بل كما لو كان معنا في الفراش، وتريد أن تحكي له شيئًا.
كنت أشاهد بعض رجال الشرطة في التلفاز، وهم يحققون مع أحد الأشخاص، ويسألونه عما يتذكره، ويريدون معرفة إن كان هذا الشخص متأكدًا من روايته. وإذا ما سألني شرطي في الصباح، عما إذا كنت متأكدًا أن والدتي قد نطقت باسم هارتموت في أثناء الليل، كان عليَّ أن أجيب بصدق *كلا*. من الممكن أن يكون هذا مجرد حلم. وبخاصة أنه لم يصدر عنها أي شيء آخر. اسم هارتموت لمرة واحدة فقط، ليس أكثر من هذا. وفي الصباح بدا الأمر بعيدًا جدًّا وتذكرت أمي أن هناك مسألة يجب أن ننجزها. كانت تقف مرتدية ملابسها، أمام الفراش، عندما فتحت عينيّ، ورأتني. وقالت: *هانو، عليك أن تنهض، فما زال أمامنا شيء ننجزه*.

***

أكثر ما كان يعجبني في أمي حتى وفاتها، هو أنها كانت لا تكل أبدًا. كان لديها دومًا شيء عليها إنجازه. ففي الوقت الذي كان فيه الأشخاص في مثل سنها، يجدون متعتهم في أماكنهم التي اتخذوها أمام التلفاز، كانت أمي مدفوعة بإيمانها بأفكار اعتنقتها، واحتفظت بها على مر السنين. كما أنني أحسب لها أيضًا، أنها كانت بعيدة كل البعد عن كل شكل من أشكال السخرية، التي كثيرًا ما يلجأ إليها الأشخاص، الذين يرزخون تحت زخم الحياة اليومية، أو من الممكن أن نقول: غباء الناس، جعلهم يطردون كل المثل العليا من رؤوسهم. كيف استطاعت أمي أن تستمر في الحياة، دون أن تخلق لنفسها سخريتها الخاصة بها؟ ربما حدث هذا لأنها لم تستسلم أبدًا.
لأن السخرية نوع من أنواع الاعتراف بالفشل، فالشخص الذي لم يبق له سوى التأمل الساخر، يكون قد استسلم.
وأتساءل: كم عدد المصابين التي تتحملهم المعركة من أجل الخير؟ كم عدد

القتلى الذين يمكن تبرير قتلهم؟ لقد رأيت أحدهم فقط، وأنا في العاشرة، وكان كافيًا بالنسبة لي. لأنني بالطبع لم أستطع طرد الصورة الخاطئة لـ هارتموت، والتي لم يكن عليَّ تذكرها، من مخيلتي أبدًا. صورة هارتموت الذي لا جلد له ولا شعر، رافقتني على مدار حياتي.

فهو يعيش في أحلامي. نحن نجلس فوق فراشه، وأمي تتحدث إليه، كما لو كانت لا ترى أنه من دون جلد. كنا نستقل السيارة، كانت أمي تقود، وكنت أجلس في المقعد الخلفي، وكان هارتموت يجلس في المقعد المجاور لها، الشمس مشرقة، لم أكن أعرف، إلى أي مكان نذهب، وبعد فترة يلتفت هارتموت إليّ، وينظر لي، كان شكله يبدو عاديًّا، إلا أنه كان قد فقد حواجبه. نهضت من النوم ولم أكن أعرف، هل صرخت في الحلم فقط، كنت ما زلت أرقد في الفراش وكان قلبي يخفق بشدة، وجلست أستمع لأصوات البيت من حولي، التي قد تكشف لي عما إذا كانت جارتي قد سمعت صراخي، أو جاري القاطن في الشقة التي تقع بالأسفل مني. وهل سيطرق أحدهما الباب عليَّ في التو.

كان أسوأ شيء فعلته في نفسي، هو النظر لهارتموت المحترق، وإذا كانت لدي الإمكانية لإعادة الشريط إلى الوراء، لم أكن لأعرف، إلى أي نقطة بالضبط أريد أن أعيده إلى الوراء هل للنقطة التي وجدت فيها والدتي في وحدة الرعاية المركزة، أم إلى تلك النزهة في *شونبوخ*، أم إلى ذلك اليوم الذي وقف فيه هارتموت أمام بابنا للمرة الأولى. لم يكن في مقدوري أن أتحدث لأي شخص، عن تلك الصور. لم أفصح لوالدي قط عن هذا، ولم تبادر أمي ولو لمرة واحدة بالحديث معي، حول ما رأيناه هناك. من المرجح أن تلك الصور كانت تعذبها هي أيضًا. لم أتحدث قط من قبل لأي مخلوق، عن هارتموت المحترق، كما لو كان من الأسهل بالنسبة لي أن أنساه، لو احتفظت بالموضوع بيني وبين نفسي.

***

قبل أن نترك الفندق، جلسنا لفترة قصيرة في غرفة الإفطار، وحصلت على شطيرة بالمربى، في حين احتست أمي فنجانًا من الشاي وهي تتصفح الجريدة، من بدايتها حتى نهايتها، ومن نهايتها إلى بدايتها، ثم طوتها وقالت: *إنهم يخشون ذكره، لا بدَّ أن الأمر كذلك، فهم يخافون من الانتفاضة الشعبية التي ستندلع، ضد السياسة الذرية الكاذبة للحكومة*.

بالطبع لم يكن في استطاعتي تقييم ذلك، إلا أنني استغربت قليلًا، لعدم ذكر حادث هارتموت في الصحيفة، لأنه في ما عدا هذا الحادث، كان كل شيء يذكر في الصحيفة: في حالة إغلاق أحد الشوارع بسبب أعمال الإصلاح، أو أن بقرة قد أنجبت عجلًا أكبر من المعتاد. نظرت إلى أمي وأدركت أنها تبدو مختلفة بطريقة أو بأخرى. على الأرجح أنها فقط مجهدة، ولم تنل قسطًا وافيًا من النوم والراحة. بدا لي، كما لو كانت عيناها غائرتين أكثر من المعتاد في مقلتيها، وبدت أصغر حجمًا وهي جالسة على كرسيها. ربما لم تنم طيلة الليل

وبقيت راقدة فقط.
قلت لها: *لقد كنت أفكر في هارتموت*.
سألتني: *أفكرت في الصحيح أم غير الصحيح؟*.
قلت لها: *في الصحيح*، قلت هذا لأنني كنت أعرف أن هذا سيسر والدتي. *فكرت في رحلتنا إلى *شونبوخ*.
قالت لي: *هذا رائع، يجب أن تعدني أن تفكر دائمًا في الصحيح. أتعدني بهذا؟ *.
قلت لها: *نعم*.
ثم أنزلنا حقائبنا ومتاعنا إلى السيارة، وبدأنا في السير على الأقدام. وبمجرد وصولنا إلى المنعطف التالي، فقدت أمي الاتجاهات، نظرت يمينًا ويسارًا، ثم أعطتني الخريطة وقالت لي: *يجب أن نذهب إلى مركز المؤتمرات، لا بدَّ أنه قريب من هنا. هل تستطيع أن توجهنا إلى هناك؟*.
وجدت الناصية، التي نقف عندها، على الخريطة، وبدأت أبحث بنظام في الأماكن القريبة منا، ووجدت مركز المؤتمرات. لم أكن أعرف، ماذا نريد من هناك، إلا أنني أرشدتها إلى هناك. كان الجو باردًا، وكانت الرياح تهب بقوة في وجهينا، حتى إنني كنت أجد صعوبة في التنفس.
كان هناك رجال شرطة، يقفون أمام المدخل، ويفتشون كل شخص يريد الدخول. أمسكت أمي بيدي، وكان هذا مفاجئًا بالنسبة لي، حيث إنها لم تكن تفعل ذلك سوى في ما ندر. قالت لي أمي إنه بالداخل يجلس الرجل الذي يتحمل ذنب هارتموت، لأنه يمتنع عن قول الحقيقة، ويكذب على الناس. ودون أن تذكر أمي الاسم، استطعت أن أخمن أنها تقصد هيلموت شميدت. كان هناك الكثير من رجال الشرطة، لحمايته. من الواضح أنه كان هناك بعض الناس، يكرهونه. وقبل المدخل استوقفنا أحد رجال الشرطة. وسألنا عن بطاقات الهوية الخاصة بنا. أعطته والدتي بطاقتها، إلا أن ما أعطته إياه لم يكن هو المطلوب، فسألها عن بطاقة هوية أخرى، إلا أنها لم تكن تملك بطاقة أخرى.
قال لها الشرطي: *لا بدَّ أنك سمعت بالخريف الألماني. يجب أن تتفهمي أننا لا نستطيع أن نسمح للجميع بالدخول*. سألت نفسي، ما علاقة الخريف، بمنعنا من دخول القاعة. وهل كان الوضع سيكون مختلفًا إذا ما كنا في الصيف أو الشتاء. وعرفت لاحقًا، أنه كان يقصد الإرهابيين، الذين قاموا بقتل رجل مهم أمام مبنى الحزب خلال تلك الأشهر.
رأيت صورًا لهذا الشخص، الذي كان يحمل لافتة أمام جسده، مكتوبًا عليها، كم مضى من الوقت وهو سجين لدى فصيل الجيش الأحمر الإرهابي. ورأيت كذلك صورًا للطائرة المخطوفة، ولوجوه الإرهابيين، التي كانت موجودة على أحد الملصقات الكبيرة، المعلقة في فرع البنك، الذي ذهبت إليه مع والدي، لإيداع العملات المعدنية بحصالتي. من الواضح أن الناس كانت تخشى هؤلاء الإرهابيين، أكثر من خوفهم من الوفاة بفعل الطاقة النووية.

أمسكت أمي بيدي مرة أخرى، وسحبتني مبتعدة، وسألتني: *هل تعتقد أن هناك أكثر من مدخل؟* تلفت حولي في محاولة إيجاد إجابة، ثم قلت: *لا أدري*.
قالت: *لا أتصور، أنه قد يخرج من هنا*. قمنا بجولة سريعة حول المركز، لنستكشف مخرجًا خلفيًّا، إلا أن كل شيء كان غير واضح. ثم وقفنا مرة أخرى أمام المدخل الرئيس.
قالت أمي: *فلننتظر إذًا فقط*.
سألتها: *ننتظر من؟*.
قالت: *هيلموت شميدت*.
-*وماذا سنفعل، عندما يحضر؟*.
-*سنطلب منه أن يقول الحقيقة. ونسأله، عما إذا كان لا يزال يريد تحمل ذنب أناس آخرين*.
تخيلت، ماذا كان سيحدث، لو قابلنا هيلموت شميدت في هذا اليوم.
في الأغلب كان رجال الشرطة سيقومون بإلقاء القبض على أمي بسرعة. أستطيع أن أراها تكافح بيديها ورجليها لتحرر نفسها من بين أيدي رجال الشرطة، وهي تصيح بصوت عالٍ: *أيها القتلة!* كنت أومن بها. لقد أعربت مرارًا وتكرارًا عن استيائها من هيلموت شميدت، ولم تقل أبدًا كلمة طيبة عنه.
من سخرية القدر أنه نجا من كل من هارتموت وأمي، وأنه هو الذي تم تكريمه لبطولته بعد تقدمه في العمر في هذا البلد. أعتقد أن هيلموت شميدت، قد قام بعمل لم يقم به آخر في الحزب، حيث تبنى الطاقة النووية، وأعلن أمام مؤتمر الحزب في *هامبورج* أنه لا يشعر بالالتزام بأي قرار يُتخذ ضد الطاقة النووية.
بعد ذلك تم اتخاذ قرار في المؤتمر الحزبي، ينص على أن التنازل بشكل أساسي عن استخدام الطاقة النووية، لا يمكن تبنيه حاليًا، وأن خيار الطاقة النووية يجب أن يبقى مفتوحًا. حتى وإن تمتع كل من الحطب، والفحم البني بالأولوية. كان هناك حديث عن الطاقة النووية، على الرغم من أنني كنت أعرف رغم حداثة سني: أن من يتحدث عن الطاقة النووية، يحاول إخفاء مخاطرها عن الناس، ولهذا كان هارتموت أيضًا لا يحب تلك الكلمة. لقد شرح لي هذا، ذات مرة.
الطاقة النووية لها رنين أفضل، على الأقل في آذان الناس القائمين على بناء المفاعلات الذرية. فالنواة تعطي إحساسًا بأنها نواة بندق، أو فاكهة لها نواة، نووية، صحيحة النواة، أي إنها كانت توحي بشيء جيد. إلا أن كلمة الذرة كانت تميل أكثر للإيحاء بالقنبلة الذرية. وهو ما كان يقترب من الحقيقة بشكل كبير. فالطاقة النووية كانت خطيرة مثلها في ذلك مثل القنبلة الذرية، وبالطبع لم تكن صحية مثل الفاكهة. ولهذا كان علينا الحديث عن الطاقة الذرية، وليس النووية.

كان هارتموت قد أشار إلى التلاعب باللغة في العصر الذري، وكانت تلك هي الكلمات التي ذكرها فرانك شيرماخر على لسان هارتموت في مقاله الذي نشره تقديرًا لدوره. لم أحاول ولو لمرة واحدة أن أبذل مجهودًا، وأقرأ مقاله حول *الدعاية للطاقة الذرية* بشيء من الدقة. هذا يدل على أنه على الرغم من كل هذا العناد، إلا أن هارتموت كان يتمتع بعقل واضح ومنظم:
*الذرة - مصطلح رنان، يحاول اللوبي الذري أن يتفاداه، لأنه يثير إشارات غير مرغوب فيها، وإن كانت صحيحة في الواقع مع القنبلة الذرية.
النفايات الذرية: النفايات شيء ثابت *كومة النفايات، تفريغ النفايات*، على الرغم من كونها مزعجة، ولكن -بالنسبة للتصور الشائع- فهي لا خطر منها، يمكن التخلص منها ثم نسيانها.
النفايات الذرية هي أولًا: سائلة.
ثانيًا: شديدة السخونة، تصل درجة حرارتها إلى ٧٠٠ درجة مئوية.
ثالثًا: في حاجة إلى البقاء تحت السيطرة لمئات الآلاف من السنين.
رابعًا: تبقى خلال تلك السنوات مشعة باستمرار. تعتبر النفايات النووية أكثر الأمثلة المعروفة لعملية غسيل المخ.
قضبان الوقود: توحي تقريبًا بأنها مثل الحطب الموجود بالمدفأة.
فجوة الطاقة: هي فجوة، مثل الفجوة الموجودة في السياج، في شرح الأدلة، تحفز الإحساس بالنظام، يجب أن يتم إغلاقها.
تدعو *فجوة الطاقة* إلى: المحافظة على النظام، وسد الفجوة! وغني عن القول، إنه لا يمكن سد تلك الفجوة إلا من خلال الطاقة الذرية.
الأعطال -حلت محل كلمة الحوادث- على الأقل على المستوى اللغوي*.
وأخيرًا وليس آخرًا، يحلل تصريحات أدلى بها مجموعة مختلفة من الأشخاص، مثل تصريحات هيلموت شميدت التي قال فيها: *لا يمكن التخلي عن التوسع في إنتاج الطاقة النووية*.
وحول هذا التصريح كتب هارتموت: *هنا يستخدم المستشار الألماني أولًا: صيغة المبني للمجهول. ثانيًا: اسم الفعل *التوسع*. ثالثًا: الفعل الشرطي *يمكن*.
استخدام المبني للمجهول واسم الفعل، توفر عليه، تحديد شخص بعينه، يؤيد هذا التوسع، ويرفض التغاضي عنه، وباستخدامه الفعل الشرطي، يريد الإشارة إلى أنه ليس هناك حل آخر، سوى إطلاق العنان أمام التوسع في البنوك النووية، والصناعة النووية *دعونا نستمر على هذا النحو، ونوفر على أنفسنا ذكر المسؤولين عنه!*، كما لو كان يجب علينا الاستمرار والتوسع في استخدام الطاقة النووية. بدا الأمر غير مريح، عندما استغل المستشار تلك الفرصة ليوضح: *أنا لست على استعداد *أو: مؤتمر *بيلدربرجر* ليس على استعداد، أو: البنوك النووية ليست على استعداد*، للتخلي عن الطاقة النووية*.
لقد تجنب تمامًا ذكر أي جملة مشابهة في مؤتمر الحزب آنذاك، لقد بذلت

مجهودًا كبيرًا، في فحص محضر الجلسة في ما بعد؛ تحدث *شميدت* طيلة الوقت عن *الطاقة النووية*، وأنه لا يمكن الاستغناء عنها لتغطية احتياجات الطاقة.

***

لم أسمع أنا ولا أمي أي شيء عن خطاب شميدت آنذاك، ولم نتمكن كذلك من مقابلته، ومواجهته. لا أعرف، كم من الوقت انتظرناه أمام القاعة، إلا أنني ما زلت أعرف جيدًا، أنني بدأت في التجمد، على الرغم من أنني لم أنبس ببنت شفة، إلا أن أمي قالت: إنه ليست هناك جدوى من الانتظار. لا أعرف، ما إذا كان هيلموت شميدت قد سمع في هذا اليوم بحادث إحراق هارتموت لنفسه. إلا أن هناك اثنين من المتحدثين، وهما إرهارد إبلر، وفرايموت دوفه، قاما بنعي هارتموت، ولكن دون ذكر اسمه.

وبعد الظهيرة قمنا بجولة مع نحو عشرين شخصًا بوسط مدينة *هامبورج*. وكان من ضمن الموجودين أيضًا روبرت جونك. شرحت لي أمي آنذاك، أنه ألف كتابًا، جمع فيه كل الأكاذيب حول الطاقة الذرية، وأنه يقف في صفنا. توقفنا أمام إحدى الكنائس، وعرفت أنها كانت نفس الكنيسة التي أضرم أمامها هارتموت النيران في نفسه. في ذلك المكان كانت تقف شاحنة صغيرة. تسلق روبرت جونك إلى ظهر الشاحنة وقال، ما كانت أمي تؤكد عليه: إن وفاة *هارتموت* لا بدَّ أن تكون لها تبعات.

كانت هناك لافتة بيضاء معلقة خلفه، مكتوب عليها: *الصناعة الذرية تطلب ضحاياها. تضامنًا مع هارتموت جروندلر*. كانت هناك صورة منه، وصورة من ألسنة اللهب كذلك. قام عدد من المستمعين بإلقاء الكتيبات في كومة، ثم أضرموا فيها النيران. قالت أمي، إنها الكتيبات التي تحمل الأكاذيب حول الصناعة الذرية. وقفنا بعضنا بجوار بعض، نشاهد الكومة المحترقة. ما زلت أذكر، أنني لم أستطع تحويل نظري عنها. حدقت في النار، وتتبعت ألسنة اللهب المتصاعدة، وبقع النار التي تحملها الرياح بعيدًا.

لم يتحدث أحد. كما لو كانت النار تبعث السكينة في النفوس. وفي ظل هذا الصمت المحدق سألت: *هل احترق هارتموت بهذه الطريقة؟* لا أعرف، إن كانت أمي قد سمعتني، ربما تحدثت بصوت منخفض للغاية. لم تقل شيئًا. كانت تقف إلى جواري ببساطة، وتمسك بيدي. حولت نظري عن النار، ونظرت إلى وجه أمي. كانت ألسنة النيران تنعكس في عينيها، وبدا الأمر كما لو كانت عيناها تحترقان.

كان الظلام قد حل، عندما عدنا إلى السيارة. قالت أمي، إنها تريد أن تودع هارتموت. ولهذا ذهبنا مرة أخرى إلى المستشفى. وفي تلك المرة تذكرت، أن آخذ ألبومي معي. وفي الوقت الذي كانت فيه أمي لدى هارتموت بقيت أنا في حجرة الانتظار. إلا أن الأمر لم يستغرق طويلًا. لم أكن قد وصلت إلى *شالكه*، عندما عادت أمي وقالت، إننا سوف نعود إلى المنزل الآن. وسألتها: *وهارتموت؟* قالت: *سيبقى هارتموت هنا*.

وهكذا بدأنا رحلة العودة. لم يكن فقط الظلام قد حل، وإنما كانت هناك أمطار أيضًا. تعجبت لأن أمي قامت بذلك، لأنها كانت تجد صعوبة في القيادة حتى في أثناء النهار. أرشدتها إلى الطريق السريع. اتبعت أمي الحارة اليمنى للطريق، وهكذا سرنا لفترة طويلة، كانت محتضنة عجلة القيادة، واقتربت قدر المستطاع من الزجاج الأمامي للسيارة، كما لو كان هذا سيتيح لها رؤية أفضل. قالت لي: *حاول أن تنام*. إلا أنني لم أستطع النوم، ربما بسبب هارتموت، وربما أيضًا لأنني كنت أصاب بالخوف من السيارة، في أثناء قيادة والدتي.
في تلك الأثناء، أصبح المطر يتساقط بقوة على الزجاج الأمامي، حتى إن الأضواء الخلفية للسيارات التي أمامنا أصبحت غير واضحة، حتى إنني وجدت صعوبة شديدة أنا نفسي، في رؤية أي شيء. أما بالنسبة لأمي، فأعتقد أن تلك الرحلة إلى المنزل، كانت عبارة عن عملية تعذيب طويلة، امتدت لسبعمئة كيلومتر، تحت المطر وفي الظلام. قالت مرة أخرى: *يجب أن تنام فعلًا*، وفي وقت ما، رقدت على الكنبة الخلفية، كما كنت أفعل كثيرًا، عندما كان يتولى والدي القيادة، إلا أنني لم أكن قد فعلت هذا من قبل، في أثناء جلوس والدتي خلف عجلة القيادة. الغريب في الأمر أنني قد استغرقت في النوم بالفعل، ولم أستفق إلا قبل وصولنا لـ*توبينجن* بمسافة قصيرة.

***

كانت أمي تحتفظ بزجاجة من النبيذ الرخيص في الثلاجة، أعتقد أنها بقيت في مكانها لسنوات طويلة. من قبل حادث *فوكوشيما* بفترة طويلة، استغربت من وجودها، لأن أمي لم تكن تحتسي الخمر في العادة. سألتها: *هل لديك شيء يدعو إلى الاحتفال؟* فقالت، إنها فقط تريد أن تكون مستعدة. فسألتها: *مستعدة لماذا؟* فردت قائلة: *لليوم، الذي يكون فيه كل شيء منطقيًّا*.
بدا أن والدتي كانت تعتقد أن هذا اليوم سيأتي حتمًا. هذا اليوم، الذي يقع فيه أمر غير متوقع. على الرغم من أن هذا ليس صحيحًا تمامًا، إلا أنه صحيح: قد يحدث شيء متوقع، يعطي تفسيرًا منطقيًّا لكل شيء. يجب أن يكون شيئًا أكبر بكثير من مجرد كارثة. فتلك الكارثة عايشناها بالفعل: في *تشيرنوبل*. وللمرة الثانية كانت في *فوكوشيما*.
يجب أن الثالثة ستأتي قريبًا، والرابعة أيضًا، كان الموضوع مجرد مسألة وقت، وقد يكون اليوم الذي سيكون فيه كل شيء منطقيًّا، هو اليوم الذي قررت فيه الحكومة المكونة من الحمر والخضر التخلص التدريجي من الطاقة الذرية.
لكن لا يمكن الاعتماد على السياسة، كانت أمي قد أدركت ذلك بالفعل آنذاك، فبعد عشر سنوات من الاتفاق على التخلص التدريجي من الطاقة الذرية، تم الرجوع في هذا الاتفاق.
يبدو أن هذا اليوم، الذي سيصبح فيه كل شيء منطقيًّا، لا بدَّ أنه مرتبط بهارتموت، ففي النهاية كانت كل حياتها مرتبطة بهارتموت. في النهاية، هل كانت هذه المقالات الثلاثة موجودة في الصحف الدولية؟ جعلتني تلك الفكرة

أشعر بالحنق الشديد.
حدقت في المقال الذي علقته على الحائط فوق مكتبي، والذي كان منشورًا في جريدة *دي تسايت*. دائمًا ما أتعثر في نفس الجملة. كان مكتوبًا: *لم يمت جروندلر من اليأس، كان عملًا محسوبًا بكل دقة، يدل على الشجاعة والتصميم. كان واعيًا، بما سيقع عليه من الذنب*. كانت تلك الجملة مقتبسة من أمي. فقد قام الصحفي على الأرجح بالاتصال بها، ومناقشتها.
وقد تم ذكرها في ذلك المقال كشاهدة على العصر، ومشاركة في المعارضة مع جروندلر. فيم كان يعنيها هذا الأمر؟ هل كان مجرد الظهور في الجريدة؟ كلا، لم تكن أمي ترى الأمر بهذه الطريقة. لم تكن لديها أي رغبة في الاعتراف بالأمر، على الرغم من غرابة هذا. لم تكن تهتم بنفسها في المقام الأول، وفي الواقع لم تهتم بهذا نهائيًّا. من المرجح أن والدتي كانت أكثر الناس إيثارًا على وجه الأرض.
لا أستطيع تخطي تلك الجملة، تلك الجملة التي تدور حول الإحساس بالذنب، لأن هذه كانت المرة الأولى، التي تحدثت فيها أمي، عن ذنب هارتموت. لقد جعل نفسه مذنبًا، ولكن تجاه من؟ هل كان مذنبًا لأنه تخلى عن الناس التي طالما وقفت إلى جواره؟ وكان أولهم أمي؟ أم كان مذنبًا، لأنه كسر مذهبه المعادي للعنف، بأن أتى بفعل عنيف تجاه نفسه؟ لم يُذكر أي إقرار بالاعتراف بالذنب، في خطاب الوداع الذي أرسله هارتموت. لقد كتب عن الحاجة، وكتب عن عدم اهتمامه بنا، إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة، أنه يرى نفسه مذنبًا.
ولكن عندما يتم نقل الكلام على لسان أمي، أن هارتموت أحرق نفسه للدرجة التي تجعل منه مذنبًا، فهل هذا يعني، أنهما تحدثا حول هذا الأمر؟ وإن كانا قد تحدثا حول هذا الأمر، فإن هذا يعني: أن أمي كانت تعرف بنيته في إحراق نفسه؟ هل هذا ممكن؟ هذا يعني بالتالي، أنها كان عليها أن تحيا بشعور، أنها لم تستطع أن تثنيه عن الإتيان بفعلته. هل اختارت لهذا السبب، اليوم الذي تم فيه نشر هذا المقال، للاحتفال؟ هل احتفلت بدافع الارتياح من أن *هارتموت* لا يزال يجد طريقه إلى وعي الناس، وأن وفاته لم تذهب هباءً؟ بعد كل شيء، كان هذا من شأنه أن يعطي أمي مبررًا لعدم منعه من القيام بذلك. إذا كانت هذه هي الحال بالفعل.
***
توفي هارتموت بعد أربعة أيام من زيارتنا له، في يوم الحادي والعشرين من نوفمبر عام ١٩٧٧. وتم نقل نعشه إلى *توبنجن*، حيث قضى معظم أوقات حياته. كانت تلك هي جولة وداعه: مرورًا بـ *جورليبن*، *بريمين*، *هانوفر*، *جوتنجن*، *كاسل*، *ماربورج*، *بون*، *فرانكفورت*، *دارمشتادت*، *هايدلبرج*، وأخيرًا *شتوتجارت*. في كل الأماكن، التي كان له فيها أصدقاء، ومؤيدون؛ حتى يكون بإمكانهم توديعه.
كيف تم هذا على وجه الدقة، هذا ما لا أعرفه حتى اليوم. عندما قصت عليَّ

أمي آنذاك، قصة الرحلة الأخيرة لهارتموت، تخيلت كيف أن السيارة الحاملة للنعش كانت تتجول داخل شوارع وسط تلك المدن، وربما كانت تصدر جرسًا أو سارينة، مثلما تفعل سيارة بيع المثلجات التي كانت تمر بشارعنا بين الحين والآخر في فترة الصيف. ربما أبقت العربة التي تحمل النعش ظهرها مفتوحًا وهي تمر بالسوق.
سألت نفسي، هل سيقوم الحانوتي بفتح النعش، إلا أن هذا سيجعل الناس يرون هارتموت غير الصحيح، هارتموت الذي لا جلد له ولا شعر، وهذا ما كان لا يمكنني حتى تخيله.
كان عليَّ أن أفكر في تماثيل الشمع، التي رأيتها قبل عام في متحف *مدام توسو*، عندما كنت في رحلة لبضعة أيام في لندن مع والدي. لم تكن أمي معنا، لأنها كان عليها المشاركة في اجتماع شعبي. فكرت وقتها، إذا ما كان علينا أن نصنع لهارتموت الصحيح تمثالًا من الشمع، حتى يتذكره الناس في هيئته الصحيحة، إلا أنني لم أستطع تخيل أن يقف هارتموت بين إلفيس، وفريق *البيتلز*، و*بيليه*.
إلا أن رحلة الوداع تلك لم تتم. على الرغم من أنه قد تم الاتفاق مع الحانوتي على كل شيء. إلا أنه تلقى اتصالًا من شخص يعمل بوزارة الداخلية وقام بتهديده: إذا ما قام بفعل هذا، فسوف يتم إلغاء ترخيصه. وكان الأمر واضحًا بالنسبة لأمي: كانت هناك محاولة، للتعتيم على وفاة هارتموت قدر الإمكان. فبعض الصحف لم تقم بذكره على الإطلاق، أما الصحف التي ذكرته، فكان هذا من خلال خبر مقتضب، مكون من بضعة أسطر قليلة. وكان الهدف الوحيد من وراء هذا، هو منع الانتفاضة الشعبية، ولهذا، وقد كانت أمي واثقة من ذلك، فقد تم منع رحلته الأخيرة.
تم دفن هارتموت في مقابر الجبل بـ*توبنجن*. وقد بقيت بالمنزل، لأن والدي لم يرد أن أكون موجودًا. أعتقد أنه كان يريد حمايتي. لم يعلم بأنني قد رأيت هارتموت في المستشفى. لقد حكيت له فقط عن حجرة الانتظار. أعتقد أن والدتي قد استاءت من والدي، لأنه منعني من وداع هارتموت الوداع الأخير.
في صباح يوم الدفن، كنا نجلس أنا ووالدي سويًّا بالمطبخ، ونتناقش حول المبارة ضد *كولونيا*، والتي خسر فيها فريق *شتوتجارت* ٢:١، والتي لم أتمكن من رؤيتها، لأن أمي قررت، أننا لا نستطيع مشاهدة أي مبارة وأن نتفاعل معها، بينما يصارع هارتموت الموت.
لم يبد على والدي أي تفهم لهذا الأمر. لم يكن الأمر مختلفًا كذلك في هذا الصباح، الذي أمرتني فيه والدتي -التي كانت تتشح بالسواد التام- بأن أرتدي البنطال الأسود والقميص الأسود، اللذين قامت بتجهيزهما لي، بعد أن أنهي إفطاري، وهنا نظر إليَّ والدي وقال: *الولد لن يفعل أي شيء*. ما زلت أرى هذا المشهد أمام عيني، وكذلك أتذكر المشاجرة التي تلت ذلك حرفيًّا تقريبًا. قالت أمي: *لقد عاش هارتموت لدينا لمدة عامين، ومن حق الولد أن يودعه. أنت تريد فقط أن تمنعه، لأن لديك مشكلة شخصية مع هارتموت*.

قال أبي: *الولد لا يزال في العاشرة من عمره، ويكفيه ما فعله به هذا الجروندلر، بعد أن عاش عامين بهذا البيت. لم يهتم بما قد يحدث للصبي، ولا بك أنت. يقوم بإشعال النار بنفسه، هذا الرجل المجنون، ولا يفكر ولو للحظة واحدة، في ما يفعله بطفل في العاشرة من عمره. والآن يكون على الصبي أيضًا أن يحضر عملية الدفن، ويقوم بوداع هذا الرجل. لن يحدث هذا أبدًا*.
أمي: *أنت تعرف، أنه كان يحب هارتموت، وأن هارتموت أيضًا كان يحبه. وأن هارتموت ليس منتحرًا، وأنه لم يكن ليشعل النار في نفسه، إذا كان هناك سبيل آخر. تمثل المفاعلات النووية تهديدًا بالنسبة لنا جميعًا. أتريد أن يعيش ابنك ويكبر في عالم مهدد يوميًّا بكارثة نووية؟*.
أبي: *الأمر كله مجرد عملية تخويف، فالمفاعلات النووية آمنة تمامًا، حتى إنها قادرة على تحمل تحطم طائرة، هذه حقيقة يعرفها السواد الأعظم من الناس. إلا أن جروندلر هذا كان يعتقد، أنه يعرف أكثر من الآخرين، ألا تعتقدين أنه متعجرف؟*.
نأيت بنفسي عن هذا الحوار. كنت أتناول طعامي على المائدة، وأتطلع إلى الصور في صفحة الرياضة من الجريدة.
ردت عليه أمي قائلة: *هناك دائمًا أناس يسبقون التطور بخطوة، أما الغالبية العظمى فهم من ضيقي الأفق والسطحيين. إلا أن حجم وحكمة هارتموت لن يعرفه أمثالك إلا في ما بعد. ووقتها سيتم تسمية شوارع وميادين باسمه*.
أبي: *نعم، وسوف يكون هناك اليوم الوطني لذكرى جروندلر، كلا بل سيكون يومًا عالميًّا. مارتا، لا أعتقد أنك بحق جادة في هذا!*.
أمي: *الأمر متعلق بحياتنا، وكذلك بحياة ابنك. أليس هذا سببًا كافيًا لأن أومن بهذا فعلًا، إذًا فلتذكر لي سببًا آخر، وأرجو ألا يكون كرة القدم..*.
هز أبي رأسه ساخرًا، وزفر الهواء.
ثم خطرت لوالدتي فكرة مجنونة. وقالت: *دع الولد يختار بنفسه، إن كان يريد حضور مراسم الدفن أم لا*. أصابني الذهول، إلا أنني لم أبدِ أي ردة فعل. كنت أعلم أنه أيًّا كان قراري، فإنه لن يمر بسلام. فلم يكن هناك سوى خيار واحد، وهو ألا أقرر. وتصنعت كما لو كنت لم أسمعهم، وحدقت في الصور التي أمامي، وكتمت أنفاسي في تلك الأثناء.
ساد الهدوء فجأة على المائدة، وشعرت، أن الاثنين ينظران إليّ، إلا أنني لم أبدِ أي ردة فعل مطلقًا، مما جعلهم يشكون في كوني سمعتهم أم لا. هذا هو الشيء الجيد بالنسبة للأذنين، بعكس العيون، لا أحد يستطيع أن يرى إن كنت قد سمعت شيئًا. كان أبواي معتادين على أنني كثيرًا ما أسرح، ووجدت في هذا فرصة، أن أكسب بعض الوقت، وبهذا لا أقع تحت ضغط اتخاذ القرار، لأنني كنت عادة ما أعتمد، على أن يأتي والدي لنجدتي، إذا ما انتظرت بالقدر الكافي.
هذا ليس قرارًا يستطيع أن يتخذه هانو، فالصبي لا يزال في العاشرة، إن كنتِ قد نسيتِ ذلك. سيبقى هنا. لا مجال للنقاش.

وبهذا، لم يصلني من جنازة هارتموت سوى الصورة التي ظهرت في اليوم التالي في صحيفة *توبنجر أنتسايجر*، وقد احتفظت والدتي بالمقال: نعش محمول على عربة ذات عجلات، تشبه عربة اليد ولكن للبالغين، وكان يجرها أربعة رجال. وإلى جانبهم كان يجري حاملو النعش، ومن خلف العربة كانت هناك كمية هائلة من البشر. بحثت عن أمي بين تلك الجموع، ووجدتها في الصف الثاني. كانت تنظر إلى الأرض، كانت تبدو وحيدة، على الرغم من أنها كانت محاطة بالكثير من الناس، وكان المقال منشورًا تحت عنوان *سقراط من عصرنا*.
وكان مكتوبًا أن ثلاثمئة من *حماة البيئة* قد أتوا لحضور الجنازة، بخلاف ممثلين عدة من الحقلين السياسي والعلمي. كما كان مكتوبًا أن هناك رجلًا يدعى فولفجانج فيتلاوفر قال: إن التحول النووي للحزب الديمقراطي الحر، واجتماع اتحاد النقابات العمالية الذي كان أشبه *بالاحتفالية الرياضية* والذي ضم ما يقرب من أربعين ألف شخص، والذي أقيم في *دورتموند*، كانا مسؤولين عن أن يصبح هارتموت رمزًا ناريًّا لـ*هامبورج*. وتحدث آخر عن منزل هارتموت الكائن في شارع *أوستربرج*، وفرشه المتواضع، ورائحة حبر الطباعة التي تلف المكان، منزل شخص كرس حياته منذ عام ١٩٧٠ لحماية البيئة. كان شديد الشبه بسقراط في حبه للحقيقة، ومات من أجل عقيدته هذه. وحكت لي أمي في اليوم التالي للجنازة، أنه لم يحضر الجنازة ثلاثمئة فقط، بل كانوا ألفًا. وكان مثبتًا على نعش هارتموت عن طريق المسامير، كتاب لـ*هيلموت شميدت*، فقد كانت تلك هي وصيته الأخيرة.
كان الكتاب يحمل عنوان *مسيحي في سدة الحكم السياسي*، وكان يدور حول أن شميدت كان يطالب كل منا برفع صوته عاليًا، عندما يشعر بانتشار الظلم، وأن يتصرف، عندما يحاول الحكام خرق القانون. وحكت لي أمي أيضًا عن سيدة قابلتها، وكانت متأكدة، من أنهم قد استخرجوا مخ هارتموت في معهد الطب الشرعي.
فقد قاموا بتفريغ رأسه، وأطعموا الحيوانات من مخه، حتى لا يمكن لأفكاره أن تستمر في الانتشار بعد وفاته. أدى هذا إلى أنني قمت بالتخلي عن أكل اللحم طواعية لعدة أسابيع، حتى إنني لم أرد تناول النقانق كما كنت معتادًا بعد مباريات كرة القدم. وبالطبع لاحظ أبي هذا التغيير، وكان متأكدًا من أن هناك شيئًا غير طبيعي وراء ذلك، وحاول كثيرًا معرفة ما الخطب، حتى حكيت له عن خوفي، من أن يكون جزء من مخ *هارتموت* بداخل تلك النقانق. لم يعلق أبي على هذا الموضوع، إلا أنني في صباح اليوم التالي عندما جلست إلى أمي في أثناء تناولنا طعام الإفطار، ونظرت لها، شعرت أنه كان من الأفضل أن أبقي فمي مغلقًا. ظلت تحملق فيّ وهي صامتة، وتتنفس بعمق، شهيقًا وزفيرًا، وعرفت أن الوقت قد حان مرة أخرى، لأعتذر لها.
في يوم الجنازة، أقامت جدتي الصلاة في منزلها. جلسنا إلى المنضدة.
أوقدت شمعة وقرأت *الصلاة الكهنوتية العليا* من إنجيل *يوحنا*، وفي النهاية

قالت كلمة ذكرت فيها أن هارتموت قد رحل بالفعل عن الدنيا، إلا أن حياته ستستمر في العالم الآخر. وأن ما حدث ربما كان هو الخير لنا جميعًا. فهو على الأقل يعيش الآن في مكان، تثمر فيه الأشجار اثنتي عشرة مرة في العام، مرة كل شهر، حيث لا توجد ليالٍ، وحيث لن يحتاج لا لضوء المصباح الكهربائي ولا لضوء الشمس، لأن الله الرب سيشمله بنوره. وسيتحول الكثير من الجبناء والكذابين إلى بحيرة من الكبريت المحترق.
وهنا سألت نفسي مرة أخرى، ألم يكن هارتموت غير صادق، كما سألت نفسي هذا السؤال من قبل في الليلة التي تلت زيارتنا له في المستشفى، أما الجديد فكان أنه جبان. أمن الممكن أن يكون هارتموت جبانًا أم كاذبًا؟ وأنه أشعل النار بنفسه، لأنه كان يحب أن يفعلها هو بنفسه، بدلًا عن أن يزج به الآخرون في بحيرة الكبريت المشتعل؟ وكنت قد عبرت عن تلك الفكرة مرة واحدة، بعد عدة أيام من وفاة هارتموت، في أثناء تناول طعام الإفطار. بالتأكيد كان هذا أثناء عطلة نهاية الأسبوع، لأن والدي كان يجلس معنا على المائدة. كان يقرأ الجريدة، بينما كانت أمي تنظر من النافذة، عندما قلت: *ربما أشعل هارتموت النيران في نفسه، لأنه كان كاذبًا*. استدارت أمي لي فجأة، على الرغم من أنها كانت تبدو غارقة في أفكار بعيدة. فغرت فاها، كما لو كانت قد صدمت. وأبعد والدي الجريدة عن مجال نظره، وطواها بلطف ونظر إلى أمي بترقب شديد. وبدا، كما لو كان على أمي أن تستجمع نفسها أولًا، قبل أن ترد. ثم سألتني: *من يقول شيئًا كهذا؟*.
-*قالت جدتي إن الكذابين يتم إحراقهم*.
-*متى قالت هذا؟*.
-*عندما كنتِ في الجنازة*.
-*ماذا فعلتم آنذاك؟*.
-*أوقدنا شمعة*.
-*ثم ماذا؟*.
-*ثم قالت جدتي إن هارتموت لا يزال حيًّا*.
ربتت أمي على خدي بيدها اليمنى بلطف.
وقالت: *لقد مات هارتموت، وهو لم يكن كاذبًا. لقد كان ضد الكذب. فهو لم يقتل نفسه، لأنه كذب، بل لأن الآخرين قد كذبوا. حتى إن هذا هو ما كُتب على قبره: *حياة من أجل الحقيقة، وموت ضد الكذب*. ربما كان هارتموت هو الشخص الوحيد الذي لم يكذب أبدًا*.
وعند تلك النقطة تدخل أبي في الحوار وشرح لي، أن أمي ترى في جروندلر هذا قديسًا، وهي تربط هذا بالراغبين في تحسين العالم، الذي أحاط هارتموت نفسه بهم. مثل يونجور. هنا يمكن للمرء بسهولة أن يحصل على انطباع، أن جروندلر ما هو إلا يسوع آخر، ضحى بنفسه من أجل الإنسانية. إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في أن الناس تتذكر *يسوع* حتى بعد ألفي عام، إلا أنه لا أحد يتحدث عن جروندلر هذا بعد مرور بضعة أيام فقط من وفاته. وقال لي، إنه

يمكنني أن أجرب أن أسير في الشارع وأسأل، من هو هارتموت جروندلر ومن يكون يسوع.
تناول فنجان القهوة، وفي منتصف الطريق إلى شفتيه توقف، وقال: *عليك أن تعي هذا جيدًا: لا تثق بأي شخص، يزعم أنه لا يكذب مطلقًا*.
وعلى الرغم من أنه كان ينظر إليّ، إلا أنه بدا لي أنه كان يراقب أمي من زاوية عينيه.
***
لا تثق بأي شخص، يزعم أنه لا يكذب مطلقًا.
كانت تلك إحدى الجمل، التي بقيت في وجداني طيلة حياتي، وهنا أجد المفارقة الساخرة، أن موت هارتموت كرهًا في الكذب، قد أيقظ بداخلي الشك في الحقيقة. لم يكن الأمر بالضبط، أنني شعرت أنه من واجبي، أن أقول الحقيقة دائمًا. فقد كان الكذب في بعض المواقف أسهل بكثير. ولكي أكون صادقًا، فقد كان الكذب يقي من خطر الوقوع في ورطة. أي صبي يريد أن يقع في ورطة؟ وبالطبع استمررت في الإجابة، حينما كانت تسألني أمي، إن كان أبي قد أعطاني بعض الحلوى، بـ*كلا*، وكذلك كنت أفعل حينما يسألني والدي إذا كنت أساعد أمي في الأمور التي تتعلق بإنقاذ العالم. مات هارتموت، الرجل الذي عاش من أجل الحقيقة، مات وهو يحارب الكذب.
وقال والدي إنه لا ينبغي أن نثق في رجل كهذا. أعلم اليوم أنه كان لا يقصد الكذب أو الحقيقة. كان يشعر بالقلق مع الشخص العقائدي. أراد والدي أن يحميني من الناس الذين رأوا أن طريقة حياتهم وتفكيرهم هي الطريقة الصحيحة الوحيدة، والذين كانوا يتفاعلون بعدم فهم أو احتقار تجاه أولئك الذين عاشوا أو فكروا بطريقة مختلفة عن طريقتهم. ما زلت أتجنب كل شكل من أشكال الصرامة. إلا أن هذا الأمر لم يكن سهلًا بالمرة، خاصة أنه يتعلق بالأم نفسها. إلا أن رؤية هؤلاء الناس كضحايا، حتى وإن لم يسمحوا هم بذلك أبدًا.
وبالنسبة لأمي كانت مسألة تعايشها مع وفاة هارتموت أصعب كثيرًا مما كانت عليه الحال بالنسبة لي. أعتقد أنها حاولت أن تتغلب على أحزانها، بأن تتبع نفس مبدأ الصرامة لتستكمل رحلة كفاحها. تلك الأحزان التي لاحظت منها في عدد قليل من المرات، بعض الدموع المكبوتة، وذكرى احترقت بداخلي.
وبعد الجنازة بعدة أيام حضر رجل لزيارتنا، كان ينتمي أيضًا لرابطة حماة الحياة، وكنت أعرفه من بعض الاجتماعات التي حضرتها من قبل. وجلس الرجل إلى أمي في المطبخ، وكانا يتحدثان حول هيلموت شميدت، الذي كان في نظرها مسؤولًا عن وفاة هارتموت.
وقال الصديق إن عناد هيلموت دفع هارتموت إلى الموت. وفي تلك الأثناء كنت جالسًا على الطاولة، وشربت كوبًا من العصير، وقرضت جزرة. وسألت نفسي، لماذا لم يزج بهيلموت شميدت إلى السجن، إن كان بالفعل مسؤولًا عن وفاة هارتموت. توقفا عن الحديث، وأخذ الصديق نفسًا عميقًا، قبل أن

يقول: *هكذا هي الحال في هذا البلد. يُسمح للشخصيات الكبيرة الـ *Bonzen* بالكذب، وبناء محطات الطاقة الذرية، وتعريض حياة الملايين من الناس للخطر، دون التعرض للعقاب*. اندهشت من كلمة *الشخصيات الكبيرة* *Bonzen* التي لم أكن قد سمعتها من قبل. لم أكن أعرف ماذا تعني تلك الكلمة، ومن يقصد بها. لم تكن تشبه أي من الكلمات الأخرى، باستثناء اسم كلب الجيران من نوع الدودج، والذي يقوم باصطحابه أحد الصبية بين الحين والآخر للتمشية بالخارج، وكنت لا أحب هذا الصبي، لأنه كان يقوم باستعراض قوته، عندما يصطحب الدودج مربوطًا في مقوده، وكان يقول في كل مرة يقابلني فيها: *انتبه، فـ*بونزو* لم يتناول إفطاره بعد*.
هل من الممكن أن تكون كلمة *Bonzen* هي جمع لاسم بونزو؟ بونزو واحد، وبونزن كثيرون؟ ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فهو لا معنى له في هذا السياق.
فالكلاب من نوع *الدودج* قد تعرض الناس للخطر، ولكنها لا تستطيع إقامة المفاعلات الذرية، كما أنني كنت أشك أيضًا، في أنهم في وضع يسمح لهم بالكذب، إلا أنه اتضح لي في السنوات التالية، عندما كانت تستخدم تلك الكلمة بكثرة، أن كلمة *Bonzen* المذكورة بالأعلى، كانت يقصد بها الأغنياء وذوو السطوة.
علمت أن هارتموت قد قام برفع دعوى قضائية أمام المحكمة العليا، لإجبار هيلموت على قول الحقيقة. إلا أن المحكمة رفضت النظر في الدعوى. كما علمت لاحقًا، أنه قدم أيضًا شكوى إلى المدعي العام الفيدرالي بشأن الإبادة الجماعية. وكانت أيضًا عديمة الجدوى. عندما أراد الصديق أن يغادر، رافقته والدتي إلى الباب، حيث -ورأيت ذلك فقط لأنني أردت إخراج دفتر الواجب المنزلي من الحقيبة التي كانت موضوعة بالردهة- احتضنها وضم رأسها إلى كتفه، كما لو كان من الواجب عليه تعزية والدتي وتصبيرها.

***

كانت فكرتي، ألا أغادر *فرايبورج* متوجهًا إلى *برلين* مباشرة. كانت *توبنجن* تقع على الطريق تقريبًا. ولم أكن قد ذهبت إلى هناك منذ سنوات طويلة. فبعد أن قمنا ببيع الشركة والمنزل، لم يكن هناك سبب منطقي من وجهة نظري، للذهاب إلى هناك. فباستثناء باول، كنت قد نسيت معظم الأصدقاء الآخرين في خلال العام الأول من رحيلنا عن البلدة. وبقي اتصالي بباول وثيقًا على مر السنين. وفي أثناء تناولنا وجبة الإفطار، أخبرت أمي برغبتي في زيارة منزلنا القديم، ولاحظت على الفور رد فعلها الحذر، وشعرت بعدم رغبتها في ذلك، فأضفت أننا يمكننا أيضًا زيارة قبر هارتموت.
كلما اقتربنا من *توبنجن*، ازداد صمتنا. لم أكن أعرف، ماذا يدور في رأس أمي، أما أنا فقد كانت الكثير من الأحداث تمر أمام عينيّ: المنزل، الحديقة، حوض الخضراوات، الذي كثيرًا ما كانت تطير الكرة بداخله، لأن المرمى الذي أقمناه أنا ووالدي كان يقع أمامه مباشرة. رأيت حجرتي، ومكتبي القابع أمام

النافذة، كرسي المكتب الأصفر الليموني. السجادة ذات الشعر الكثيف، الموضوعة أمام سريري، والتي كان لها نفس مفعول المكنسة الكهربائية، حيث كانت تخفي بداخلها كل فتات الخبز المتساقط. ورأيتنا في هذا المنزل، ونحن جالسون ثلاثتنا في المطبخ، نتناول طعام العشاء، أو ونحن جالسون يوم السبت ليلًا أمام التلفاز، وأنا جالس على الأريكة إلى جوار والدتي، متلحفًا بغطاء سريري، إلا أنني لم أر هارتموت، كما لو كان لم يكن موجود أبدًا في منزلنا.

كان شارع *كيبلر* يرتفع إلى الأعلى، مما كان يمثل مشكلة لأمي آنذاك، لأنها كانت تضطر إلى تقليل السرعة، قبل أن تدخل في الممر الخاص بنا، ولا تستطيع أن تدخل بنفس العزم.

كان من الممكن سماع صوت الموتور وأنت جالس في غرفة المعيشة، مما كان يتيح لي فرصة إيقاف التلفاز في الوقت المناسب.

أوقفت السيارة أمام المنزل. ومن النظرة الأولى لم يكن أي شيء قد تغير على الرغم من مرور كل تلك السنوات. بعد وفاة والدي قمنا في البداية بتأجير منزلنا، ثم قمنا ببيعه لأحد كبار أطباء المستشفى الجامعي، كان متزوجًا وله طفلان؛ لا أعرف إن كان لا يزال يعيش هناك. كان يبدو أنه لا أحد موجود بالمنزل. لم ترغب والدتي حتى في الخروج من السيارة.

مشيت عبر حديقة الفناء الأمامي الصغير، ومررت بالجراج خلف المنزل. كانت الشجرتان لا تزالان هناك، وكان هناك ترامبولين، ومسبح صغير قابل للنفخ في الحديقة. من الواضح أنه قد انتقلت أسرة أخرى للعيش في المنزل، أسرة لها أطفال صغار. لا أعرف لماذا خطر هذا ببالي الآن، ولكنني تذكرت فجأة الخنفساء المنقطة الصغيرة، التي تركتها ذات مرة تسقط من النافذة. كانت مصنوعة من عجينة اللوز وعمرها ست سنوات، كانت نقاطها الموجودة على أجنحتها تشي بذلك. كان هارتموت قد أهداني إياها، قبل وقت قليل من طرد أبي له من المنزل.

جاء إلى منزلنا للمرة الأخيرة وأعطاني علبة سمن *مارجرين*، لم أكن أعرف في البداية ماذا أفعل بها. ثم رأيت أنه قد قام بوضع بعض العشب بداخلها، ووضع تلك الخنفساء فوق هذا العشب. أعتقد، أن والدتي كانت سعيدة بأنه فكر بي.

أعطاها مفتاح شقته، ثم تابعناه وهو يقطع شارع *كيبلر* بسيارته القديمة من طراز *الخنفساء*. ظلت علبة السمن *المارجرين* هذه موضوعة على حافة النافذة لفترة، حتى خطرت لي فكرة أن أطلق الخنفساء لتصبح حرة، وهذا لأنني كنت لا أحب عجينة اللوز. أخرجتها من عشها، ووضعتها فوق راحة يدي، ووضعت يدي بالخارج. قمت بالعد حتى ثلاثة، ولكنها لم تطر. ثم أدرت يدي، وسقطت فوق العشب في الحديقة. الغريب في الأمر، هو أنني ذهبت لأبحث عنها في نفس المكان بعد مرور يوم واحد فقط، إلا أنني لم أجدها. بحثت عنها بكل دقة، حتى إنني جثوت على ركبتي، وأزحت تقريبًا كل العشب الموجود

هناك. إلا أن الخنفساء ظلت مختفية. بالطبع، من الممكن أن تكون والدتي قد عثرت عليها وأنقذتها ووضعتها في غرفتها، أو وجدتها القطة الضالة أو والدي اللذان كانا سيأكلانها على الفور. ولكنني في ذلك الوقت، لم أستبعد أنه صعد ببساطة إلى السماء، مثلما فعل *يسوع*.
في طريق العودة إلى السيارة، لم أستطع أن أمنع نفسي من إلقاء نظرة على شقة الطابق السفلي. اضطررت إلى الانحناء. كان من الواضح، أنها كانت تستخدم في تلك الأثناء كقبو للهوايات. في منتصف الغرفة كانت هناك لوحة كبيرة مع نموذج قطار. شخص ما قام بتصميم نموذج للمناظر الطبيعية الممزوجة بالكثير من العاطفة، وقام بتشييد الجبال والأنفاق والجسور، وفي محطة القطار الأمامية كانت هناك مجسمات لأشخاص بالحجم الصغير، يحملون الحقائب، وأحد تلك الشخصيات كان لديه كلب مربوط بمقود.
لا أعرف، ما توقعته: هل أن يكون ذلك الأثاث القديم موجودًا بالغرفة من وقتها؟ بعد وفاة والدي حملنا معنا بعض الأشياء البسيطة فقط، كتبًا وصورًا، كنبة النوم الخاصة بوالدتي، الأطباق، المسجل. حصلت أنا على النظام الصوتي الخاص بوالدي، وقمنا بتصفية باقي الأشياء وجاء من ينقلها. بطريقة أو بأخرى كان من المناسب أن يتحول المكان الذي عاش فيه *هارتموت* ذات مرة، إلى عالم نموذجي. منظر هادئ مكون من الجبال والمناظر الطبيعية الخضراء، عالم مثالي.
في تلك الأثناء كانت والدتي قد خرجت من السيارة، وكانت تقف على الرصيف وتنظر إلى المنزل. كانت تريد أن تعرف ما رأيته في قبو المنزل. وقلت لها: *هناك نموذج لقطار الآن*.
***
ترك *هارتموت* الأشخاص القلائل الذين وثقوا به وحيدين. كانت والدتي هي الوحيدة من أعضاء الرابطة، التي لم تكن مقتنعة بوجهة النظر تلك، بل على العكس، كانت تقاومها بشدة. أستطيع أن أتذكر الاجتماع الأخير للرابطة، والذي تم بعد بضعة أسابيع فقط من جنازة هارتموت. كان كل الجالسين حول المائدة قد أصيبوا بخيبة الأمل من هارتموت. كانت زابينه أول من قال: *لا أعرف، ما الذي كان يسعى إليه هارتموت من وراء فعلته تلك. تبدو لي وفاته ليست ذات جدوى، أعتقد أنه كان يستطيع القيام بأشياء أهم كثيرًا لو كان حيًّا. كان سيستطيع أن يستمر في معركته، بل إنه كان من الواجب عليه أن يستمر فيها. حتى وإن كنت لا أحب قول هذا، إلا أنني أشعر، بأنه قد خذلنا جميعًا*.
صمتت أمي. كما صمتُ كذلك، بعدما قالت أولريكا، إنها كانت شديدة الإعجاب بالنتيجة، التي بدأ بها هارتموت تلك المسألة، وأنه يسبقهم جميعًا، ثم صححت لنفسها وقالت، كان يسبقهم جميعًا. إلا أن هذا الإعجاب كان ممزوجًا أيضًا بعدم التفهم. ثم قالت، إنها تسأل نفسها، عما إذا كان فكر فيها هي أيضًا، هل فكر فيهم جميعًا، جميع الجالسين ها هنا، والذين بقوا الآن من دونه.
وقال بيتر: *بالنسبة لي فتلك هي النهاية. لا أستطيع الاستمرار في الانتماء

إلى رابطة تطلق على نفسها رابطة *حماة الحياة*، ولم يقم مؤسسها بحماية حياته هو شخصيًّا، وإنما على العكس قام تجاهها بأبشع صور العنف. ومن سخرية القدر، أنه كان رجلًا طالما دعا إلى عدم العنف. يجب عليَّ أن أقولها الآن وبكل وضوح للأسف، إن هارتموت قد تجاهل مبادئه الراسخة. وبهذا يكون قد أساء إساءة كبيرة إلى أحد مبادئه الأخرى، ألا وهو مبدأ المصداقية. كيف لي أن أنتمي وأستمر في الإيمان والثقة بتلك الرابطة؟ أنا آسف، ولكن هذا لا يمكن أن يستمر. أنا لا أستطيع فعل هذا*.

عندما أفصح كل منهم عن مشاعره وما يجول بنفسه، نظرت أمي إلى الجالسين في الحلقة وقالت: *نحن نقرر ما إذا كان هارتموت قد مات موتًا هشًّا، أم أنه مات بطلًا. وأنا لا أتسامح هنا في كون هارتموت قد مات ميتة هي الأكثر كراهية بالنسبة له. لقد قاتل وسقط، وأظهر شجاعة وعظمة وإيثارًا أخجلنا بها، وهناك إمكانية للنظر لتلك الطريقة التي توفي بها على أنها عار، بحيث تصبح فرصة للاختباء، وتركه يموت ميتة هشة. أما الخيار الآخر، فهو مواصلة القتال. وقد اخترت هذا الخيار الأخير، مع معرفتي بكل العواقب*.

نظر الآخرون إلى أمي، نظرة مترددة، كما بدا لي. ثم قال بيتر، دون أن يعلق على كلماتها: *أرى أنه يجب التصويت على ما إذا كان علينا الاستمرار في العمل في الرابطة أم لا. من يؤيد الاستمرار، فليرفع يده*.

لا أزال أذكر، أن والدتي رفعت يدها على الفور، وبقيت وحيدة لوهلة، في حين نظر الآخرون بعضهم إلى بعض، ولم يبدوا أي إشارة تدل على احتمالية رفعهم لأيديهم. ولأنني رفقت لحال أمي، فقد قمت برفع يدي اليمنى. كنت أجلس إلى جوارها، ولم تلحظني هي على الفور. نظر *بيتر* إلى الحلقة وقال: *كما أرى، فإن نتيجة التصويت واضحة. صوتان في مقابل ستة أصوات، في حين أن أحد الصوتين لا يعتد به أصلًا. وبهذا نكون قد توصلنا إلى قرار حل رابطة *حماة الحياة**.

هنا فقط نظرت أمي حولها، من الواضح أنها كانت تبحث عن الصوت الثاني، ثم نظرت إلى جوارها حيث كنت أجلس، ونظرت إليّ وتهللت أساريرها. وفي تلك اللحظة شعرت، كم هي فخورة بي، وكنت محقًّا في هذا الشعور، حيث قالت: *هانو، أقدر لك هذا. لقد فهمت، عم يدور الأمر. أنا جد فخورة بك*.

بعد أن أعلن *بيتر* نتيجة التصويت، حاولت أمي أن تخوض نقاشًا حول حق التصويت. ونظرت لكلوديا وأنكه، وقالت إنهما كانتا طالما تذكران أهمية التأكيد على النظر إلى الطفل على أنه على قدم المساواة كشريك، على نفس المستوى، وأخذ الأمر بجدية، ولكن حين يأتي الوقت، الذي نحتاج فيه إلى تلك النقطة، فإن هذا الرأي لا يعتد به، لأنه رأي مجرد طفل ليس أكثر.

كانت أمي هي الوحيدة من ضمن أعضاء الرابطة، التي كانت لا تصر على أن أناديها باسمها. لم تكن كلوديا وأنكه تريدان أن يناديهما أبناؤهما بـ*أمي*. إلا أنني كنت أناديها بأمي. بالطبع لم يكن الأمر سهلًا بالنسبة لأمي، أن تكون هي الأم الوحيدة؛ ماما، لم يكن لتلك الكلمة رنين متحرر، بل يحصرها في دور

الأم، بعكس كلوديا وأنكه، اللتين إعتبرتا نساء مستقلات في نظر أطفالهن الذين كانوا يتعاملون معهن على أنهن على نفس مستواهم.
أنا ما زلت أذكر، كيف قامت أنكه بمحاورتي أنا وأمي، مخاطبة ضمائرنا. فقد تنحت بنا جانبًا، بعد أحد اجتماعات الرابطة. وقالت: *مارتا! طريقة التربية التي تتبعينها هي طريقة قديمة، لا تنتمي إلى عصرنا، فنحن نعيش في زمن آخر. من المهم أن يرى هانو فيكِ أكثر من مجرد وظيفة الأم التقليدية، سوف يعرضه هذا إلى تعقيدات*. ثم جثت أنكه أمامي، حتى تتمكن من النظر إلى عيني، وقالت: *وأنت يا هانو، يجب أن تتعلم، أن أمك هي أكثر من كونها مجرد أم، فهي صديقتك الكبرى، وعندما تناديها لن تقول لها بالطبع يا صديقتي، وإنما سوف تناديها باسمها. ولهذا فنحن نمتلك أسماءنا*.
وبناء على حديثها هذا، جاهدت يومين كاملين -على الأقل- حتى تحدث إلينا أبي حديثًا مس مشاعرنا أنا وأمي، عندما سمعني، وأنا أقول لها، في أثناء تناول العشاء: *مارتا، هل يمكنني أن أبقى مستيقظًا لفترة أطول اليوم؟*
نظر لي والدي في ذهول، ثم إلى والدتي، ثم إليَّ مرة أخرى. وقال وهو يشير إلى أمي: *تلك المرأة، هي أمك، إن كنت قد نسيت ذلك. ليس لديك سوى أم واحدة، وإن كنت تحبها، وأعتقد أنك تفعل، فعليك أن تناديها بأمي*. ثم قال لي، إن عليه أن يتحدث لأمي، وإن عليَّ أن أذهب إلى غرفتي، وأن أغلق الباب خلفي.
وفي هذا اليوم، عندما تم حل الرابطة، حاولت أمي، أن تُذكر كلوديا وأنكه، أن علينا أن نعامل الأطفال معاملة الكبار، ولهذا فعليهما أن يحترما رأيي مثلي مثل أي عضو كامل في الرابطة. وقالت: *الأمر متعلق أيضًا بمستقبل هانو، وهو كبير بما فيه الكفاية، ليتخذ قرارًا يتعلق بمستقبله*.
رد بيتر قائلًا: *ولكنه ليس عضوًا نظاميًّا له حق التصويت*. فردت والدتي متسائلة: *هل الأمر كذلك إذًا؟ هل يتعلق مستقبلنا جميعًا بمجرد طلب عضوية؟ هل أفهم هذا بطريقة صحيحة: من يخطط في هذا البلد للثورة، فعليه في البداية أن يؤسس جمعية ويجلب لها أعضاء نظاميين؟ هذا سخيف حقًّا*. أعتقد، أن الآخرين لم يريدوا أن يدخلوا في هذا النقاش.
قال بيتر: *حتى وإن احتسبنا صوت هانو كصوت صحيح، فإن نتيجة التصويت لا تزال واضحة. يمكنكما أن تستمرا في العمل وحدكما، على الرحب والسعة، أنت وابنك. يمكنك أن تعينيه نائبًا لك، أو حتى أمينًا للخزينة. حظًّا سعيدًا!*.
أتذكر جيدًا، أنني كنت مهتمًّا بشكل خاص بمسألة أمين الخزينة. فمن ناحية كنت أعرف جيدًا أن الحسابات ليست إحدى نقاط القوة لدي، ومن ناحية أخرى، كنت أراني مثل والدي، أجلس إلى الآلة الحاسبة، وأطبع الإيصالات، وأضعها جنبًا إلى جنب على المكتب، وأسجل المبالغ في دفتر كبير. كنت أعلم أنها مهمة في غاية الأهمية، وأن والدي كان سيكون بالتأكيد فخورًا بي، إذا قلدته في أدائها.
إلى جانب هذا، وكان هذا هو الخاطر الثالث الذي خطر لي -إن أردت أن أكون

صادقًا، وربما كان هو الخاطر الثاني- يمكنني أن أستقطع بين الحين والآخر بضعة ماركات وأستثمرها في شراء صور للألبوم. لن يستطيع أحد أن يدرك هذا، لأنني أنا الوحيد الذي أقوم برصد كل الحسابات. لم أكن أدرك في حينها أي شيء عن تدقيق المستندات. لم تذكر لي أمي بعدها أبدًا وظيفة أمين الخزينة تلك، إلا أنني أسأل نفسي اليوم، عما إذا كان بيتر هو من لفت نظر أمي، إلى الشخص الذي يجب عليها أن تخطط معه لأداء مهمتها، وأنه لم يتبق لها سواي. ربما أكون قد رفعت يدي في الوقت الخطأ.

***

تم حل الرابطة، وتقدمت والدتي لتحارب وحدها. كانت طالما تقول، إن هناك صفوفًا من الداعمين، معظمهم من رفاق كفاح هارتموت، وتمكنت أيضًا من خلال الوقفات الاحتجاجية التي كانت تتم في ذكرى إحراقه لنفسه من جمع بعض الناس، إلا أنهم كانوا يتجمعون فقط من أجل إحياء الذكرى ليس إلا.
وكانت تطلب في كل مرة من أحد الحاضرين إلقاء كلمة، إلا أنها كانت عادة ما تقوم بإلقاء أطول كلمة في كل مرة. كان يحضر بعض الناس، من الذين كانت لهم علاقة مع هارتموت خلال الفترات المختلفة من حياتهم، أحدهم كان أستاذًا بالجامعة، قابله في أثناء الإضراب عن الطعام في *كاسل*، وصحبه آخر في مرة أخرى إلى *فايل*، وقام ثالث بوضع ماكينة وضع العلامات الخاصة به في خدمته، وقام آخر بتقديم سكن له في أثناء إقامته في *هامبورج*.
لم يكن هناك أكثر من مجموعة بسيطة، قد تزيد عن أصابع اليدين بقليل، من هؤلاء الداعمين. إلا أن أمي تكالبت عليهم ورأت فيهم إثباتًا أن هارتموت لم يكن يغرد منفردًا، دون أن تلقي بالًا، إلى عدم أهمية كونه وحيدًا، أو أنهما معًا، أو إن كانوا ثلاثة، أو حتى اثني عشر، في مقابل ستين مليونًا آخرين. ولا يمكن أن يكون قد فات أمي، أن داعميها المحتملين كانوا مجرد مجموعة من أرباب المعاشات، وكبار السن، وبعض المخلوقات الغريبة، الذين كانوا –في ما يخص موضوع هارتموت- يتباهون بما يصنعون أو يتباهون أمام أمي بما يفعلون. قام أحدهم، وكان يدعى كاريوس، بزيارة أمي منذ ثلاثة أو أربعة أعوام في *برلين*. لم يحضر خصيصًا بالطبع، وإنما كان موجودًا لحضور أحد المؤتمرات، واستغل إحدى الأمسيات الشاغرة، ليزور والدتي. وكانت قد قالت لي، إنني لا بدَّ أن أتعرف عليه، لأنه لم يكن هناك أحد قريب من هارتموت، مثلما كان كاريوس هذا.
عندما وصلت كانا يجلسان منذ فترة في المطبخ، ولكنني لم أشعر أن وجودي قد قطع عليهم استرسالهم في سرد ذكرياتهم التي تجمعهم بهارتموت، وأن كلًّا منهما كان يشعر بالتأثر الشديد من أجله. على العكس، كان الموقف برمته غير مريح بالنسبة لي، لأنني جلست إلى اثنين من الأشخاص، لا يوجد شيء مشترك بينهما.
بالطبع كان هارتموت نقطة أساسية مشتركة، إلا أن نقطة واحدة فقط غير

كافية لتشكيل فكرة شاملة. فبدلًا عن أن يتحدثا عن الحياة، أو الأبناء، أو العمل، أو الأحداث العالمية، أو السياسة، أو الحياة اليومية، أو الأمراض أو حتى عن أسعار الخبز، التزما الصمت وظلا ينظران إليّ في ترقب. لم أرد أن أبدو غير ودود، وسألت عن الطريقة التي تعرف كاريوس بها على هارتموت. فحكى عن خطبة ألقاها هارتموت أمام طلاب جامعة *توبنجن*، ثم قام بعدها هارتموت بمخاطبته وطلب منه أن يساعده في حمل بعض علب الكرتون المليئة بالمنشورات إلى سيارته، وهو ما فعله أيضًا.

وعند السيارة سأله هارتموت عما إذا كان يستطيع مساعدته في توزيع تلك المنشورات، وفعل هذا كذلك. وهكذا جاءت المرة تلو الأخرى. وبعد فترة سُمح له أيضًا بإضافة بعض العبارات لهذا المنشور أو ذاك. سألته: كيف كان يشعر تجاه هارتموت؟ وما هو انطباعه نحوه؟ وجاء رد كاريوس مفاجئًا بالنسبة لي: فهو لم يكن يعرفه إلى هذه الدرجة.

ثم صمت مرة أخرى، ولم يرد أن يشير أي إشارة قد تعطيني انطباعًا عن طبيعة علاقتهما، وأعتقد أنه لم يشعر بأنه كان في حاجة إلى ادعاء قربه من هارتموت، على عكس الحقيقة. وبدا غير عاطفي على الإطلاق. وهو ما جعلني أشعر بالحيرة، لأنني عايشت طوال تلك السنوات، هذا الكم الهائل من المشاعر تجاه هارتموت ومصالحه التي كانت ترهق أمي. وسألته، إن كان يمكنه القول إن هارتموت كان صديقه. فكررها قائلًا: *كصديق؟* ثم أطال النظر في الفنجان الموجود أمامه على المنضدة.

وقال: *لقد اتضح، إنه كان هناك شيء مشترك في ما بيننا، فقد كان هارتموت يُدرس اللغة الألمانية للأجانب، مثلما أفعل أنا، وكنا نعاني سويًّا تحت وطأة هيمنة الكتاب المدرسي لـ*شولتز/ جريسباخ*. فقد كان رأينا نحن الاثنان، أنه لا يجب على الطالب أن يتعلم من أجل الامتحان فقط، وأن الأمر يجب أن يدور حول اللغة التطبيقية في المقام الأول، وقد كان هارتموت يفهم نشاطه السياسي بنفس الأسلوب*.

ودون أن ينظر إليّ، بدا وكأنه يسأل نفسه: *صديق؟ أتذكر، أنني أحضرت له في إحدى المرات وثيقة. كانت لي علاقة وطيدة آنذاك بأحد الأعضاء البارزين في البرلمان الألماني، وأعطاني بعض الوثائق الخاصة بالملف الذري، من خلال اللجنة الداخلية. ثم قابلت هارتموت بعدها مصادفة في مكتب البريد، وحكيت له عن الموضوع، وقد سعد كثيرًا بهذا. كانت هذه إحدى التجارب العاطفية التي ربطت بيننا. ما زلت أتذكر، أي مكتب بريد تقابلنا فيه. لقد كان مكتب البريد الرئيس لدى سوق *توبنجن*. أتذكر، أن هارتموت ابتسم وكاد أن يضع يده فوق كتفي من شدة الفرحة. ولكن صديق؟* ثم نظر إليّ، وسألني: *ما الذي تعنيه بالنسبة لك كلمة صديق؟*.

قلت: *إنه شخص، عنده نكران للذات، وموجود دائمًا، فقط من أجل أن يكون موجودًا، لا يقيس الصداقة بفائدتها. يكون معك، بكل بساطة، لأنك أنت، على نفس الحال التي أنت عليها*.

نظر إلى أمي وقال: *أعتقد أننا أصبحنا أصدقاء بعد موته*. وسألت أنا نفسي، من يقصد هنا بـ*أننا*، لأنه في تلك اللحظة كان ينظر إلى والدتي بطريقة واضحة، جعلتني أفكر، أنه قد يكون يقصد أمي بتلك الجملة، أو ربما أنه يعرف أكثر عن علاقتها بهارتموت، ربما أكثر مما أعرف أنا. نظرت إلى أمي، إلا أنها تجنبت النظر إليّ. ثم صمتنا مرة أخرى.
بعد أن غادر كاريوس بفترة طويلة، أعربت لأمي عن مدى اندهاشي، من أن الرجل الذي قالت إنه كان الأقرب إلى هارتموت من أي شخص آخر، لا يستطيع حتى أن يقول ما إذا كانا أصدقاء أم لا. سألتها عما إذا كان ذلك يرجع إلى حقيقة أن المشاعر لم يكن لها قيمة لدى هارتموت، وأنه كان يقيس قيمة الشخص الذي أمامه بالفائدة التي يستطيع أن يجنيها من ورائه.
ولكن والدتي أوضحت لي بعد ذلك، أن هارتموت كان يشعر تمامًا بالارتباط مع الأشخاص بل والاعتناء بهم أيضًا. وسألتني عما إذا كنت أتذكر الحيوانات الخشبية التي أحضرها لي عندما كنت ملازمًا الفراش لإصابتي بالحصبة الألمانية؟ كنت أذكر جيدًا: الحيوانات الصغيرة والبسيطة المصنوعة من الخشب، في حجم علب الثقاب، كانت هناك بعض الأبقار، وبعض الأغنام، وكان هناك آخر يشبه الكلب. تذكرت أيضًا أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل بتلك الحيوانات، وأنني وضعتها على مكتبي من أجل والدتي حتى تظن أنني ألعب بهم، ويمكنها أن تلتقط بقرة، وتقول كم هو جميل من هارتموت أنه فكر بي. وفي صباح اليوم التالي ذهبت الحيوانات إلى الدرج السفلي من مكتبي وبقيت هناك إلى الأبد.
ومن وجهة نظري اليوم، فإن تلك الحيوانات كانت أكبر دليل على أنه لا يمكنني حتى الآن التعاطف مع هارتموت، وإلا لكان قد عرف أنني سأعتبر تلك الحيوانات الخشبية الصغيرة الغريبة أكبر دليل على الإهمال، فبعد كل شيء، لم أكن وقتها طفلًا صغيرًا في سن الرابعة حتى أحصل على مثل تلك الهدية.
قالت والدتي، بينما كنت لا أزال أفكر في الحيوانات الخشبية: *هل تعلم؟ لقد نشأ مع اثنين من الأشقاء، وكان هو أصغرهم. شارك أحد الشقيقين في الحرب وعاد إلى المنزل مصابًا، فقد فَقَدَ إحدى عينيه، وأصيب في ذراعه. ولأنه لم يستطع تحمل الحياة، فقد ذهب ذات يوم إلى الغابة، وأطلق النار على نفسه هناك. كان والد هارتموت مريضًا بلين العظام وكان يعتمد على العكازات في مشيه. ووالدته -أعتقد أنه يمكننا قول هذا- كانت تعاني من الاكتئاب*.
سألتها: *هل قال لك هذا؟*.
قالت: *كلا، أنت تعرف أن هارتموت لم يتحدث أبدًا حول شيء من هذا القبيل. اكتشفت هذا فقط بعد وفاته. أخبرني بذلك زميل سابق لهارتموت. كتب لي رسالة بعد قراءة رسالة مني إلى المحرر. ثم التقينا، وأخبرني عن الماضي، وعن افتراضه بأن هارتموت ربما ورث السلوك الاكتئابي لوالدته، وأخبرني عن منزل والدي هارتموت وأنه كان يخيم عليه الحزن الشديد.

عندما كان يذهب مع هارتموت إلى المنزل بعد المدرسة، كانت الأم غالبًا ما تجلس على كرسي له ذراعين في غرفة المعيشة، ولم تكن تنطق بكلمة واحدة، بينما كان يقوم هو وهارتموت بتسخين الطعام في المطبخ، وكانا بالكاد يتحدثان، لأن الصمت كان يلف أرجاء المنزل*.
سألتها: *وماذا عن والده؟*.
-*كان قسًّا، كما قد تتذكر. ويبدو أنه لم يجد طريقة للتعامل مع الأم. فكما سرد صديق الدراسة، كان هناك عبء دائم على الأسرة*.
سألتها: *لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟*.
فقالت: *لا أعرف، ما إذا كان هذا الكلام صحيحًا*.
رددت قائلًا: *بل أعتقد أنك تعرفين جيدًا، لقد كنت تحاربين دائمًا، إذا ما صور شخص ما فعله هارتموت على أنه عمل يائس. أعتقد أنك كنت لا تريدين الاعتراف بأن هارتموت كان مصابًا بالاكتئاب*.
-*ربما كان كئيبًا في تصرفاته، لكن هذا لم يكن سببًا لفعلته. لو كان الأمر كذلك، لكان قد قام بقتل نفسه بهدوء. لم يكن يائسًا أيضًا، فقد تحدث في رسالته، عن الحاجة. وقال إن القرار قد نضج خلال ثلاثة أسابيع، مما يعني أنه درسه بعناية. لقد كان مصممًا*.
اكتشفت أن هارتموت كان قد ذهب في رحلة إلى *لفارتال* قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط. وكان قد غادر في الصباح الباكر وعاد في وقت متأخر من المساء، ويبدو أنه كان يبحث عن السلام الداخلي. وقبل أيام قليلة من مغادرته إلى *هامبورج*، قام بتجهيز وليمة لديه في المنزل، وهو أمر لم يكن معتادًا.
فهو لم يقم بالطهي لأمي ولرفاقه الآخرين من قبل، وكان قد وضع مكتبه في منتصف الغرفة وفرشه، واستعار الأواني وأدوات المائدة من الجيران. كانت هناك شطائر، وكانت هناك شمعتان موقدتان على الطاولة. ونظرًا لعدم وجود عدد كافٍ من الكراسي، فكان على اثنين من الضيوف الجلوس على سريره.
وحكى عن حدث كان يريد تنظيمه في *هامبورج*، وكان قد دعا إليه وزير البحث العلمي، وكان من المفترض أن تتم مناقشة علنية حول السياسة الذرية، ولكن الوزير اعتذر في ما بعد.
وعلى الرغم من هذا قرر هارتموت الذهاب إلى *هامبورج* للالتقاء ببعض مؤيديه، ولتوزيع المنشورات خلال مؤتمر الحزب. وتحدث بيتر، الذي كان حاضرًا أيضًا، في وقت لاحق عن سر هارتموت قائلًا: إنه لم يكن من قبيل الصدفة أنه دعا ستة أشخاص فقط للطعام، فهي إشارة إلى أنه قام بدعوة نصف *الرسل* على الأقل، إلا أن هارتموت لم يفصح خلال تلك الليلة عن نيته، وكذلك لم يعبر عن توديعه لأي منهم عن طريق مصافحة وعناق غير معتاد.
وفي *هامبورج*، أقام هارتموت في شقة في شارع *روستوك*، وكان يملكها هانز بيلينج، أحد الرسامين المعروفين في *هامبورج*، ووفقًا لوالدتي فهو

شخصية رأسمالية مليئة بالتناقضات.
وقال بيلينج لاحقًا إنه زار هارتموت عشية يوم السادس عشر من نوفمبر. وجلسا سويًّا لفترة وجيزة حول زجاجة من الماء. وبدا حينها هارتموت غائبًا تمامًا، الأمر الذي فسره بيلينج على أنه كان منغمسًا في الكتابة عندما ذهب لزيارته. وكانت هناك ورقة لا تزال في الآلة الكاتبة، بينما وضع المزيد من الأوراق على الطاولة بجانبه. ربما كان يكتب خطاباته الأخيرة.
أما الشيء التالي الذي سمعه منه، أو بالأحرى عنه، فكان هو انتحار هارتموت حرقًا. ومع ذلك، فقد كان هناك ما أخفته أمي عني، ولم اكتشفه إلا بعد وفاتها، وهو مكالمتها الهاتفية مع بيلينج، والتي عرفت عنها عرضًا، وجاء فيها: إن هارتموت كان يائسًا جدًّا. عندما سألته عم يجعله يقول هذا، أشار إليَّ برسالة كتبها هارتموت إلى هيلموت شميدت قبل يومين من فعلته، والتي وجدتها بالطبع في أحد الملفات. وكانت الرسالة تتألف من ثلاث صفحات، وتبدأ باعتراف:
*عزيزي المستشار، أحاول منذ نحو ثلاثة أسابيع إيجاد المتطلبات التنظيمية الأخيرة، لاستمرار الإضراب عن الطعام ضد تناقضاتك الذاتية. إلا أنني لم أنجح. منذ ٣٠ أغسطس، كنت أفترض يقينًا، أنه سيكون من الممكن بالنسبة لي إقامة منارة احتجاجية من الجرانيت، قبل مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي حول الطاقة. وبعد أحد عشر أسبوعًا، وفي عشية هذا المؤتمر الحزبي، أجد نفسي أقوم ببناء قلعة رملية جرفتها الأمواج مرارًا وتكرارًا. فمن بين ستين مليون شخص يعيشون في الجمهورية الاتحادية، لا أجد حفنة من المساعدين، الذين لا غنى عنهم. لا بدَّ أنهم موجودون في مكان ما، فهم قريبون مني روحيًّا، لكنني لا يمكنني العثور عليهم هنا في الحال، ولا أجدهم مجتمعين بأعداد كافية في أي مكان آخر. أشعر بالإرهاق المزمن بشكل خاص، كما أنني أرهق أصدقائي أكثر.
أرى الآن في ذلك قدرى، الذي حلّ عليّ، وأنا أتحمل جزئيًّا مسؤولية ذلك*.
لقد قرأت تلك الفقرة مرة ثانية وثالثة، وأتساءل، كيف يمكن تفسير تلك الكلمات بشكل مختلف عن كونه يائسًا. هذه الرسالة تعد بمثابة اعتراف لخصمه الأعظم، اعتراف بالفشل.
وبعد رؤيتي لتلك الأسطر بعيني، شعرت بالغضب تقريبًا، لأن والدتي لم تفهم، أو أنها لم ترغب في فهم معناها. لا بدَّ أنه كان من الصعب على هارتموت أن يكتب هذه الرسالة، فقد أظهر إنسانيته الشديدة ربما للمرة الأولى، وبدا الأمر وكأن والدتي لم تستطع تحمل تلك المشاعر، لقد أنكرت الأمر ببساطة. قال بيلينج: *تحدث هارتموت كثيرًا عن الشخصية الفائقة، ولكن كان لديه أيضًا هذا الجانب الآخر، الجانب الحساس، الذي يتوق إلى المودة. هل قرأت الرسائل؟*
لم أكن أعرف أي رسالة يقصد. كانت هناك العديد من الرسائل.
قال بيلينج: *رسائله لكيلي، سوف يدهشني، عدم قيام والدتك، بحفظ تلك الرسائل. لقد ذكرت لها تلك الرسائل قبل بضع سنوات، وقلت لها إن عليها

أن تبحث عنها في أرشيف حزب الخضر*.
لم تذكر لي أمي تلك الرسائل أبدًا. إلا أنها كانت موجودة فعلًا، فقد كان بيلينج على حق، وقامت أمي بأرشفتها، كما فعلت بكل الرسائل الأخرى، ووجدتها في أحد الملفات. كان معظمها مكتوبًا بخط اليد. كانت هذه أول ملاحظة بالنسبة لي، لأنني لم أر خطابات لهارتموت سوى تلك المكتوبة من خلال الآلة الكاتبة. كانت الحروف واضحة جدًّا، كما لو كانت قد تم طباعتها، بحروف واضحة ومستقيمة. وكان خط يده يبدو منظمًا جدًّا.
عندما ذكر لي بيلينج تلك الرسائل، لم أكن أعرف من المقصود بكيلي، فهذا الاسم لم يرد مطلقًا في أي شيء له علاقة بهارتموت، إلا أنني منذ أن بدأت في تصفحها، شعرت أنها كانت تمثل أكثر من مجرد خطابات لاثنين مشتركين في نفس الكفاح، حتى وإن كان الحديث يدور فيها حول السياسة الذرية. إلا أنها تختلف في نبرتها، عن كل ما قرأته لـ*هارتموت* من قبل. فقد بدأت أحد الخطابات كالتالي:
عزيزتي الآنسة كيلي، احتفالًا بصباح الأحد جلست لكتابة تلك الرسالة إليك منذ الساعة الرابعة صباحًا. أنت أميرة القصص الخيالية. إذا كان دوري يمكن أن يكون هو دور البستاني في حديقة القلعة، فأنا راضٍ. اقبلي إذًا تلك الباقة من الزهور، التي جمعتها بالطبع من فوق السياج والأسوار، كما هي، وإن كانت تحمل بعض الأعشاب معها، متعددة الألوان. هذا ما حصلت عليه من تعاطفك، أيتها الأميرة العزيزة!.
وفي إحدى الرسائل الأخرى، يعتذر لها، لأنه كان يعاملها على أن لغتها الأم هي الألمانية، على الرغم من أنها كانت قد ذكرت أمامه بوضوح، أن والدها بالتبني أيرلندي الأصل.
فكتب لها:
*اتضح لي الآن بما لا يدع مجالًا للشك، أن اللغة الألمانية التى تتحدثينها، مثلك مثل أي شخص يعيش في المنطقة التي تقع بين *كيل* و*كونستانس*، ليست لغة الأم خاصتك. سوف تسألين: كيف هذا؟ وستنتظرين مني إجابة. لقد كتبتِ في عنوان المرسل إليه على الرسالة: Herr Gründler بصيغة الفاعل المرفوع، بدلًا عن: Herrn Gründler بصيغة المضاف إليه المجرور، لا يمكن لأحدهم أن يستاء من هذا الخطأ الودي الصغير الذي لا يسهل فهمه في الإنجليزية، إلا أن كل طالب في المرحلة الثانوية سيلحظه على الفور*.
إنها تلك النبرة الرومانسية التي تميز السطور التي كان يكتبها للآنسة كيلي. وقد لفتت نظري على الفور كلمة *ودي*، التي قفزت أمام عيني في أثناء قراءتي الأولى للرسالة، كما لو كانت قد كتبت بالخط العريض، لأنها ليست من الكلمات التي ارتبطت عندي بهارتموت.
إحدى الرسائل الأخرى بدأت بـ*عزيزتي بيترا*، وهنا اتضح لي أخيرًا، من هي السيدة المقصودة في الخطابات، على الرغم من أنني لم أكن أعرف عنها الكثير. فهي لم تلعب دورًا أبدًا في ماضينا. كانت مشاركة في تأسيس حزب

الخضر، ولكنني لا أعرف على وجه التحديد ماذا كانت تفعل، في الوقت الذي كتبت فيه تلك الرسائل. كل ما أعرفه، هو أنها وجدت في ما بعد مقتولة، بعد أن قام شريك حياتها بإطلاق النار عليها، ثم قام بعدها بقتل نفسه.
هارتموت وبيترا كل ما أعرفه عنهما قمت باستنباطه من الخطابات. ويبقى مبهمًا بالنسبة لي، كم كان مدى قربهما بعضهما من بعض. حتى إن هارتموت نفسه يطرح هذا السؤال، ويدور في حلقة مفرغة بحثًا عن إجابة له:
*عزيزتي بيترا، بما أننا اتفقنا في أثناء حديثنا ومحادثاتنا الهاتفية، على رفع التكليف في ما بيننا، وأن أناديكِ بأنت بدلًا عن حضرتك، فأعتقد أن هذا يسري على الخطابات أيضًا. ومن ناحية أخرى لا تبدو لي كلمة *أنت* محرجة للغاية في تلك الحالة. فـ*حضرتك* تحمل في طياتها بعدًا في المسافة أكثر من اللازم، في حين أن *أنت* تقرب تلك المسافة *ربما أكثر من اللازم*؛ وتوحي *حضرتك* بقدر كبير من عدم الثقة، في حين أن *أنت* توحي *ربما* بالكثير من الثقة. أعتقد أنك تشعرين بنفس هذا الشعور. إلا أن التحول أكثر من مرة بين *أنت* و*حضرتك* في نفس الحوار يحمل معنى آخر يصعب تفسيره.
يحدث هذا في مسار متعرج لطيف، تمامًا كما هي الحال عند ركوب الدراجات والمشي، ستجد دائمًا طريقك إلى التوازن من خلال فقدك للتوازن الإيقاعي.
لقد تركت لحضرتك، كما قد تكونين لاحظتِ، حرية تحديد نغمة التغيير، ويمكننا تركها عند هذا الحد*.
وبعد ذلك، ومجرد الفكرة تجعلني أشعر بالحرارة بشكل محرج دون أن أعرف لماذا ذكرني في إحدى رسائله. حقيقة هو لم يذكرني صراحة، فهو لم يذكر اسمي. ولكنه ذكر حدثًا، كدت أن أنساه، وعاد إلى ذهني فجأة، كما لو كنت قد عايشته بالأمس فقط.
بدأ هارتموت خطابه بكلماته، عن يوم الكفاح الذي تم بالفعل في مدينة *شتوتجارت* بكل نجاح. ثم يصف بعد ذلك، الأحداث التي وقعت في اليوم السابق. في أحد الأركان المزدحمة بالقرب من ميدان القصر. كان هارتموت قد قام بنصب شمسيتين ملونتين هو ومجموعته، ووضعوا تحتها طاولة الكتب الخاصة بهم. وأمام طاولة الكتب على الرصيف كانت هناك نقالة تابعة للصليب الأحمر الألماني، وعلى تلك النقالة، كنت أرقد أنا ملفوفًا في بطانية. لم أكن أرقد هناك هكذا فقط، وإنما كنت ألعب دور ضحية الإشعاع. فوجود طفل، وفقًا للحسابات، يعطي أثرًا أكبر كضحية للإشعاع، وقد يغري المارة، الذين ربما كانوا قد مروا -لولا وجوده- للتوقف والتعرف على أخطار الطاقة الذرية.
وقد استخدمنا صورة لأحد الأطفال من *هيروشيما* كنموذج، لتقليد شكل سرطان الجلد لديه. قامت سيدة من هيئة الصليب الأحمر، كانت على معرفة بهارتموت، بالحضور إلينا في المنزل في صباح هذا اليوم وقامت بوضع بعض المساحيق على وجهي وساعدي، لتبدو كالبقع السوداء، أو البنية الغامقة. بدا الأمر قبيحًا جدًّا، كان هناك بعض الناس ممن يعانون من وجود حسنة كبيرة

مثل تلك في وجوههم، وكنت عندما أرى شخصًا على تلك الحالة، لا أعرف على وجه التحديد أين عليَّ أن أوجه نظري، لأنني كنت لا أريد أن أبدو كما لو كنت أمعن النظر إليه، إلا أنني لم أكن أريد كذلك أن أعطيه الشعور، بأنني أشعر بالاشمئزاز منه.
لم أكن سعيدًا بهذا الصباح، وهو ما قد يخطر على بال البعض، مثلما يفرح الناس بالتنكر للكرنفال، إلا أنني لم أحب الكرنفال أبدًا. كانت والدتي قد حكت لي في اليوم السابق عن تلك الحركة، وأكدت على أهمية رفع الوعي لدى الناس، وقالت إنني يمكنني مساعدتهم، ليس هم فقط -أعني هارتموت ووالدتي- وإنما كل الناس الآخرين. ثم وافقت على أن أقوم بهذا الدور على مضض، تمامًا كما كنت أوافق على زيارات طبيب الأطفال، على مضض أيضًا. فقد كنت غير متواجد وجدانيًّا تقريبًا، وكان كل تركيزي منصبًّا على ما سوف أفعله في ما بعد. في ما إذا كنت سأقوم بشراء مجموعة صور للألبوم، أم سأقوم بمشاهدة *بونازا* في فترة ما بعد الظهيرة. ما زلت أتذكر كيف أن والدتي قد أمسكت بيدي في أثناء الخروج من المنزل، كما لو كانت تخشى أن أغير رأيي. وفي السيارة قالت لي: *ليس عليك أن تفعل أي شيء. عليك فقط أن ترقد هناك*.
إلا أن هذا لم يكن سهلًا على الإطلاق، الرقود فقط، في حين يقوم الآخرون بالتطلع إليك، وبخاصة عندما كانت الناس تقف فوقك مباشرة. لم أكن أعرف على سبيل المثال، عما إذا كان من المسموح لي أن أغلق عينيّ، مما كان سيسهل عليَّ الأمر بدرجة كبيرة. إلا أنني نظرت إلى السماء، وحاولت تفادي كل نوع من أنواع التواصل البصري، في الوقت الذي سمعت فيه أمي تشرح للناس، المجتمعين من حولي، عن أخطار الإشعاعات النووية، وعن الخطر الذي يتسرب من كل المفاعلات. لم يتوصل أحد إلى فكرة أنه من الممكن أن أكون ضحية إشعاع حقيقية.
كان من الواضح أنني كنت مجرد دمية إشعاعية. ومع ذلك، في مرحلة ما، خطرت ببالي فكرة سيئة عما سيحدث إذا أصبحت البقع الاصطناعية بقعًا حقيقية. سمعت ذات مرة، أنه من الممكن للشخص تخيل الأمراض، وأنه في حالة آمن بها بما فيه الكفاية، فإنه يمرض فعليًّا. بذلت قصارى جهدي، كي لا أفكر في الأمر، ولكن كلما حاولت صرف تفكيري عن الموضوع، انغمست أكثر في الأفكار. لطالما تمنيت أن أنهض وأمسح تلك البقع من على وجهي! ولكن الغطاء كان محكمًا من حولي، ومنعني من القيام بذلك. هذا إلى جانب أنني كنت أرقد على ظهري، وكنت دائمًا ما أحلم بالكوابيس عندما أرقد على ظهري.
ما زال الأمر كذلك حتى اليوم، وأسأل نفسي أحيانًا، عما إذا كان هذا الأمر يتعلق بولادتي، قد يكون نوعًا من أنواع صدمات الولادة، لا أجد تفسيرًا آخر للأمر. بمجرد أن أنام على ظهري، تنتابني أسوأ الأحلام، في الغالب يتم اصطيادي وينتهي بي الأمر في طريق مسدود أمام جدار لا مفر منه، أو أن كل

من أقابلهم يستديرون، في مترو الأنفاق، على رصيف المحطة، أينما ذهبت، وهذا ليس بالأمر اللطيف أيضًا.
وفي ذلك الصباح، في وسط مدينة *شتوتجارت*، كان عليَّ أن أستلقي على ظهري وأبقى صامتًا دون حراك، حتى يتمكن الناس من النظر إلى بقعي، وفي النهاية لم يكن الأمر يتعلق بي، وإنما بتلك البقع. فدون تلك البقع، لم يكن لأحد أن يهتم بي. لا أعرف ما إذا كنت قد غفوت في أثناء رقودي، لأنني قررت في وقت ما أن أغلق عينَي. ومن الوارد، أن أكون قد حلمت آنذاك حلمًا مزعجًا، على أي حال، أصبح لدي منذ ذلك اليوم توتر زائد تجاه سرطان الجلد، مما جعلني أقف في كثير من الأحيان أمام المرآة لفترات طويلة، وأتطلع للحسنات الموجودة على جلدي وكذلك الوحمات، وبطريقة غاية في الدقة، تجعلني قادرًا على رسم خريطة كاملة لجسدي، مرسوم عليها كل نقطة داكنة على جسدي. وبمعنى أكثر دقة، يمكنني حتى رسم خريطة طبوغرافية لجسدي، حيث إنني أعرف تحديدًا أماكن النتوء ومدى حجمها.
كان هارتموت وأمي سعداء جدًّا بدوري، كضحية للإشعاع، ففي نهاية اليوم، كانا قد سجلا عشرين اسمًا من المهتمين في السجل الخاص بالعناوين في دائرة العمل. عشرون شخصًا، سيقوم هارتموت من الآن فصاعدًا بإرسال منشوراته التثقيفية لهم. وكان هذا مذكورًا أيضًا في خطابه للعزيزة بيترا. شيء غريب، ولكنني عندما قرأت مجددًا، شعرت بالخيانة، أو بشكل أدق: تجاهي أنا وأمي. مع أن هارتموت لم يكن يعطي قيمة لأي شيء شخصي، فهو لم يذكر أسماءنا ولو مرة واحدة، فكل ما كان يهمه هو المهمة.
إلا أن الأسلوب المستخدم في الخطابات، الذي كان يحمل في طياته شيئًا شديد الخصوصية، والذي كان قد أخفاه عنا، أكد لي، أنه كان لديه شخص يشعر بأنه قريب منه، أكثر مما كان يشعر بالقرب تجاهنا. كان من الواضح أننا يجب أن نكون مخفيين أمام هذا الشيء شديد الخصوصية، ولكن هذا لم يكن يسري على العزيزة بيترا. وإذا كنت أنا قد شعرت بالخيانة، فكيف كان شعور أمي عندما قرأت تلك الخطابات للمرة الأولى؟
علمت مؤخرًا من هانس بيلينج، أن هارتموت قد قابل بيترا كيلي في *فايل*. وحكى لها هارتموت عن كفاحه ضد *اللوبي النووي*، وكان يعدها إحدى المكافحات الجيدات، وفكرا سويًّا في تنظيم مهمة حركة في فرنسا، لأن الكفاح ضد الطاقة النووية، يعد كفاحًا عالميًّا. فالأمر لن ينفع في شيء، إذا ما تخلت ألمانيا عن المفاعلات النووية، في حين أنها تتواجد على الجانب الآخر من الحدود.
لا أعرف ما إذا كانت والدتي على علم بعلاقة هارتموت ببيترا كيلي في هذا الوقت، إلا أنها قد عرفت على أبعد تقدير عند قراءتها لتلك الرسائل، أنه كان هناك هارتموت آخر يختفي خلف تلك الشخصية الخارقة التي يبديها. هل جرحتها تلك الرسائل؟ أم هل كانت قد تخلت على أنانيتها إلى الحد، الذي جعلها على استعداد للتضحية بكل شيء شخصي من أجل القضية؟

بالنسبة لي كانت تلك خطابات غرامية، حتى وإن بدت أنها خطابات للتقرب بلطف، إلا أنها وضحت شيئًا واحدًا على الأقل: وهو أن هارتموت لم يكن مثليًّا، على الرغم من أن هذا كان استنتاجًا غير موثق، لأنه لم يكن هناك أي دليل عن مدى قرب هارتموت من العزيزة بيترا، وهل كانت لهما علاقة فعلية تخطت تلك المودة الأفلاطونية. ومع ذلك: كنت أشعر بالشفقة على والدتي، بسبب تلك الرسائل.

***

تركنا شارع *كيبلر* خلفنا وانحرفنا إلى شارع *هولدرلين*. لا أعرف عدد المرات التي أخذت فيها هذا الطريق وأنا طفل صغير، فقد كان هذا هو الطريق إلى منتصف البلدة، والطريق إلى المدرسة؛ أينما كنا نريد الذهاب، كنا ننحرف في البداية من شارع *كيبلر* إلى شارع *هولدرلين*. حتى عند رحيلنا.

أعتقد أنها كانت المرة الأولى، التي لم أنظر فيها إلى الأمام، عندما كنت أجلس في السيارة وأمي تتولى القيادة، فقد نظرت من الزجاج الخلفي. كنت أتمنى أن أرى والدي، وهو يلوح لنا ويودعنا، إلا أن والدي لم يكن واقفًا أمام المنزل، وهو ما لا أستطيع أن ألومه عليه من منظور اليوم.

كنا في صيف عام ١٩٧٨، في بداية العطلة الكبيرة. لم تعطِ لي والدتي فرصة التفكير والانشغال بفكرة الرحيل. فقد حضرت في إحدى الليالي إلى غرفتي، وجلست على سريري وبدأت تقرأ لي من كتاب *إميل والمحققون*. كانت قد مرت فترة طويلة لم تقرأ لي فيها. كنت أحب أن أستمع إلى قراءتها وأنا وعيناي مُغمضتان، إلا أنني ما زلت أعرف، أنني كنت لا أجرؤ على فعل ذلك، لأنني كنت أخشى، أن تعتقد هي، أنني قد خلدت إلى النوم وتتوقف عن القراءة. وقرأت لي كذلك في الليالي التالية من *إيميل* و*جوستاف* و*بوني هوتشن*، بل وكانت ترقد إلى جواري في السرير.

أعتقد أنني لهذا السبب كنت أستمتع بتلك الليالي لهذه الدرجة. كنت أحب هذا الكتاب، وأعد الصفحات المتبقية فيه في الصباح، ثم بعد أن أتمت قراءة الصفحة الأخيرة منه بعد مرور أسبوعين، وقامت بإغلاق الكتاب، بدا لي واضحًا، لماذا كانت تقرأ لي. كنا نرقد لفترة إلى جوار بعضنا، ثم قالت لي: *لا بدَّ أنك ستستطيع الحصول على أصدقاء بسرعة، وربما تقومون أيضًا بمغامرات سويًّا*. لم تكن لدي أدنى فكرة، عما ترمي إليه. لم أستوعب العلاقة. فقد كان لدي بالفعل أصدقاء، باول، وكان أحدهم يدعى أيضًا إيميل. كنت قد انتهيت لتوي من الصف الرابع، وكنت أذهب يوميًّا للمدرسة ولم أكن منبوذًا هناك. قالت: *إن *برلين* مدينة كبيرة، وتقع هناك الكثير من الأحداث، أكثر بكثير مما يقع هنا، سوف ترى*. وبعد مرور أسبوع، ركبنا سيارتها الـ*رينو* وانطلقنا نحو برلين.

لم أقم بوداع أبي كما يجب، وربما كان هذا أفضل. لا بدَّ أنه كان يعرف أن هذا الانفصال سيكون للأبد. فقد جاء إلى حجرتي في الليلة التي سبقت سفرنا.

كنت أرقد بالفعل في فراشي، كنت أعرف، أننا سنرحل في صباح اليوم التالي، إلا أنني لم أكن أعرف أننا لن نعود مرة أخرى. جلس أبي على الأرض أمام فراشي، الأمر الذي لم يكن قد فعله قط من قبل. الأمر لم يكن سهلًا بالنسبة له على الإطلاق، لأنه كان سمينًا جدًّا، لهذا كان عليه أن يتشبث بالسرير جيدًا. أتذكر أنه ظل ينظر حوله لفترة قصيرة، ثم اعتمد على القائم الأيسر للسرير، ثم جثم ببطء شديد. ومن موضعه هذا، فرد إحدى رجليه إلى الأمام واتكأ على مؤخرته. ثم جلس بقدمين مفرودتين أمام فراشي. كان يعلوني بقليل وهو جالس هكذا، إلا أنني قد عدلت من وضع وسادتي، بحيث يرتفع رأسي قليلًا، وهنا أصبحت عيناي في نفس مستوى عينيه. جلس ينظر إليّ لفترة. وكان المصباح الموجود على المكتبة خلف الفراش، لا يزال مضيئًا، فقد كنت أتصفح في ألبومي.
قال أبي: *كيف حالك؟* فرددت قائلًا: *بخير*. فأومأ قائلًا: *لقد اكتمل أخيرًا*. كان موسم ٧٧/ ٧٨ قد انتهى. وحصل نادي *فاو إف بي شتوتجارت* في نهاية الموسم على المركز الرابع، وهو ما كان يصعب تصديقه. وحصل نادي *إف تسيه كولن* على المركز الأول. احتجت لعام كامل، لأستكمل الألبوم، وكان الأمر سيتطلب وقتًا أطول من هذا، في حال لم يقم والدي بشراء الكثير من مجموعات الملصقات، حتى حصلت كذلك على الصورة الأخيرة الناقصة في الألبوم.
سألني: *ماذا ستفعل الآن بالألبوم؟*.
قلت: *سأحتفظ به*.
فقال: *عليك أن تحتفظ به، أتعدني بذلك؟*.
قلت: *نعم بالطبع*.
فسألني قائلًا: *هل لي أن أراه مرة أخرى؟*.
كنت أرقد على ظهري، وكانت ركبتاي مضمومتين بزاوية، وكان الألبوم موضوعًا على بطني، مستندًا إلى غطاء الفراش. وكانت تلك الوضعية، لا تتيح طي الصفحات بسهولة، حيث إن الصفحات كانت تحتك كل مرة بغطاء الفراش. قربت الألبوم بعض الشيء من أبي. واقترب هو قليلًا من الفراش، وبدأ في تصفحه. بدأ يتطلع إلى لاعبي كل فريق، ويذكر تعليق بين الحين والآخر. *فيشر، هل لا تزال تذكر؟*، أو *هيتسفيلد، هل لا تزال تذكر، الهدف الذي أحرزه ضد *بوخم*؟*، أو: *فروش يجب أن يذهب إلى الحلاق*. فالتر فروش الذي يلعب لفريق *إف تسي سانت باولي* كان لديه أطول شعر من بين اللاعبين الموجودين بالألبوم. لم يكن والدي يفضل الشعر الطويل. كان ينظر إليّ ويقول لي: *قريبًا ستبدو مثل فروش*. أما والدتي فكانت ترى، أن الشعر الطويل يليق بي. كان أبي يهتم حتى وقت قريب بأن يبقى شعري قصيرًا. كان يقول: *لا بدَّ أن يذهب الفتى ليقص شعره*، ثم يصحبني إلى نفس الحلاق، الذي كان والده يصحبه إليه هو أيضًا. ثم نجلس سويًّا أمام المرآة، وكنت أجلس فوق مجموعة مصفوفة من المناشف المطوية، لكيلا

يضطر الحلاق إلى الانحناء.
كان والدي يقول: *سيد بويشلت، مرتين تقصير*. كان السيد بويشلت يبدأ بي دائمًا، ويحضر ماكينة الحلاقة الكهربائية، ويمرر مشطه من خلال شعري، ويقص كل ما يظهر من خلال أسنان المشط. لم تكد تمر ثلاث دقائق، حتى أكون قد حصلت على قصة شعر، تشبه قص شعر والدي، لأن السيد بويشلت كان دائمًا ما يتبع نفس التكنيك. لا أعرف، ما إذا كان السيد بويشلت قد ورث مهنة الحلاقة، فأنا لم أر مطلقًا مقصًّا بين يديه. كان أبي عادة ما يقصر شعره. وكان شعره خفيفًا في بعض المناطق، حتى إن فروة رأسه كانت تظهر من خلاله. إلا أنني لم أذهب للحلاق منذ فترة مؤخرًا، لأن أمي قد أوضحت لأبي، أن الزمن لم يعد مناسبًا بالنسبة لفتى مثلي، ليحلق شعره حلقة قصيرة هكذا. نظر إليَّ وقتها، وأعتقد أنه كان يتوقع مني أن أسانده في رأيه، إلا أنه قد صمت تمامًا عندما قلت، إنني أرى أن الشعر الطويل أجمل، واستدار واتجه إلى غرفته. عندما كانت أمي تتهم أبي بأنه محافظ، كانت على حق بالطبع. فقد كان الشعر الطويل بالنسبة له، إشارة على أن صاحبه لا يعمل، لأنه لا يوجد صاحب عمل، سيسمح بتعيين رجل يملك شعرًا طويلًا. على الأقل هو، لن يفعل ذلك.
وسألني: *كم عدد الأهداف التي سجلها فروش؟*.
كنت أعرف الكثير بالفعل، وكنت أعرف إحصائية الأهداف واحصائيات لاعبي *شتوتجارت*، إلا أنني لم أكن أهتم بفروش على الإطلاق.
قلت: *لا أعرف، أعتقد أنه لم يحرز الكثير من الأهداف*.
-*لا بدَّ أن هذا يرجع إلى تسريحة شعره، أنا أعتقد، أن شعره يعلق أمام وجهه، ولهذا فهو لا يرى الكرة وهي قادمة نحوه. أستطيع أن أراهن، أن معظم اللاعبين، ممن قاموا بتسجيل أكبر عدد من الأهداف، كانت لديهم قصة شعر خفيفة*.
لم أكن قد فكرت في هذا الأمر من قبل على الأقل. ثم ألقينا نظرة على الألبوم، وبحثنا عن اللاعبين المتصدرين لقائمة التهديف حسب معرفتي: ديتر، وجيرد موللر، وتوبنمولر، وبورجسمولر، وفيشر، إلا أن معظمهم لم يكن شعره قصيرًا، أو على الأقل لم يكن قصيرًا بنفس درجة قصر شعر والدي.
قلت: *لقد خسرت*.
وقال هو: *كلا، كلهم يملكون شعرًا قصيرًا*.
قلت: *شعرك أنت قصير، أما هم فيملكون كلهم شعرًا أطول من شعرك*.
أنا أرى، أنهم لديهم شعر قصير، انظر إلى فيشر، إذا لم يكن هذا شعرًا قصيرًا، فأنا لا أعرف شيئًا أيضًا.
*لـ*كونان* شعر قصير، ولكن الحال ليست كذلك بالنسبة لـ*فيشر**.
قال والدي: *كونان لديه صلعة أيضًا*، قالها، وهو يضع يده فوق رأسي، وكان يفعل ذلك كثيرًا، عندما كنت أصغر في السن. عندما كنا نقف سويًّا أمام كانتين بيع النقانق، أو عندما كنا نقابل أناسًا يعرفهم ويقول لهم: *هذا هو هانو،

ابني*. على الأرجح أصبحت كبيرًا، ففي هذا الوقت كنت أصل إلى صدره، ربما ليس إلى تلك الدرجة، ربما أصل إلى مكان ما بين سرته وصدره. وقال: *ربما إنك على حق، ربما يستطيع المرء تسجيل الأهداف وهو بشعر طويل أيضًا*.
ثم تناول إحدى خصلات شعري بين أصابعه، وأدارها، وأصدر شعري صوت طقطقة خفيفة، بالقرب من أذني. مَثَّل هذا الصوت بالنسبة لي حتى اليوم، صوت الوداع. طلب مني أن أطفئ المصباح. إلا أنه بقي جالسًا إلى جوار فراشي لفترة.
عندما رفع نفسه بصعوبة بعد فترة، بأن مال على جنبه، ثم جثم على ركبتيه، لم أكن قد نمت بعد، إلا أنني أعتقد، أنه تصور أنني قد نمت بالفعل. ثم خرج من الغرفة. وفي صباح اليوم التالي، عندما انطلقنا أنا وأمي، لم يكن موجودًا. فهو لم يتحمل على الأرجح أن يرانا، ونحن نغادر المنزل ونركب السيارة.
***
قلت لها: *لم تخبريني قط ما سبب انتقالنا إلى مكان آخر آن ذاك.
كنت أجلس في السيارة غير مُدركٍ أن حياتي كان يجب أن تتغير للأبد وأني ربما لن أرى أبي مرة أخرى.
لقد أخبرتني فقط أنكما لستما على وفاق، أنت وأبي. وكنت أعلم جيدًا أن هارتموت كان السبب، لكني لم أفهم سبب انتقالنا لمكان آخر رغم كون هارتموت قد مات منذ زمن بعيد*.
ثم توقفت. كانت حديقة المدينة العامة *حديقة النباتات القديمة* على يسارنا. قضيت الكثير من الوقت في تلك الحديقة حين كنت طفلًا. وهناك صور لي وأنا طفل صغير في هذه الحديقة، بالتأكيد كان أبي مَن التقطها لي وهي تظهرني في عربة الأطفال الأنيقة الخاصة بي، وأمي تدفع العربة. كانت للعربة عجلات كبيرة ذات حواف من الكروم وغطاء للحماية كذلك، وكان مسند الظهر قابلًا للتعديل والضبط، كنت أجلس محميًّا تحت مظلة صغيرة.
إنها صور من عهد هارتموت، حينما كان يبدو كل شيء على ما يرام بين والديَّ. أم كان ذلك الانطباع خادعًا؟ ولماذا كانت أمي تنظر بشكل جاد هكذا؟ لماذا لم أكن أضحك؟ لماذا لم أحمل الآيس كريم في يدي؟
ما أسخف محاولة التعرف على سعادة أسرة من خلال الصور! كما لو كانت هناك لحظة يمكن الإمساك بالسعادة فيها. وحتى لو كان الأمر كذلك فماذا عن باقي اللحظات؟
كان يومًا من أيام الصيف الحارة، وكان يجلس ويرقد كثير من الناس على المروج وفرشت العائلات الأغطية الكبيرة وكان الأطفال يلعبون في كل مكان. على عكس أمي كنت قد قمت بفتح نافذة السيارة بجانبي.
قالت: *كان هارتموت ذا شخصية مُتسقة، وهو ما جسده بموته. ولكني لم أكن كذلك. كان هذا هو التناقض الذي عشت معه*.
قلت: *لا أفهم، أي تناقض تقصدين؟*.
-*صحيح أنني قد تركت غرفة النوم، هل تتذكر؟ ولكني لم أنتقل بصورة تامة*.

-*بالطبع، لقد كنتما الأبوين الوحيدين من بين كل آباء أصدقائي، اللذين ينامان في غرفتين منفصلتين*.
-*فبدلًا عن أن أكون حاسمة وأنتقل لمسكن آخر، اكتفيت بالنوم على الأريكة. في ما يتعلق بهذا الأمر، كان موت هارتموت بمثابة تحرير لي*.
ولكوني لم أفهم أي نوع من التحرر كانت تقصد، حكت لي أمي ما حدث في ذلك اليوم الذي مر عليه أكثر من ثلاثين عامًا، في ذلك اليوم الذي قمت فيه برفع صوت الموسيقى بشدة. لقد ألح عليها أبي، كان يريد أن يضاجعها رغمًا عنها. استطردت أمي: *لم يتركني إلا عندما بدأت أصرخ، واتهمني بإهمالي لواجباتي الزوجية. فالزوجة يجب أن يجدها زوجها حينما يحتاجها، كما كان يرى*.
لقد فزعت في ما بعد من ردة فعلي وقتها، حينما كنت في السيارة وعلمت بهذا الأمر. انتابني الغضب وارتفعت حرارة سارت عبر عمودي الفقري ورقبتي إلى رأسي.
***
لكني رغم كل ذلك لم أكن غاضبًا من أبي، بل من أمي. قلت لها: *هل فكرتِ يومًا أنه ربما كان يتوق للقرب منك؟ وكم كان صعبًا عليه بلا شك أن يراكِ لم تعودي ترغبين فيه؟ وأن ذلك ربما قد كان محاولة منه ليريكِ كم كان يحتاجك ويريدك؟*.
نظرت أمي إليّ كما لو كانت لم تتعرف عليَّ وعليها التأكد من أني نفس الشخص الذي اعتبرتني إياه حتى اللحظة وليس شبيهًا له، وكما لو كان عليها التيقن من أنني قد كنت لا أزال في رشدي.
سألت: *أتقصد أني كنت المسؤولة عن أن أباك أراد اغتصابي؟*.
الاتصال الجسدي لم يكن مجرد متعة بل بمثابة سلطة كذلك، وهو ما أدركته بمرور الوقت، وارتبطت به كذلك سلطة الامتناع والتي كانت تُمارس في الغالب من قِبل النساء.
ولكن أن تدور في ذهني تلك الأفكار وأنا في السيارة جعلني أدرك في اللحظة التالية كم كنت متشبثًا بالحقيقة التي كنت أصدقها وهي أن أمي كانت المسؤولة عن تدمير أسرتنا.
رأيت عبر النافذة صبيًّا صغيرًا يحاول سويًّا مع أبيه أن يُطيّر طائرة ورقية في الهواء. أمسك الأب بالطائرة وجرى الصبي عبر المروج. وفي تلك اللحظة التي ارتخى فيها الحبل تركها الأب تنطلق، ولكنها لم ترتفع عاليًا بل انغرزت في النهاية بطرفها المدبب في المروج.
سألت:
- *لماذا بقيتِ إذًا بعدها؟*.
- *فعلت ذلك من أجلنا، وحاولت إيجاد طريق لنا كأسرة، لكن هذا لم يكن ممكنًا بعد موت هارتموت*.
***
وبنظرة إلى الماضي يجب عليَّ الاعتراف بأن الانتقال إلى برلين قد أراح

أمي. لقد بدت أكثر استرخاءً، وأخيرًا متحررة بحق، على الأقل بمعنى أنها واصلت كفاح هارتموت ببديهية ووضوح أكثر. لم يعد هناك أسرار. وكانت تتحدث عن هارتموت أكثر بكثير من ذي قبل. كما أسست مع عدد قليل من النساء الأخريات حلقة قراءة للأدب النسوي. كن يلتقين مرة واحدة شهريًّا عندنا ويتحدثن عن الكتب التي قمن بقراءتها. وكانت تخرج أمي من حين لآخر حتى في المساء. ولقد عادت أمي من جديد للعمل كمدرسة، إلا أنها لم تعمل في مدرسة، بل قامت بتدريس الألمانية للأجانب كما كان يفعل هارتموت لأعوام طويلة.

مكثنا في الأسابيع الأولى في شقة إحدى صديقات أمي، واضطررت أنا وأمي أن نتشارك غرفة واحدة، كنا ننام على كنبة نقوم بفردها مساءً، وكانت جل أمنياتي وقتها غرفة خاصة بي، ولقد حصلت عليها بعد وفاة أبي وتركه ليس فقط الشركة والبيت لنا، بل بعض المال كذلك، والذي لم تمسه أمي إلا نادرًا، ومنه قامت أمي على كل حال بشراء الشقة التي عاشت بها حتى موتها.

لقد مر على انتقالنا ما يقرب من ٣٣ عامًا، أو ٣٢ و 2/3 بالتمام. وعندما أنظر إلى تسلسل الأرقام هذا *3-2-2-3*، فإن هذا أيضًا لا يمكن أن يكون صدفة، خاصة لأننا انتقلنا لبيت رقم ١٠، أي مجموع تلك الأرقام.

إنني على يقين من أن أمي لم تفكر في هذا الأمر أبدًا، ولعل الأمر كان أفضل هكذا لأنها كانت تنجح دومًا في إيجاد أي علاقة بين كل شيء وهارتموت.

اتخذت أمي من هارتموت مثلًا أعلى في ما يتعلق بنمط حياتها، وكان ينطبق عليها أيضًا ما كتبته عنه من أنه قد عاش تقريبًا زاهدًا، فقد كانت زاهدة ومتفانية لأبعد حد في مهمتها.

لقد عهدت إليّ بمفتاح الشقة مبكرًا لأنها في كثير من الأحيان لم تكن متواجدة بالمنزل عند عودتي من المدرسة أو من التدريب. وكان دومًا ما يوجد شيء يمكن تناوله على موقد الطبخ، وكل ما كنت أحتاج إليه هو فقط تسخينه.

اعتدت على أن أكون بمفردي ولم يكن هذا سيئًا على الإطلاق، حيث إنني كنت قد أقنعت أمي بشراء تلفاز لي. كنت أحب مسلسل *مسدس لكل الحالات**Ein Colt für alle Fälle* وفي ما بعد أيضًا *ثلاثي مع أربع قبضات*.

كنت أرقد على سريري وأشاهد التلفاز، وأحيانًا كان يأتي أحد الأصدقاء للزيارة فكنا نرقد سويًّا على السرير ونشاهد التلفاز.

وكنت كلما تقدمت في العمر، كان يزداد إعجابي بالحرية التي تتركها لي أمي. وفي المقابل كان عليَّ من حين لآخر الإصغاء إلى مونولوج عن هارتموت أو مساعدتها بمنصات دعائية كانت تقيمها على الأرصفة وأمام مخارج مترو الأنفاق.

إلا أنني كلما كنت أكبر في السن، كنت أزداد حرجًا من أن يكون لي أم تقف في الشارع وتوزع كتيبات عن هارتموت. وأكثر ما كان يحرجني هو أنه كان يتعين عليَّ الوقوف بجانبها في أثناء ذلك.

في وقت ما لم أعد أساعد سوى في تشييد المناضد وبعد ذلك لم أعد أساعد على الإطلاق. كان عليَّ سماع بعض الانتقادات مثل أنها كانت تنتظر مني المزيد من المسؤولية نحو البيئة والحياة وأنني خنت هارتموت وكل ما عاش ومات من أجله. ذات يوم وجدتها تبكي في المطبخ، كانت تجلس على الطاولة ولم ترد عليَّ *مرحبًا*، ولم تبدِ ردة فعل أيضًا حينما سألتها لماذا ليست بالخارج، أبدت رد فعل فقط حينما وقفت أمامها مباشرة. هنا قامت برفع وجهها الباكي.

لم تبكِ أمي خلاف ذلك أبدًا. وكنت متأكدًا من أنها كانت تعلم مدى تأثير دموعها. كانت تبكي عليَّ كما اتضح. كوني -كما ترى- أغيّر من نفسي مع تقدم العمر بشكل جعلها تلقي باللوم على نفسها وتسألها عما إذا لم يكن من الخطأ الانتقال إلى *برلين* وأنه ربما كان ينبغي عليها أفضل الاكتفاء بالأريكة بدلًا عن أن تحيا حياة كما تمنتها لنفسها، تلك التي تكسبها معنى وصلابة، حياة حمتها من الاضطرار للكذب على ذاتها.

لقد أحزنها على ما يبدو أني بشكل جلي لم أفهم علام يدور الأمر وأنه كان ينبغي عليَّ على الأقل -حتى في حالة عدم رؤيتي لأهمية إضفاء مغزى على موت هارتموت- ألا أجعل حياتها موضع تساؤل بسلوكي الأناني والمتغطرس تجاه كل شيء يمثل لها معنى.

كان ينبغي عليَّ أن أضع نصب عينيّ أنها مع كل شيء كانت تفكر فيّ أيضًا دائمًا، وفي مستقبلي، وكانت تتمنى أن أكون على الأقل قادرًا على القليل من نكران الذات وأستطيع التفكير أيضًا في الآخرين.

نتيجة لذلك تقاربنا أنا وأمي مجددًا تدريجيًّا، وهو ما يعني أنني قد عدت أساعدها من وقت لآخر، ولكنها لم تعد تطلب مني المساعدة إلا نادرًا.

كان واضحًا جدًّا أن أبي ينقصني رغم أني كنت قد اعتدت على برلين سريعًا ولم أكن قادرًا بعد مرور القليل من الوقت على تصور العيش بمدينة أخرى. وهل يمكن لأي طفل ألا يفتقد أباه؟ إلا أني قد لمت على أمي بعدها بسنوات أنها حرمتني أبي. بعد مغادرتنا تصورت أنه مجرد انفصال مؤقت. وعندما كنت أهاتف أبي كان كثيرًا ما يقول لي إننا سوف نلتقي قريبًا، في العطلة الصيفية على أقصى تقدير.

ولكن بعد ذلك وقع هذا الحادث المأساوي. كنت أقنع نفسي في البداية أنه ربما كان يتفادى حيوانًا، حيث لم أستطع إيجاد تفسير آخر لانحرافه عن الطريق. في مخيلتي كانت غزالة هي المسؤولة، وذلك بظهورها فجأة على الطريق. وتخيلت أبي أراد أن ينقذ حياة حيوان فلقي مصرعه في أثناء ذلك.

لم تأتني فكرة أن الأمر ربما كان مختلفًا تمامًا إلا بعد سنوات وذلك في أثناء مشاجرة لي مع أمي. كان الحديث حول دراجة كهربية كنت تمنيت الحصول عليها في عيد ميلادي السادس عشر. رأت أمي رغبة شاب في الحصول على دراجة كهربية ببضعة آلاف مارك تعجرفًا.

قلت لها إن أبي كان سيشتري لي دراجة كهربية بكل تأكيد. عندها قالت إن

أبي لم يعد موجودًا وإن الحادث الذي تعرض له بالذات يظهر مدى الخطورة على الطُرق، وهي لذلك تمنعني من امتلاك دراجة كهربية. هنا قلت لها إنه لم يكن حادثًا لقي فيه أبي مصرعه بل إنه سار عمدًا نحو شجرة لأنه لم يستطع تحمل أنك تركتِه.
قالت: *كيف يمكنك قول شيء كهذا؟*.
قلت: *وكيف يمكنك أن تكوني متأكدة هكذا من أنه كان حادثًا؟*.
ولأنها لم تقل شيئًا بعدها، لم أتخلص من فكرة أني قد اقتربت من الحقيقة التي تحاول أمي إخفاءها عني.

***

في الطريق إلى مقابر *بيرجفريدهوف* مررنا فوق جسر *نيكربروكه* ووجب عليَّ تذكر اليوم الذي أصبحت فيه روبن هود وكل الأيام الأخرى التي انطلقت فيها من هنا ويدي في يد أمي إلى وسط المدينة في حشد مع متظاهرين آخرين.
لم أشترك أنا أو أمي في الهتافات الجماعية، كنا نسير معهم دومًا صامتين فقط. ويصعب عليَّ حتى اليوم أن أمكث في حشد من الناس، وغالبًا ما كنت أتجنب المظاهرات كبالغ. فقط مرة أو مرتين شاركت في مسيرات احتجاجية مضادة للطاقة النووية.
كان كثير من العائلات تشارك مع أطفالها وكانوا يرفعون لافتات شفافة قاموا بتلوينها بأنفسهم وكانوا يهتفون *أوقفوها أوقفوها!* كان لدي شعور بأن الأمر كان بالنسبة لأغلب الأطفال نوعًا من أنواع الحدث المُثير، ولربما كان يرجع ذلك إلى أنهم لم يكونوا ملزمين بانتظام بالمساهمة في النضال من أجل عالم أفضل.
لم أشعر بالارتياح وسط كل تلك العائلات وسألت نفسي أي من هؤلاء الأطفال شارك طواعية في تلك المظاهرة، وكم كان سيكون العدد إذا ما تُرك لهم الاختيار؟ ورأيت نفسي في يد أمي وكنت أفكر في أنني كيف تحملت كل هذا، وأنه ولا حتى بالونة كانت ستغير من حقيقة أنه كان من الأفضل لو مكثت بالمنزل.
صعدنا بالسيارة إلى المقابر، وكنت سعيدًا بأني أجلس أمام عجلة القيادة حيث إن حافة الطريق اليمنى كانت متوقفة تقريبًا بطول الطريق إلى أعلى بسبب السيارات المركونة، لدرجة أن الطريق كان ضيقًا بشكل لا يسمح بمرور أي سيارة قادمة في الاتجاه الآخر، وبالتالي كان يتعين على إحداهما السير للخلف والذي كان ربما سيثير أعصاب أمي. ولكن بدلًا عن ذلك استطاعت أمي الاستمتاع بالنظر إلى *توبينغن* بكل هدوء.
سألت أمي: *هل قمت حقًّا بعمل كل هذا عن طيب خاطر؟*.
سألت: *ماذا تقصد؟*.
- *كل شيء، المظاهرات، توزيع المنشورات والفعاليات، كل شيء*.
اعتقدت أنها ستنظر لي باستنكار وستسألني عما دفعني للتفكير هكذا، وأنه

في النهاية ليس من الضروري حب المرء لما يقوم به طالما لا يفعله لنفسه بل لخدمة شيء آخر. ولكنها فاجأتني وقالت: *ليس من الممتع أن تقف بمفردك أو مع أحد في المنطقة الخاصة بالمشاة وتحاول إقناع الناس بأن طريقتهم في العيش خاطئة، فأغلبهم لا يريد سماع ذلك. وعلى أي حال فلم يكن الأمر ممتعًا لهارتموت كذلك، وهو ما لاحظه المرء عليه أيضًا.
وأتعلم أنه من العبث أن الناس تنتظر الوجه البشوش، فعندما تعلن لهم نهاية العالم يجب أن تكون مبتسمًا وصافي المزاج. أما هارتموت فقد كان جادًّا أكثر من اللازم، وقد عتب عليه البعض أنه كان دائمًا عابس الوجه كما لو كانت الدنيا قد أمطرت لسبعة أيام متواصلة.
ليس جميلًا أن يتم ردك ورفض طلباتك، بل أمر محبط. ولكن في النهاية هذا هو مصير كل هؤلاء الذين يقومون بنشر حقائق غير مريحة، لكن ينبغي على المرء ألا ينسى أبدًا لماذا يقوم بفعل هذا كله حتى إذا كان مهددًا*.
كنا في أثناء ذلك قد وصلنا إلى المقابر، وكنت قد وجدت مكانًا لركن السيارة قبالة المدخل. أوقفت المحرك ونظرت إليها وسألتها: *مهددًا؟*.
أجابت: *نعم.. مهددًا*.
وحكت عن ذلك اليوم الذي قامت فيه بقيادة السيارة للخلف للخروج من الجراج ولكن السيارة لم تتوقف عند الضغط على الفرامل وانزلقت عبر حجر الحدود قبل أن تتوقف على الجهة الأخرى من الشارع.
وقد تبين في ما بعد أن خرطوم الفرامل كان مقطوعًا، إلا أنها وأبي كانا لهما وجهتا نظر مختلفتان في ما يخص الفاعل، فأبي كان يرى أنها فعلة أحد النموس، أما أمي فقد كانت مقتنعة أنها فعلة قاتل، لأن هارتموت كان قد حصل قبلها على بريد به تهديدات. وكذلك أمي كانت قد حصلت على خطاب به سطر واحد: *إن محطة طاقة نووية في حديقة المنزل أفضل عندي من ذوي الشعر الطويل في الشارع* يبدو أن أمي كانت تعتقد، أنه كان يوجد جيران لم تعجبهم لقاءات دائرة العمل *حماية الحياة*.
كانت أمي مستاءة من أبي وذلك لأنه رغم أخذه أمر خرطوم الفرامل التالف محمل الجد، إلا أنه لم ينطلق من رغبة حاسمة للتصرف، بل اتسم بتراخي الشخص الذي لا يكاد يستطيع التصرف. قالت: *شعرت أن أباك قد تخلى عني، كان هذا هجومًا على حياتي، على حياتنا، حيث كان من الممكن أن تكون جالسًا معي في السيارة، وأبوك لم يرغب في سماع شيء عن هذا الأمر. لقد كان صعبًا عليَّ غفران هذا له*.
أعترف: أني كذلك أشك في نظرية الهجوم هذه، فلم تكن حماسة أمي مؤثرة وهامة لهذا الحد ولم تكن كذلك شخصية محورية للمقاومة. فاسم مارتا كيلستربرج لم يذكر لا في الصحف ولا التلفاز. لم أستطع أن أصدق أنه يمكن لأحد أن يرى ضرورة التخلص منها وإزاحتها من الطريق لأنه يعتبرها تهديدًا. ولكني لم أرغب أيضًا في إعطائها نفس الشعور الذي كما يبدو قد وصلها من أبي وقتها.

لا أعلم لماذا أصر هكذا على تهوين الأمر، ولم يظهر لها على الأقل أنه يأخذ مخاوفها على محمل الجد. فلربما كانت ستكون هذه إمكانية للتقرب لها خطوة، وليريها أنه يقف بجانبها عندما أصبح الأمر جادًّا. ولكن أبي كان عقلانيًّا أكثر من اللازم ولم يكن لديه مجال للهذيان أو لهذا النوع من نظريات المؤامرة.
وربما أثبتت له أمي باعتقادها هذا أنها قد فقدت نظرتها للواقع وأن هارتموت قد كان يعمل على سلب أمي عقلها.
على عكس أبي آنذاك، فقد كنت أكثر حذرًا ولم أرغب في التعبير عن أي شك في قواها العقلية.
- *لماذا كنتِ متأكدة من أنه كان هجومًا؟* كنت أريد أن أعلم. نظرت إليّ من الجانب ولكن بلا لوم كما هو معتاد عندما كنت أطرح هارتموت أو أفعالها للتساؤل، بل بالأحرى بنظرة متفحصة.
كنت على يقين من أن أمي تجاهلت سؤالي عن عمد، لكنها قالت بعد ذلك: *كانت السيارة تقف في الجراج لسنوات طويلة دون أن يستجم عليها من قبل نمس ما، ولكن بالذات بعد بضعة أيام من استلام الخطابات خرج النمس من جحره وقام بقرض خرطوم الفرامل. يا لها من صدفة غريبة، أليس كذلك؟*.
- *ومن الذي كان مسؤولًا عن هذا الفعل في رأيك؟*.
- *مجموعة هوفمان للألعاب القتالية*.
لم أكن أسمع حتى ذلك الحين عن هذه المجموعة من قبل، وكما قرأت عنها لاحقًا، كانت تلك مجموعة رياضة قتالية يمينية متطرفة كانت تُعتبر تنظيمًا إرهابيًّا وقد تم حظرها في عام ١٩٨٠.
سألتها: *وكيف توصلتِ إلى ذلك؟*.
- *كان لهم آنذاك علاقات في *توبنغن*. وكان هناك هذا الاتصال الهاتفي، هل ما زلت تتذكر؟ لقد قمت برفع السماعة، ولكن لم يقم أحد بالرد*.
كت أتذكر جيدًا: لقد قلت *آلو، هنا عائلة كيلستربرج*، ولكن لم يجب أحد. لم أفهم ما هذا التصرف، فالمتصل لم يخطئ الرقم وإلا كان قد اعتذر وأنهى المكالمة.
نزلت أمي السلم ورأتني والسماعة على أذني، وسألتني هامسة عمن يتصل، فهززت منكبي، ثم أخذت أمي السماعة من يدي وسألت: *آلو، من يتكلم؟* وعلى ما يبدو لم تتلق هي الأخرى إجابة.
قامت بوضع السماعة. وسألتها: *من كان هذا؟*.
قالت: *لا أعلم، بالتأكيد بعض الشباب الذين أرادوا المزاح معنا*.
ما زلت أذكر أنني قد فكرت في أنه ربما كان أحدًا من مدرستي، ولكن في نهاية المطاف ربما كان هذا أي شخص حيث إن رقمنا كان موجودًا في دليل الهاتف تحت اسم *كيلستربرج، كورت ومارتا*، ولم يكن هناك الكثير من كيلستربرج، على الأقل في *توبنجن*.

قالت أمي: *كانت المكالمة بمثابة تهديد، وكان هذا واحدًا من مجموعة هوفمان للألعاب القتالية*.
قلت: *لكن حسبما أتذكر لم يقل أحدٌ شيئًا، فكيف عرفتِ أنها كانت تلك المجموعة بالذات؟*.
- *لأنها كانت معروفة وقتها بإرهاب الناس المختلفين معها في الفكر*.
- *وكيف ينبغي لهم أن يفكروا فيكِ؟*.
- *كانوا على علم بمجموعة العمل *حماية الحياة* وأنها موجودة بمنزلنا وكانوا على دراية بهارتموت*.
- *هل ذهبت للشرطة؟*.
- *أتعتقد أن الشرطة وقتها كانت ستهتم بأمر كهذا؟
وحتى لو، ما الذي كان يمكنها فعله؟*.
لم تترك أمي -كما افترضت- الهجوم على حياتها أن يحيدها عن طريقها.
لقد أثرت فيّ هذه الشجاعة من ناحية ولكن من ناحية أخرى قد أفزعني استعدادها للتضحية، لقد استمرت رغم أنها إذا ما تتبع المرء رؤيتها حتى النتيجة- لم تُعرض نفسها فقط للخطر بل نفسي أيضًا. أنا على يقين أن أبي كان سيحرم عليها الاستمرار إذا ما كان تعامل مع نظرية الهجوم التي افترضتها بجدية.
كان سيطرد هارتموت من المنزل *وهو ما اضطر إلى فِعله لاحقًا*، لأن تعريض الأسرة لمثل هذا التهديد كان سيكون في عينيه تصرفًا غير مسؤول.
من هذا المنطلق يمكنها حقًّا أن تكون سعيدة لأنه لم يصدقها.
لكن ربما كان عليه أيضًا أن يقف بجانبها فقط، ربما كان سيكفي حقًّا مجرد قوله إنه قد صدقها. ولربما كان يمكن أن يكون هذا لحظة للترابط بين أبي وأمي. ولكن ربما كان هذا أيضًا متأخرًا جدًّا لذلك. نعم أم لا.
سألتها: *ألم تخافي؟*.
قالت: *بلى، يمكنك أن تخاف ولكن ليس مسموحًا لك أن تستسلم للخوف*.
قلت: *أقصد حقيقةً الخوف عليَّ*.
- *لقد فكرت فيك مع كل شيء، كنت أريد عالمًا أفضل من أجلك، هذا الذي يبتغيه كل أبوين لأبنائهما، لكن فقط القليلون الذين يفعلون شيئًا لتحقيق ذلك. فالآباء عليهم مسؤولية تجاه أبنائهم ويشمل هذا أن يتركوا لهم عالمًا جيدًا وآمنًا*.
ربما جاءتني هذه الفكرة عند الكتابة، لم يكن العالم ببساطة بنفس الحجم للجميع ولربما كانت هذه هي المشكلة الرئيسة في الأساس. فحينما تحدثت أمي عن عالم جيد وآمن، كان ينتهي العالم في تصوري عند سور حديقتنا، وكنت أعتقد أن مسؤولية الأبوين تعني في المقام الأول الاعتناء بهذا العالم المنزلي، بأن يكون سليمًا وآمنًا.
لكن ربما لا يمكن أن تتوحد العوالم، ربما كانت -بلغة الهندسة- مليئة بدوائر بلا تقاطع مشترك، ومن اتخذ عالمًا بعينه كمعيار، لم يتمكن من الإبقاء على الآخر

أيضًا في مجال رؤيته.
وربما كان نصف قطري صغيرًا للغاية وربما كانت هذه بالضبط مشكلة الأطفال، وهي أن نصف قطرهم صغير جدًّا بقدر لا يتيح لهم فهم العالم.
***
كَون أبي وهارتموت يرقدان في نفس المقابر لا يمكن أن يصفه المرء سوى بمفارقة ساخرة. يرقد هارتموت على بعد خطوات من إرنست بلوخ في القسم ٥، وأبي في القسم ٥٢، لا يفصلهما سوى مئتي متر.
المرة الأخيرة التي يمكن أن يكونا قد رأيا بعضهما بعضًا فيها هو ذاك اليوم الذي أوضح أبي فيه أنه لم يعد يحتمل تواجد هارتموت في بيته أكثر من ذلك. في النهاية، لقد ساعدت في أن يرحل هارتموت من شقته، حتى لو لم تكن هذه هي نيتي وقتها، على الأقل ليس عمدًا.
كون أبي قد اتخذ من واقعة اشتركتُ فيها ذريعة، فهذا لا يمكن تفسيره سوى بأن هذه الفكرة قد راودته كثيرًا قبلها. كنت أنا فقط بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير. كان يمكن لأبي من وجهة نظره أن يكون لديه أسباب كافية مسبقًا ليُقرب له أمر الخروج من المنزل، أخيرًا وليس آخرًا الإضراب عن الطعام الذي أراد القيام به عندنا.
عندما أفكر لماذا لم يُلق به أبي في الشارع آنذاك بالفعل، فلا أجد تفسيرًا لذلك سوى أنه ربما كان قلقًا من أن أمي كانت ستستاء منه. لعله كان يأمل في أن أمي ربما سوف تُقدّر أنه قد ترك هارتموت يستمر في العيش معنا من أجلها، رغم أنه كان يعتبره واهمًا وربما تهديدًا لزواجه كذلك.
ربما كان يأمل في أنها سوف تشكره. ما زلت أتذكر صبيحة يوم ما في المطبخ حينما وضّح لها أبي أن البيت الذي يعيش فيه هذا المدعو جروندلر لا يزال بيته، وقالت أمي إن أقل شيء يمكنه عمله هو أن يترك إنسانًا متفانيًا هكذا مثل هارتموت يسكن تحت سقف بيته. بهذا يكون قد فعل شيئًا جيدًا ما دام لا يبذل نفسه من أجل عالم أفضل بطريقة أخرى. بالإضافة إلى ذلك فإن الأمر ليس كذلك حيث إن هارتموت يسكن على نفقته لأنه في النهاية يسدد إيجارًا. وقال أبي إن لديه خمسين موظفًا لديهم أسر ودخل ثابت بفضله، وماذا تعتقد أمي بماذا سيجيبون إذا ما سألهم أيهم أهم بالنسبة لهم: فرصة عملهم أم مفاعلات نووية أقل.
وأضاف أبي: *سيكون من الأفضل أن تفكري في هذا الأمر. هناك بعض الناس الذين يحيون حياة أفضل بفضلي*.
وأنا أتساءل من يمكنه أن يزعم أن جروندلر هذا يفعل ذلك أيضًا. من منظورنا اليوم فإن أبي قد أبدى تسامحًا كبيرًا في التعامل مع هارتموت بشكل يدعو للتعجب. ربما كان لديه الأمل بأن تلك الحالة ستنتهي بمجرد أن تعي أمي أن هارتموت واهم ومجنون لا يأخذه أحد محمل الجد.
وُضعت القشة التي قسمت ظهر البعير والتي كانت حاسمة في منتصف شهر مايو. كان أبي قد حدد مهلة قدرها أسبوعًا لخروجه من المنزل.

كنت في ذاك اليوم غاضبًا من أمي لأنها لم تحضرني من التمرين. كنت قد أصبت في قدمي، ليست إصابة خطيرة كان باول قد داس على قدمي بحذائه ذي البروز، وصار أصبع قدمي الكبير أحمر بعض الشيء، وكان يؤلمني عند الضغط عليه. في أثناء المباراة كنت أعض على أسناني، ولكن عندما خرجت من غرفة تبديل الملابس ولم تكن أمي موجودة -كان أبي الذي يحضرني عادةً لديه في ذلك المساء ميعاد هام في الشركة- شعرت بأني قد تركت وحيدًا، وهو ما كنته بالفعل.
في النهاية كان الآخرون جميعهم قد غادروا. انتظرت قليلًا قبل أن أمشي على قدمي في طريقي إلى البيت. وهذا أيضًا لم يكن سيئًا، فالأمر قد استغرق فقط نصف ساعة، لكن الوحدة، والطريق، وإصبع القدم كلها أشياء قد اختلطت معًا مكونة مزيجًا من مشاعر خيبة الأمل، والألم، والغضب. خاصة عندما لم يأتِ أحد بعد دق الجرس عدة مرات وعندما رأيت عبر نافذة البدروم أن أمي تجلس بجوار هارتموت إلى طاولته الصغيرة على آلة كاتبة. استغرق الأمر برهة حتى لاحظتني أمي ولوحت لي بيدها وأشارت لي بضرورة الدخول. ثم قامت بفتح باب المنزل ولم تسألني قط من أين أتيت، بل قالت إنها لا بدَّ أن تكمل كتابة خطاب موجه إلى هيلموت شميدت والذي تريد إرساله في اليوم التالي، وهو الأمر الذي ربما تحتاج مساعدتي فيه.
ذهبت بعد ذلك إلى أعلى وقمت بتحضير ساندوتشين لي وقمت بوضع لاصق طبي على إبهام القدم، حتى يلفت شكلها النظر إليّ سريعًا.
عندما جاءت أمي بعد وقت قصير، كنت أعرج دون جواربي في الغرفة، فإذا بها تسألني عما حدث، فقلت لها إن باول قد داس على قدمي في المباراة، فردت بأنها لذلك أيضًا لا تحب كرة القدم.
ولحسن الحظ أتى أبي بعدها في ميعاده إلى المنزل لكي يراني كيف أعرج وأنا ذاهب إلى سريري بعد غسل أسناني. قال: *تبدو وكأنها إصابة خطيرة*. أومأت برأسي. جاء إليّ في الغرفة وتفحص إصبع القدم وقام بالضغط على الظفر وسأل عما إذا كان يؤلمني.
قلت: *لا بأس*.
ثم سأل عن كيفية حدوث هذا بالضبط. وحكيت له عن باول وعن أني لم ألحظ شيئًا واستكملت اللعب وأني حتى قد عدت إلى البيت سيرًا على الأقدام. وأراد أبي أن يعرف لماذا مشيت؟
وقلت إن أمي كان عليها أن تكتب خطابًا إلى هيلموت شميدت، ولذلك لم يكن لديها الوقت للمرور عليَّ وإحضاري.
مسح أبي على رأسي ونفخ على الإصبع وقال إنه يجب عليّ أن أنام الآن، وأغلق باب الغرفة خلفه.
سمعت صوتي والديّ يأتيان من المطبخ، وكانا عاليين بدرجة سمحت لي بسماعهما، لكني لم أستطع فهم ما كانا يقولان.
في عصر اليوم التالي جاءت أمي إلى حجرتي وجلست على السرير وكنت

في تلك الأثناء أجلس على المكتب وأرتب بطاقات الصور الخاصة بي، فقالت إن هارتموت سوف يغادر البيت، حيث إن أبي لا يرغب في بقائه عندنا أكثر من ذلك، وأنه قد ذهب إليه مساء أمس ليخبره بذلك.
لكن هارتموت له داعمون كُثر، ولقد وجد له أحدهم حجرة جديدة ليست بعيدة إطلاقًا عنا. اتضح لي أن خروجه له علاقة بإصبع قدمي، وأحزنني هنا أنني لم أقصد إخراجه، لكني أيضًا لم أكن حزينًا جدًّا بسبب ذلك. وسألت إذا ما كان سيسكن عندنا شخص جديد، فقالت أمي: *مبدئيًّا لا*. ثم خرجت من الغرفة ولكنها ظلت واقفة عند الباب، ثم استدارت نحوي وقالت: *هاتّو..*. ومِن ثَم استدرت أنا الآخر، فقالت لي: *أردت أن أخبرك بأن هارتموت لم يكن السبب في أني لم أحضرك. لقد نسيت ببساطة أنه كان لديك تمرين*.
ما زلت أذكر أنه كان عندي الأمل في أن تعود الحياة دون هارتموت كما كانت دونه من قبل. ولكن في الحقيقة لم يتغير شيء خلاف أن هارتموت لم يعد يسكن في نفس البيت. منذ ذلك الحين فصاعدًا لم أعد أراه هو فقط نادرًا بل أمي كذلك.
في الطريق إلى المقابر سألت نفسي إذا ما كانت الزيارة سوف تعطيني إشارة عن أي من الاثنين يعني أكثر لأمي. فكرت في أن الواقع وحده، ويتمثل في مقبرة أيهما التي زارتها أولًا وكم من الوقت قضته عند كل مقبرة، كفيل بإعطائي تلك المعلومة.
وشعرت بأني كنت على حق، حيث إننا ذهبنا في البداية إلى هارتموت وكلفتني أمي بوضع زهور الأقحوان التي كنا قد اشتريناها من حديقة المقابر على قبره حيث كان من الصعب عليها الانحناء.
كان مكان المقابر مريحًا وبه أشجار عالية ويقع على جبل *جالجينبرج*، على ارتفاع أربعمئة متر من المدينة، حيث لا يصل ضجيج المرور. وهو أيضًا فسيح الأطراف فيذكرك بمنتزه الغابات.
كنت أسمع المياه تتساقط من أحد الصنابير، فعلى ما يبدو كان هناك شخص ما يملأ إبريقه، فضلًا عن الصرير الخافت لخطوات على الحصى.
كان يومًا حارًّا والرياح كادت تكون ساكنة، فقط من حين لآخر كانت تُداعب إحدى النَّسمات وجهي برفق. وقفت أمي بجانبي دون الحاجة لدعمها. بدا شاهد المقبرة كما لو أن قطعة قد كسرت منه.
كانت هناك شجيرة تم غرسها على يسار الشاهد والتي قد نمت جيدًا وطواعية لأعلى بارتفاع مترين على مدار السنين. وعن طريق هذه الشجيرة كان يمكن للمرء التعرف على قبر هارتموت من على بعد. أصبحت الكتابة الموجودة على الشاهد باهتة بعض الشيء، ولكنها كانت لا تزال جيدة للقراءة.
- لا أعلم من صاحب هذه الجملة: *حياة من أجل الحقيقة وموت ضد الكذب*.
قالت أمي: *لا يمكن للمرء تلخيص حياة هارتموت بصورة أفضل من ذلك.
كان هارتموت متسقًا لأنه أراد أن يظل صادقًا. كان يعلم أن الثقة تتطلب المصداقية وأن المصداقية تتطلب الاتساق. أتعلم أن احتجاجه كان موجهًا ضد

الكذب أكثر منه ضد الطاقة النووية؟ لأن الكذب هو السبب في الدمار وتحطيم الذات*.
ثم قالت، لا أعلم له أم لي، لأنها مرة كانت تلتفت نحوي ثم بعدها كانت تعاود الالتفات نحو هارتموت:
تمنيت لو أنه قد عاصر هذا، ثم استطردت قائلة وهي تنظر نحو قبر هارتموت: *لم يذهب كفاحك سُدًى، فقد كانت شعلتك مرئية، ومن يعلم أي التداعيات تقف خلف بعض القرارات ولكني لا أستبعد أن موت هارتموت قد لعب دورًا في ذلك، حتى لو أنك لا تريد أن ترى الأمر كذلك*.
ولقد تم أخيرًا إقرار التخلي عن الطاقة النووية، بعد وفاته بأربعة وثلاثين عامًا تقريبًا. كان سيعاصر هذا الحدث في عمر واحد وثمانين عامًا، ولكن ربما لم يكن سيعايشه لأن الأمر دون وفاته كان سيفقد ضرورته المُلحة، وهذا بدوره يثبت أنه قد فعل ذلك من أجلنا.
بالنسبة لنا فقد بدأت حقبة زمنية بلا طاقة نووية، بفضله. لا أعلم إذا ما استطاع آنذاك تصور أن هذا قد يحدث حقًّا، إذا حافظ، بعد كل ما مر به وعايشه، على إيمان كافٍ بالأشخاص، خاصة بالساسة، وبأنهم سيعودون لرشدهم ويقومون بإنهاء زمن الطاقة النووية.
أتخيل كيف كانت ستكون ردة فعل أمي قبل ذلك بعام، حينما لم يكن هناك نية للعدول عن أن الحكومة التالية ربما تقرر التخلي عن التخلي المزمع.
وأسأل نفسي كيف كانت أمي بدورها ستشرح الأمر لهارتموت بنظرة إلى الوراء. ربما على هذا النحو: *إن فكرة الإيمان بالساسة والأشخاص كانت خطأ، لا أعلم ما الذي ينبغي عليَّ قوله لك، فالطاقة النووية ليست في نهايتها، ولكن هذا ليس له علاقة بموتك، فتضحيتك ستؤتي ثمارًا قريبًا. فقط لا يزال الناس غير ناضجين أو مستعدين*. الفرصة الوحيدة هي الإبقاء على ذكرى مماتك كعلامة فاصلة.
ظننت أنها قد نسيت أبي، ولكنها أمسكت بيدي وتوجهنا إلى قبره. تسببت الأرض غير الممهدة في صعوبات لأمي، لذلك كنا نسير ببطء شديد. لا أدري إذا ما كنت سأجد الطريق بمفردي، حيث كانت زيارتي الأخيرة لقبر أبي منذ أمدٍ بعيد. لكن أمي لم تحتج إلى التفكير، قادتني إلى هناك مرورًا بكنيسة الغابة الصغيرة بطول طريق الحصى. تحت إحدى أشجار البلوط، في مكان بعيد بعض الشيء عن المقابر الأخرى، برز حجر مستطيل الشكل ومائل قليلًا من الأرض. رمادي اللون، متآكل، أمامه قطعة أرض محدودة بها حوض حصى لا يحتاج إلى عناية كبيرة: كورت كيلستربرج، ٣/٢/١٩٣٣ – ٩/٥/١٩٧٩.
تتميز شواهد القبور بأنها لا تعطي معلومات عن سبب الوفاة، فالمتوفون ينبغي أن يرقدوا في سلام، حتى لو كان موتهم مفجعًا. أتخيل لو كان يتم كتابة كلمة على شواهد القبور: فشل في القلب، سرطان، وقوع على السلالم، قُتل. حسبما ترى أمي، كان سيكتب حادث طريق على قبر أبي. ولربما هذا صحيح وأنا المخطئ في اعتقادي بأنه كان انتحارًا.

ودون أن اتفوه بهذا، قالت أمي: *أبوك لم ينتحر، وأنت تعلم هذا، لقد كان حادثًا*.
وأنا أعلم أنها كانت ترى الأمر كذلك، فقد كانت تقول لي دومًا إنه كان حادثًا. وأنا لا ألومها على الإطلاق، فقد كان الأمر جيدًا على هذا النحو. فكيف ينبغي لطفل أن يتعامل مع كون أبيه قد انتحر؟ ولكني فقط أود أن أعرف إذا ما كانت حقًّا مقتنعة بذلك، إذا ما كان ليس لديها أدنى شك في ذلك، أو إذا ما كانت فقط قد أقنعت نفسها بأمر الحادث هذا لأنها لم تكن لتتحمل غيره. فالحادث أفضل بكثير من الانتحار، حيث لا يحتاج المرء للتفكير في الأسباب.
وقفت أمام قبره ممسكة بذراعي اليمنى بقوة، وكانت صامتة. فأمي لم تتحدث كثيرًا عن أبي مطلقًا. كان الأمر كما لو أنها قد أنهت علاقتها به، أو ربما أنها أرادت فقط ببساطة ألا توقظه في ذاكرتي باستمرار، أو أن تتذكر أنها هي من تركته وتخلت عن الأسرة.

***

لم أر أبي مرة أخرى بعد مغادرتنا. ومن ثم كانت تلك الحقيقة تدحض نظرية الانتحار، لأني لا أستطيع تخيل أنه لم يكن يريد أن يراني ثانيةً. فلقد بقينا على تواصل، أنا وهو، وكنا نهاتف بعضنا بعضًا أسبوعيًّا، كما كنت أكتب له من حين لآخر، وحكيت له عن نادييّ الجديد، *إف إس في هانزا ٠٧*، وأنني سريعًا ما أصبحت لاعبًا أساسيًّا فيه، وحكيت له أيضًا أنني لست الصبي الوحيد ذا الشعر الطويل وأني أحرز هدفًا في كل مباراة تقريبًا، واحدًا على الأقل.
وسألته متى سيأتي لزيارتنا، فقال، قريبًا. وبعدها، في يوم أربعاء، بتاريخ ٩ مايو ١٩٧٩، قالت لي أمي، عندما عدت من المدرسة، إنها يجب أن تخبرني شيئًا، شيئًا حزينًا. أنزلت عني حقيبة المدرسة وساعدتني في خلع سترتي، ثم عانقتني، ضمتني إليها بقوة. بعد ذلك جلست القرفصاء، تمامًا مثل ذلك اليوم الذي أشعل فيه هارتموت النار في نفسه، ولكن لأني كنت هذه المرة واقفًا، نظرت إليّ عاليًا وقالت: *لقد أصاب أباك مكروه. لقد تعرض لحادث بالسيارة*.
لم أستطع تخيل أن أبي قد تعرض لحادث سيارة، قد تكون هذه فكرة غير معقولة ولكنني في سيارة أبي كنت أشعر بأمان أكثر من أي مكان آخر. وهنا توجد آلاف الاحتمالات لعمل حادث بالسيارة دون أن تكون أنت المتسبب في حدوثه. فإحصائيًّا لا توجد وسيلة تنقل أكثر خطورة، فحتى يومنا هذا لا يزال أربعة آلاف شخص يلقون مصرعهم سنويًّا في حوادث السيارات. حتى في السرير لم أشعر يومًا بأني أكثر أمانًا، حيث كان مظلمًا وكان الظلام يزيد مخاوفي.
أتذكر أنني أحيانًا كنت أرقد مثل المتجمد تحت غطائي لأني قد سمعت صوتًا في مكان ما في الشقة، ولم أكن أجرؤ على التنفس ولا حتى النهوض والتحقق. ومع الخبرة كنت أعلم أنه سيكون لزامًا عليَّ رغم ذلك النهوض في وقت ما لأن القلق سوف يؤثر على المثانة التي ستبدأ بالضغط ووضعي أمام

القرار إما أن أتمالك الشجاعة وأذهب إلى المرحاض وإما أن أتبول في مكاني ببساطة.
كنت ماهرًا في كبح الجماح، وكنت أحيانًا أنجح في ذلك حتى مطلع الفجر، لكنها كانت ساعات مؤلمة للغاية. في سيارة أبي كنت في المقابل محميًّا من جميع المخاوف.
من الخطأ أن أكتب أنني علمت أنه لا يمكن أن يحدث لي شيء، حيث ينطوي هذا على أنني قد فكرت في إمكانية حدوث شيء لي، وهو ما لم أفعله قط. لذلك فقد احتجت بعد ظهر ذلك اليوم لوقت طويل لكي أفهم ماذا حدث، وقت طويل لدرجة فقدت عندها أمي الصبر وسألتني: *ألا تريد أن تفهم؟* ولكنها سرعان ما استعادت قواها في اللحظة التالية وقالت: *إنها تعلم كم هو صعب أن أستوعب الأمر*. أنصت لها فقط، ولأن أمي كانت تكرر كل شيء عدة مرات، فلقد استنتجت ما حدث.
يبدو أن أبي كان يسير بسرعة عالية وانحرف عن الطريق عند أحد المنحنيات واصطدم بشجرة. يبدو هذا أمرًا عاديًّا، فكثيرًا ما سمعنا عن مثل هذه الحوادث بما لها من تفسيرات مختلفة لكيفية حدوثها. لحظة إهمال واحدة، مثل الاسترسال مع الأفكار أو تغيير قناة المذياع. أو البديل الأكثر بطولية: تفادي طفل جاء في طريق السيارات لسبب غير معروف أو حيوان ظل واقفًا في مكانه على الطريق بسبب خوفه من السيارات المسرعة، أو فقدان السيطرة بسبب ارتفاع مستويات الكحول أو احتشاء القلب، وبدا لي في وقت ما أن التفسير الأكثر احتمالًا هو: عن عمدٍ.
قبل بضع سنوات، عندما جئت إلى *توبنجن* لحضور عيد ميلاد باول الأربعين، مررت بالسيارة لأول مرة بمكان الحادث واستطعت في نهاية المطاف فقط التكهن بالمكان الذي وقع فيه الحادث بالضبط، نظرًا لوجود منحنيين أو ثلاثة منحنيات على طول المسافة والتي لم تكن ضيقة جدًّا، بل كانت كباقي المنحنيات الأخرى التي لا يتطلب الأمر التحذير منها.
وقد أكون وجدت الشجرة، ولربما اكتشفت بعد كل هذه السنوات ندبة على الجذع كانت لا تزال باقية أو ربما لا، فأنا لا أعلم سوى القليل جدًّا عن الأشجار بالقدر الذي لا يمكنني معه حتى قول كم المدة التي تحتاجها شجرة لكي تتخطى الأثر الناتج عن حادث ما. لم أتوقف، فقد أفزعتني فكرة أن أبي لم يترك وراءه سوى حزّ في شجرة. كنت بالأحرى أتساءل إلى أين كان يود أبي أن يذهب، وهنا اتضح لي كم كُنت لا أعرف عن حياة أبي سوى القليل.
كيف كان يقضي أيامه عندما لا يكون في الشركة؟ هل كان يجوب الشوارع فقط من أجل الهروب من الوحدة؟ وهل ربما كان قد بدأ في الشرب كذلك؟ أكثر من كأس النبيذ الأحمر الوحيد الذي كان يهديه لنفسه في بعض الأمسيات عندما كان يجلس في غرفة المعيشة يستمع إلى الموسيقى؟ ربما كان يجلس بعد مغادرتنا كل مساء في كرسيه المريح ويستمع إلى ديميس روسوس؟ وإلا ما الذي كان ينبغي عليه فعله وهو وحده في هذا البيت الكبير.

انعطفت إلى طريق صغير بالغابة وقمت بركن السيارة. تركت يدَي على عجلة القيادة ووضعت جبهتي على ظهر يدَي وشعرت بالدموع وهي تتجمع في الحنايا بين أصابعي. تذكرت مسجل شرائط الكاسيت في سيارة أبي، *ديسيه*، وجاءتني فكرة أن هذا الجهاز ربما يكشف سبب الوفاة، فربما يكون أبي قد ترك شيئًا عليه، تسجيلًا أخيرًا، وجد فيه كلمات لما كان ينويه، أو ربما مجرد صمت قاطعه التنهد من حين لآخر.
أدركت في أثناء تخيلي هذا أنني لم أر أبي يبكي سوى مرة واحدة فقط، وكان ذلك بعد موت جدتي التي توفت في يناير عام ١٩٧٨. كانت هذه ثاني وفاة في حياتي والثالثة كان أبي.
كانت أمي قد أوضحت لي أن الأمر أفضل هكذا، فجدتي قد كانت كبيرة جدًّا وبلغت السادسة والثمانين من العمر، ولم تعد تقوى في شهورها الأخيرة حتى على مغادرة المنزل، ولم تكن هناك ميتة أفضل من أن تنام مساءً ولا تنهض مرة أخرى صباحًا. من أجل ميتة كهذه ربما يضحي أغلب الناس بسنوات من عمرهم. وجدتي قد تمنت لنفسها ميتة كهذه، ولقد كان هذا أيسر كثيرًا في فهمه عن موت أبي.
حاولت معرفة المزيد عن الحادث وإذا ما كان أحد قد استمع إلى مسجل الكاسيت ولكن كان قد مر زمن طويل على كل شيء. كانت السيارة قد تحولت إلى خردة، ومحضر الشرطة كان قد تم إعدامه. لم أجد سوى مقال في صحيفة *شفابن* اليومية. كان الحديث فيه عن حادث أليم لقي فيه رجل الأعمال كورت كيلستربرج مصرعه، وأنه كان قد انحرف بسيارته عن الطريق واصطدم بشجرة، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في موقع الحادث. خلّف كورت كليستربرج -كما كان مكتوبًا في المقال الصحفي- وراءه زوجة وابنًا.
لم تكن أمي تعلم -كما تبين- أن مسجل شرائط الكاسيت الذي كان لدى أبي آنذاك في السيارة ربما سجّل صوت ما حدث. لقد ظلت حتى النهاية عند رأيها بأنه قد كان حادثًا.
ولم يسعني إلا أن أرتضي هذه الرواية حتى لا أطرح ذكرى أبي للتساؤل، فأنا لا أريد تخيل أن أبي قد تخلى عني في محنتي وأن موته كان أهم عنده من حياتي. من يعلم ما الذي قد حدث في تلك اللحظة التي انحرف فيها عن الطريق.
ذهبت أمي وقتها إلى الجنازة وتركتني عند أحد زملاء المدرسة في برلين. ولقد صدقتها أنها فعلت ذلك من أجل حمايتي. لم تكن تريد أن أرى النعش. أرادت أن أودعه من بعيد لأن ذلك أهون هكذا، حسب ما أخبرتني. فمن مكان بعيد يمكنني أن أحتفظ به في ذاكرتي بشكل أفضل، ولا تكون صورة النعش أمام عيني، فنعش كهذا لن يكون مجرد نعش لشخص متوفى، بل للذاكرة كذلك، لأن المرء سيظل يفكر فقط في ذلك الصندوق الخشبي.
لم يكن لديّ آنذاك احتياج للذهاب معها. فلم يكن لدي تصور عن الوداع بمعنى أن يرى المرء الإنسان لمرة أخيرة، وحتى من منظور اليوم فأنا سعيد جدًّا بأن

آخر صورة لأبي لديّ لم تكن تلك لأبي وهو في النعش، بل كانت للأب الذي كان يجلس بجانب سريري ويشاهد معي ألبومي. لقد أتى الكثير من الناس من أجل الجنازة، ليسوا كثيرين جدًّا كما كان في جنازة هارتموت ولكنهم كانوا في حدود الخمسين أو الستين. أصدقاء قدامى، موظفو الشركة وبعض شركاء الأعمال.
بعد بعض الوقت عندما سافرنا إلى *توبنجن* لكي نقسم التركة، قمنا بزيارة المقابر. بالطبع كنت أعلم وقتها كل ما يتعلق بالمقابر وكنت أعلم أيضًا ما هي القبور، فلقد وقفت من قبل بالفعل أمام قبر جدتي، لكن فجأة شعرت بفراغ كبير. فبدل الناس كان هناك أحجار، كما لو أن الناس يتحولون في نهاية حياتهم إلى أحجار. خشيت أن يمتد هذا الفراغ إلى ذاكرتي وأن تبقى في النهاية تلك الأرقام فقط، وتعلقت بفكرة أن الأرقام التي على شواهد القبور تشكل مسألة حسابية. مسألة ليس بوسعي حلها وأنا لم أحاول حتى حلها في رأسي. فجأة شعرت بحاجة كبيرة إلى قلم وورقة وأصبحت غير هادئ تمامًا. ولكن لم تطاوعني نفسي أن أطلب من أمي، لأني لم أكن أعلم كيف ينبغي أن أجيب عن سؤال لماذا أحتاج إلى قلم وورقة. هل لكي أحفظ أعداد السنين؟ أليس من المفروض أني أعرفها؟ الرقمان الأهم في حياة الإنسان، نقطة بدايته ونهايته؟
لقد أسرتني فكرة أن هذه الحسبة كانت ضربًا من ضروب الحساب السحري الذي لم يتوصل إليه أحد بعد، أو سرًّا، يمكن على أقل تقدير، أني كشف معضلة الحياة. احتجت إلى ورقة وقلم، ويبدو أن أمي قد لاحظت أني قد أصبحت قلقًا. وسألتي إذا ما كنت أرغب في الرحيل، وأجبتها: نعم. ظلت واقفة للحظة أخرى أمام شاهد القبر قبل أن تشير إليّ بأنها أيضًا قد أصبحت مستعدة للذهاب.
لم أستطع في السيارة التفكير في شيء آخر. كان لا بدَّ من حل المسألة الحسابية وبأسرع وقت ممكن. قلت إنني جائع وسألت إذا ما يمكننا أن نتوقف.
ولقد جعل هذا أمي مضطربة لأنها لا تحب أن تضطر للتوقف دون تخطيط مسبق، حيث يشق عليها النظر من السيارة للبحث عن مطعم وموقف سيارات وفي الوقت نفسه مراقبة المرور على الطريق، وهو ما كان يؤدي دائمًا إلى أن يستعمل شخص ما آلة التنبيه، وتصل أمي بذلك إلى أقصى درجة من قدرتها على التحمل في القيادة. قلت: هناك على الجانب الآخر، وأشرت إلى الجهة الأخرى من الطريق. كنت قد اكتشفت مقهى. لم يكن الطعام هدفي، ووفقًا لذلك كان سيان بالنسبة لي أين سنذهب. ولحسن الحظ وجدنا بعد وقت قصير على الجهة التي نسير عليها من الطريق مكانًا كبيرًا يكفي لركن السيارة. قمنا بركن السيارة وعبرنا الطريق ثم دخلنا المقهى. قمت بطلب كعكة الفراولة وكوب من الشوكولاتة الساخنة، وطلبت من النادلة ورقة وقلمًا.

لكني لم أستطع أن أقوم بالحساب في حضور أمي، لأنها كانت ستسألني بالتأكيد عما أقوم بحسابه، خاصة أنها كانت تعلم أيضًا أن الحساب ليس ضمن هواياتي المفضلة. انتظرت إلى أن ذهبت إلى المرحاض ثم بدأت في الطرح، إلا أن الأعداد كانت كبيرة جدًّا وكان الوقت قصيرًا جدًّا. أكلنا كعكتنا وعندما جلسنا بعد ذلك مرة أخرى في السيارة، حاولت إنهاء العملية الحسابية.
ناضلت وأخطأت في الحساب بضع مرات، ولكن بعدها ظهر أمامي رقم كنت متيقنًا من أنه يجب أن يكون صحيحًا: 640076. رقم لم يكن له أي مدلول عندي. *والذي كان لا يزال خطأ أيضًا. لقد أخطأت في الحساب، كما اتضح لاحقًا. فالرقم الصحيح هو: 630046. ولكن الأمر لم يختلف كثيرًا* فكرت عدة مرات في المغزى العميق من هذا الرقم، لكني لم أصل إلى تفسير مقنع.
ربما تعبر المحصلة عن عدد النقاط التي يمكن أن تتصل بعضها ببعض لكي ترسم صورة حياته. فكنت أعلم من حصة الرياضيات أنه توجد أيضًا أعداد تحت الصفر وهي الأعداد السالبة. فربما يعبر السالب في هذه الحالة عن الموت أو الحياة في الآخرة. فقد يكون ما زال أمام أبي هناك 630046 يومًا... *مسألة حسابية مرة أخرى*، أي ... ١٧٢٦ سنة.
في النهاية كان سيكون عمر أبي تقريبًا ضعف عمر متوشالخ. وفي حالة ما إذا تم اختيار هذه البوابة من قبل فيشر كبوابة الألفية، يمكن لأبي أن يقول إنه قد رآها بعينيه. ورأيته أمامي كما كان يهز رأسه باستمرار وقال: *فيشر!*، كما لو كان لا يستطيع تصديق الأمر.
قالت أمي عندما كنا واقفين أمام قبر أبي: *لقد كنت أقول له دائمًا إنه ينبغي ألا يقود السيارة بسرعة. وعلاوة على ذلك دون ربط حزام الأمان أيضًا. كنا نتشاجر من أجل ذلك كثيرًا، لم أكن أريد أن يعرض نفسه للخطر، إلا أنه كان عنيدًا وكان يظن أنه لا يمكن أن يحدث له شيء في السيارة. كان يثور دومًا عندما كنت أرجوه أن يقود السيارة بحذر أكثر. وأنا سعيدة أنك لم تكن تجلس بجانبه في السيارة. لم أخبرك بهذا من قبل أبدًا، ولكني كنت أشعر بخوف مفزع عندما كنت أعلم أنكما معًا في السيارة على الطريق. كان يتهمني دومًا بأني أشكل خطرًا على الطريق، ولكني على عكسه لم يصبني شيء قط*.
وقفنا بجانب بعضنا في صمتٍ لفترة وجيزة، وتفحصنا شاهد القبر، وألقت الشمس بظلينا على حوض الحصى، بظلٍّ كبير وبآخر أصغر. في اللحظة الأولى رأيت نفسي بيد أمي، كما كان من قبل، وكأن شيئًا لم يتغير خلال كل تلك العقود، لكنني أدركت بعد ذلك أن شيئًا ما قد تغير، حتى لو لم يكن ملموسًا، ولزم عليَّ الاعتياد عليه أولًا.
لم أكن أنا ذلك الظل الأصغر، وسألت نفسي إذا ما كانت أمي قد رأت هذا أيضًا، لكني لا أعتقد ذلك. فقد قالت: * دعنا نذهب*. وساعدتها في العودة إلى السيارة.
بالنسبة لي على الأقل، فقد جاء موتها مفاجئًا لي، حيث إنها كانت قد أخفت عليَّ أنها تعاني من سرطان البنكرياس. وعلى ما يبدو كانت هي أيضًا لا تعلم

به إلا في المرحلة الأخيرة. قال لي طبيبها إنها يجب أن تكون قد شعرت بضغط في منطقة المعدة، وربما كانت تعاني من آلام في الظهر وغثيان وسألني إذا ما كنت لم ألحظ أنها قد فقدت وزنها؟
حتى لو كنت قد لاحظت ذلك، فأعتقد أني لم أكن لأعزي الأمر إلى سرطان البنكرياس مطلقًا، فأمي في النهاية كان لديها سلوك غذائي غريب طوال عمرها تقريبًا. كان ذلك نهاية سبتمبر، وكنت في *أمستردام* لمدة أسبوع لزيارة أحد الأصدقاء، وبعد يوم من عودتي جاءتني مكالمة هاتفية. لقد أخبرني طبيب يدعى د. شيشتر، أي الجزّار -وهو يُدعى هكذا حقًّا- أن أمي ترقد في المستشفى.
كانت نائمة حينما دخلت غرفتها. وقال الطبيب إنه ليس بمقدوره أن يعطيني أملًا وأن الأمر قد يتطور سريعًا وأن العلاج لم يعد له جدوى. كان عليَّ أن أستغل الوقت المتبقي من أجل الوداع، وهو الشيء الوحيد الذي كان بمقدور الطبيب أن ينصحني به. جلست على مقعد صغير كان بجوار سريرها وانتظرت أن تستيقظ.
لم أكن أعرف ما الذي ينبغي عليَّ قوله. إني أشعر بالأسف، لماذا لم تقل شيئًا، وإنه عليَّ أن أعتني بكل شيء، وإذا ما كانت قد قامت بكتابة وصية وكيف تريد أن تُدفن كل هذا كان قد دار في ذهني فضلًا عن كل ما قرأته من قبل عن آخر أفكار من يحتضرون: من أنهم يندمون على ما فاتهم من أشياء في الحياة. تساءلت إذا ما كانت أمي قد ندمت على شيء. لكنها لم تتحدث عن ذلك، ولا في أي من زياراتي، وبدلًا عن ذلك كانت تؤكد على مدى أهمية أن يكتب الصحافي الكتاب عن هارتموت، ورجتني أن أساعده متى احتاج، فلعل هارتموت يحصل في النهاية على المكانة التي يستحقها في دار التاريخ.
ثم قالت إنها مسرورة لأنها عاصرت الميلاد الجديد لهارتموت متزامنًا مع نهاية الطاقة النووية. فقد كان الوحيد من بين ٦٠ مليون مواطن ألماني الذي فكر في القضية النووية باتساق حتى النهاية. لم أعقّب، ولم نتحدث كثيرًا على الإطلاق وسألت نفسي ما إذا كان كلامها مجرد هلاوس، وفكرت في أن المحتضر يكون في حاجة إلى التحدث من قلبه عما أثقل كاهله مدى الحياة وذلك نظرًا للموت الوشيك، وإلى تصفية الأمور، وإلى الاعتذار والندم. وماذا إذا لم يكن هناك ما يستدعي الندم؟
كنت أغلب الوقت أجلس ببساطة بجانب سرير أمي وكنا نشاهد التلفاز، وكنت قد أحضرت لها معي كعكة ولم تأكلها وأحضرت لها معي كتبًا ولم تقرأها، ثم بعد ثلاثة أسابيع أمسكت بيدي. كانت أمي في الأسابيع الأخيرة في حالة هزال شديد لدرجة أنه قد صعب عليَّ النظر إليها، فالعظام كانت واضحة للعيان، وكانت في الواقع مجرد هيكل عظمي لا يغطيه سوى الجلد. وضعت يدها على يديّ وتحدثت بصوت منخفض لدرجة أنني قد اضطررت إلى الانحناء نحوها لكي أفهمها: *لقد حان الوقت، اتركني الآن وحدي*.
وحينما نظرت حولي مرة أخرى قبل أن أغادر الغرفة للمرة الأخيرة، كانت

مستلقية على ظهرها وكانت قد أغلقت عينيها. بعدها بثلاثة أيام قامت المستشفى بالاتصال بي هاتفيًّا.

***

في النهاية، كان موته بتلك الطريقة هو السبب وراء نشر بعض الصحف بعد أكثر من واحد وثلاثين وثلث العام عن هارتموت. فلو لم يجعل لحياته نهاية مثيرة كهذه، فلربما لم يتذكره أي صحافي، حيث كانت القصة ستفتقر إلى فن المأساة. وربما قد أخذ هذا في اعتباره عندما كتب في رسالة الوداع الخاصة به عن الكروت الرابحة التي قد سلمنا إياها. ولقد استخدم هارتموت صيغة الجمع وبعد كل ما قد عرفته في تلك الأثناء فإني أتساءل إذا ما كان هذا قد حدث دون تفكير عميق، وإذا ما كان قد جعل من إحراقه لنفسه عدة أوراق رابحة، أم أنه قد اعتبره بمثابة توجيه اتهام، لأنه لم يكن يأمل في الحصول على ورقة واحدة رابحة، بل في اثنتين.

وفي طريق العودة من *فرايبورج*، قبل *برلين* بقليل، حكت لي أمي أن موت هارتموت لم يجئ مفاجئًا لها، وهو ما كنت أفترضه دائمًا. لقد كانت تعلم أن فكرة إشعاله النار في نفسه كانت تراوده. كانت تعلم لأنه كان قد سألها -قبل أن ينطلق إلى *هامبورج*- إذا ما كانت ترغب في مرافقته.

لقد استغرق الأمر مني لحظة حتى أدرك أن الأمر لم يكن يدور حول الذهاب بمفرده إلى *هامبورج*: لقد أراد أن تشعل النار في نفسها معه، وذلك لأن التأثير لم يكن سيتضاعف مرتين فقط، بل عدة مرات، إذا ما عمدت أمٌّ معه إلى عود الكبريت. ففي مخيلته لم يكن من الممكن أن تكون هناك ضحية أكبر من أمٍّ تقوم بسكب البنزين على نفسها احتجاجًا على الأكذوبة النووية ثم تشعل النار في نفسها.

في المقابل، كان سيتلاشى بريق أمهات *فورأرلبرج* بإضرابهم عن الطعام، وبذلك قد اتضح أيضًا إذا ما كان هارتموت قد فكر فيّ أنا. لقد فكر فيّ، وعلى وجه التحديد وضعني في كل حساباته.

أصابني الصمت، وانتقلت إلى الحارة اليمنى من الطريق، وكنت أسير لمدة شعرت وكأنها أبدية خلف شاحنة وتجاوزتني شاحنات أخرى، ولكن كانت هذه هي الحارة الوحيدة التي استطعت السير فيها دون أن أعبأ بالسيارات التي تسير خلفي وبجانبي. الشيء الوحيد الذي كان عقلي يستجيب له هو أضواء الفرامل الحمراء للشاحنات التي تسير أمامي، حيث كانت تعطي إشارات لقدمي اليمنى، أما باقي عقلي فكان كالمُخدّر.

بعدما جلسنا في السيارة صامتين لوهلة من الزمن، قالت أمي: *هانّو، كل هذا ليس هينًا عليَّ*، وبعد برهة أطول قالت: *لقد تخليت عنه، لقت تخليت عن هارتموت، ولكني آمل أن يكون قد فهم سبب رد فعلي وقتها على هذا النحو عندما أخبرني بخطته. لم يكن في مقدوره الدخول في إضراب عن الطعام مجددًا أو الانضمام مرة أخرى لأي مكان دون أن يفقد مصداقيته. كانوا سيعتبون عليه مدى الحياة عدم اتساقه مع نفسه، وكان لا بدَّ من أن يضع

علامة، علامة لا رجعة فيها. علامة لا يمكن أن يكون هناك ما هو أكبر منها، آخر وأقصى أشكال الاحتجاج. لسنوات بأكملها كان كَمَن يقوم ببناء قلعة رملية وكانت الأمواج المتلاطمة تمحوها دومًا من جديد. لقد تحدث عن الشعلة وعن الراهب الفيتنامي الذي أشعل النار في نفسه احتجاجًا على اضطهاد البوذيين. تكلم عن أوسكار بروزيفيتس ويان بالاش وهنا فقط انكشف لي ما كان يجول بخاطره. فجأة اتضحت أمام عينَي قوة الأمر فوق الشخصي، والتي تحدث عنها دومًا، وكيف كان كل ما هو شخصي يبدو ضعيفًا أمامها، خصوصا عندما يكرس المرء نفسه، كما فعل هو، لخدمة الأمر فوق الشخصي. كانت الكلمات الأولى التي تبادرت إلى ذهني: لا تفعل هذا! هذا لا يستحق القيام بما تفكر فيه! لكن في اللحظة التالية أصبح جليًّا لي أن كلماتي ستكون بلا جدوى، وليست فقط بلا جدوى، بل صغيرة ومثيرة للسخرية في عينيه، لأنها كانت تخاطب المستوى بين الإنساني وهو المستوى الذي كان قد تخطاه منذ فترة طويلة، وهو ما يوضح عظمة ما قام به. لقد أغضبني أنني كنت قد فكرت، على خلافه، في الأمر الشخصي، وهذا قد بيّن لي أنني كنت لا أزال لا أفهم علام يدور الأمر حقيقةً. خطرت ببالي جملة غاندي: لا يصبح المرء غنيًّا، إلا من خلال الأشياء التي لا يشتهيها. ألا يعني هذا: أن الإنسان يجب عليه أن يتغلب على احتياجاته البشرية؟ وهو ما كان سيعني في حالته: الاحتياج البشري للبقاء على قيد الحياة والحماية من الموت. لقد كان لديه خطة والتي كان من شأنها أن تمنحني كذلك الفرصة لترك كل ما هو شخصي ورائي. لقد نظر إليّ وقال: معًا! كان فعل كهذا سيحقق تأثيرًا مضاعفًا. وبالتالي لن يكون بمقدور المرء التحدث عن فرد وحيد. هذه المرة كنت قد أدركت سريعًا ما يدور بذهنه، وتسارع نبضي ودار كل شيء من حولي وفي أثناء ذلك رأيته بوضوح على نحو لم أره به من قبل، لقد رأيت كل واحدة من مسامه كما لو كنت أنظر من خلال عدسة مكبرة، ورأيت الشعيرات في أنفه، وفي الوقت نفسه بدا تفكيري وكأنه مشلول، وجملته التالية كان وقعها كدوي صدى صوت في شِعبِ جبلٍ وحيد: دعينا نضع علامة سويًّا! لا أعلم كم من الوقت صمدت أمامه في تلك الحالة بينما كان يتحدث عن أهمية فعله، لم أستوعب الكثير، ألم قصير من أجل خلاص الناس، يسوع وغير ذلك كثير. ثم غادرت شقته دون الرد على شيء، ثم كتبت له خطابًا في المساء. كتبت لا أعلم إذا ما كان قد نسي أن لديّ طفل، أم أن ذلك لا يُمثل شيئًا بالنسبة له، أم أنه يرى أن قيامي بذلك سيكون في صالحه حيث إن تأثيره كان سيتضاعف ثلاثة أمثال. ربما كنت أمًّا سيئة، لأني كنت أعتقد أن وجود أم أهم للطفل من وجود عالم أكثر أمانًا. وربما أكون قد سُقت أمام عينيه كم هو وحيد في نضاله، لأن كل الآخرين منغمسون في حيواتهم الصغيرة وأنانيتهم. وربما -وهذه الفكرة تملكتني- كنت قد أعطيته الدفعة الأخيرة، كيف كانت فعلته حتمية، كإمكانية وحيدة ليسوق أمامنا كيف كنا حقًّا صغارًا مقارنةً بآخرين غيرنا. ربما شعر كما لو أني قد غيرت الجهة، منه إليهم. وهذا هو الذنب الذي أحمله، الذنب

المشترك. فالذنب ليس شيئًا آخر سوى مسؤولية تم الإخلال بها. حيث يجعل المرء نفسه مذنبًا عندما لا يتحمل مسؤوليته. وهذا هو واجب المذنبين أن يفعلوا كل شيء حتى يحققوا العدالة من جديد، ولقد قمت على الأقل بذلك. لقد اعتبرته واجبي أن أجعل العدالة تتحقق معه*.
لم أستطع النظر إلى أمي، فقد كانت تشعر أنها مذنبة بسببي. ففي النهاية كنت أنا مَن أعاقها عن أن تصبح بطلة ومَن يُذكرها بكل شيء، وسألت نفسي إذا ما كانت طوال كل تلك السنوات تعتبرني عبئًا. سألتها إذا ما كانت نادمة على قرارها، فهزت رأسها نافية.

---

1 منجم فحم قديم كان يستخدم لدفن النفايات النووية في تلك الفترة. *المترجم*